

الطريق إلى الغرب
أ. ب. جوتي

- ♦ المؤلف: أ.ب. جوتي "الابن"
- ♦ العنوان: الطريق إلى الغرب
- ♦ ترجمة: جرائت إسكندر
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2019
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٨ / ٢١٠٥٠

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977-765 - 196 - 7

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

أ.ب. جوتي "الابن"

الطريق إلى الغرب

رواية

ترجمة

جرانت إسكندر

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

جوتري، أ. ب.

أ. ب. جوتري «الابن»: الطريق إلى الغرب

ترجمة: جرانت إسكندر

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019

544 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 21050 / 2018

الترقيم الدولي 7 - 196 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - جوتري، أ. ب.

تقديم

أدت قصة «السماء الكبرى» إلى شهرة أ. ب جوتري (الابن) الأمر الذي مهد الطريق أمام استقبال قصته «الطريق إلى الغرب» بحماسة شديدة ومنحه جائزة «البوليتزر».

وقد وُلِدَ أ. ب. جوتري (الابن) في ولاية مونتانا، وكان أول عمل يمارسه في حياته هو الصحافة، ثم انتقل للعمل في مجالات كثيرة من بينها مصلحة الغابات، ومشروعات الري، ومخازن البقالة. وأصبح عام ١٩٢٦ محرراً صحفياً في مدينة لكسينجتون. واستمر في هذا العمل لفترة طويلة في هذه المدينة. وفي عام ١٩٥٠ مُنحت قصته «الطريق إلى الغرب» جائزة «البوليتزر». وفي هذا قال برنارد دي فوتو: «إن رائد الغرب الأول وجد قصته أخيراً». كما قال ستيرلنج نورث عن الحوادث المثيرة التي احتوتها القصة: «إنها تتضمن في مادتها الرعب الذي أثارته الأبقار والمياه المندفعة... والهنود، والحية الرقطاء، والزوابع، ومنحدرات الجبال المخيفة. إن «الطريق إلى الغرب» هو ما يجب أن تكون عليه القصة التاريخية، ولكن قلما يظهر من مثل هذا النوع من القصص بخصائصها».

الفصل الأول

بدأت بشائر الفجر تظهر في الأفق بعد أن كانت السماء تمطر في الليلة السابقة، ذلك النوع من المطر الخفيف الذي يتساقط عادة في منتصف شهر مارس. وحينما دلف «ليجي إيفانز» من باب المطبخ، شاهد الطريق الموحد الذي يقود إلى المخزن، وكذلك آثار حذائه فوق هذه الأوحال، الأمر الذي جعله يؤمن بأن كل شيء أصبح مبتلاً. وكان هذا المنظر كافياً لكي يوحى إلى نفسه ويقتنع بعدم العمل، حتى إن كان عملاً خاصاً بتثبيت آلات أو تشذيب وإصلاح شيء خاطئ. ولم يكن تفكيره هو الذي أوحى إليه بالتوقف عن العمل، ولكنه كان يشعر في قرارة نفسه بعدم الرغبة في العمل في ذلك اليوم.

لذلك قال وهو يغلق الباب:

- ربيكا، يخيل إليّ أنني سوف أذهب إلى المدينة.

فردت عليه قائلة كأنها تلومه:

- لتتحدث عن أوريجون؟

فأجابها وهو يتسم في الوقت الذي كان يجلس فيه فوق مقعد:

- لِمَ لا؟ إنني لم أفكر قط فيما سوف أتحدث فيه، ولكنني سوف أتحدث في أي شيء يأتي في الحديث عرضاً.

وكان يعرف أنها تشعر شعوراً تاماً بما يدور في أعماقه، ولكنه لم يكن يهتم بذلك؛ لأنها كانت دائماً تعرف ما يجول بخلده.

فردت عليه قائلة حينما كانت تجفف آخر طبق كانت تقوم بتنظيفه، ثم تعلق المنشفة على علاقتها الخاصة:

- إنني لا أدري لماذا أصبح كل فرد مجنوناً فجأة.. الكل يتحدث عن أوريجون، وأنت تعرف أنها بعيدة لدرجة لا تستطيع معها معرفة مكانها أو تحديده تحديداً دقيقاً.

- ليس كل إنسان، وليس العدد الذي سوف يكون عليه الوضع.
- إنها سوف تكتظ بطريقة مخيفة... إن هذا الكلب لا يترك كل شيء في مكانه.

ثم تناولت فرشاة من أحد الأركان. ونظر «إيفانز» إلى روك (الكلب) الذي ترك نفسه يسقط في وسط الحجرة، مما أدى إلى ترك علاماته على الخشب البالي لأرض الحجرة، ثم قال:

- إن روك كلب طيب.

وحين ذكر اسم الكلب، رفع الكلب رأسه ومشى متثاقلاً حتى وصل إلى «إيفانز» ووضع ذقنه بين رجليه، وكان كبر السن قد ظهر على روك، وكانت السنون قد أطفأت البريق الذي كان يلمع في عينيه الرماديتين، وكان نصف روك يتتمي إلى فصيلة «كلاب الصيد»، أما النصف الآخر

فهو غير معروف، ولكنه كان كلبًا وسيماً يجمع خليطاً من اللونين الأبيض والأزرق، وكان طيباً في سلوكه، لذلك دافع عنه «إيفانز» قائلاً:
- إنك تطلبين الكثير حينما تسألينه أن ينفض قدميه قبل أن يأتي هنا.

ولكن ربيكا أبدت تذمرها وهي تقوم بإزالة الشيء الأبيض الذي تركه روك. وتوجه «إيفانز» بحديثه إلى روك، في الوقت الذي كان يمسح بيديه على رأسه، وقال:

- إنك لن تستطيع أن تذهب؛ لأنك سوف تمزق كلاب المدينة، وتوقعني في مأزق في يوم من الأيام.. هذا ما سوف تفعله.
- إنني لست على ثقة، ولكنني أقول لا.. طبعاً لن تذهب. إنه مجرد حديث.

- كيف ذلك يا بيكي (ربيكا)؟

- ليس إلى أوريجون.

فقال:

- لا تتركي يا بيكي تفكيرك مستقلاً الآن. إن ما سوف أحدهه في ذهني سوف يكون على ضوء ما يقرره الآخرون.

ولكنها أصدرت صوتاً بعدم الارتياح، وكان إيفانز يعرف أن ذلك يبدو غريباً؛ نظراً لاختلاف التفكير والانقسام في وجهات النظر. وقد لا يعتقد أي رجل آخر أنها لا تزال باقية كما كانت، ولكن لا يخطئ في أنها تناسبه لأي شيء آخر، ربما لأنها تعرفه في مظهره وداخل نفسه،

والرجل لا يعرف ما يعرفه الناس عنه، ولكنه يعرف في قرارة نفسه ما يُخفي وما يُظهر.

وتساءل:

- هل يرغب براوني في السفر معي؟

- لقد سمعته يقول إنه ذاهب للصيد، لذلك تجده يحفر للبحث عن الديدان الآن.

- حسنًا يفعل.

ثم قالت وهي تحملق فيه:

- إن فيه جزءًا كبيرًا منك، لقد كنت متعودًا على الصيد، وهو يفعل ذلك الآن.

- والآن أكره ذلك!

- إنني لم أقل ذلك يا ليجي، ولم أقصد أن أقول ذلك.

وكان على إيفانز أن يبتسم في قرارة نفسه، ففي كل مرة يجعل نفسه ضئيلاً كانت ترد عليه قائلة: «إنني لم أقصد ذلك» وبعد ذلك ترك لأفكاره العنان وأخذ يقول:

- سوف تصبح أوريجون شيئاً طيباً للإنسان الذي يعرف كيف يخلق منها مكاناً للإقامة، وضمها إلى أمريكا.

ثم أخذ يردد هذا الكلام في ذهنه، على الرغم من أنه لم يكن يعكس ما يشعر به.

- ولم تجب بيكي على ذلك، ولذلك استمر في حديثه قائلاً:
- يجب أن يكون القنص والصيد طيباً في أوريجون، لذلك سوف يميل براوني إليها، ولن يأكل الإنسان هناك مع الأرانب والوحوش. وعلى أي حال فإن براوني يرغب في الذهاب.
- تحدثت في المرة السابقة عن الأرض فقلت إنها طيبة.
- الأرض أيضاً وكل شيء.
- كيف عرفت ذلك؟
- هذا ما يقولونه.
- ديك سمرز لا يفكر في أوريجون بهذا الشكل كثيراً، وهو لا يعتقد أنها صالحة.
- ديك لا ينظر إليها هذه النظرة، ولكنه ينظر إليها على أنها مصدر للثروة والفراء وغير ذلك، ولهذا لا يفكر في الفلاحة والزراعة.
- إنه يفكر تفكيراً سليماً.
- إن ذلك لا يبدو طبيعياً.. إنك تستطيع أن تضع حيواناً في قفص، ولكن هذا لا يتناسب مع طبيعته؛ لأن «ديك» ليس حيواناً.
- يجب أن تدعوه يا ليجي. إن «ماتي» تبدو في حالة يُرثى لها.
- ربما يجب أن أفعل ذلك.
- وخطت عدة خطوات نحوه، وقالت:
- ليجي، يجب أن نجعل براوني يفكر في كل شيء؛ لأننا يجب ألا

نخطو خطوة مفاجئة بالنسبة لأوريجون.

- لا، لن يحدث ذلك، ولن تكون خطوتنا مفاجئة.

- حسنًا.

قالت ذلك بعنف وهي تضع الفرشاة جانبًا، وذلك في الوقت الذي تحول فيه نظر إيفانز إلى الباب الذي فتح وبرز منه براوني، وتساءل إيفانز قائلاً:

- ألا ترغب في الذهاب إلى المدينة؟

فأجاب الابن:

- لا تقل ذلك يا بابا.. إن هذا اليوم هو يوم الصيد.

فرد عليه إيفانز، وهو لا يزال يمسح بيده على رأس الكلب، وعيناه تفحصان براوني:

- لا يهم ذلك. ربما كنت أعتقد أنك قد سئمت من نفسك، وأنني أقسم يا بني بأنك لو استطعت أن تكسو العظام لحمًا لأصبحت رجلًا إلهيًا.

وكان براوني في اعتقاد إيفانز قد وصل مرحلة الرجولة؛ إذ كانت عظامه عريضة وطويلة، وعضلاته شديدة ومفتولة، ووجهه مكسواً بحمرة الخمر. وكان فتىً طيباً خجولاً ومتخلفاً، جاء إلى الوجود في وقت أصبحت الأمور فيه في غاية من الصعوبة، وكان لا يعرف كيف يتصرف في حضرة النساء، ولا يعرف كيف يتحكم في نفسه أو يطلق لها العنان؛ لأنه كان يخشى المواقف. ونهض إيفانز وهو يقول:

- أرجو أن تكون قد حققت صيدًا طيبًا؛ لأنني أصبحت ميالًا لأكل السمك بعد أن أكلت الكثير من لحم الخنزير المجفف والبازلاء.. سوف أذهب.

واقتربت ربيكا من الباب، في الوقت الذي كان يخرج منه إيفانز، ووجهت حديثها إليه قائلة:

- تذكر يا ليحي...

فأومأ برأسه، واستمرت ربيكا في حديثها:

- إنك لم تعد صغيرًا كما كنت من قبل.

- لسنا جميعًا صغارًا، ولكنني لست كبيرًا إلى هذا الحد، ولا أنت؛ فأنا أبلغ الخامسة والثلاثين من العمر؛ أي أول مرحلة من مراحل الرجولة. ابق حيث أنت يا روك.

ولم ترد ربيكا على ذلك بشيء، وإنما اكتفت بإغلاق الباب ببطء.

وذهب إلى الحظيرة وأسرج بغلاً، وكان عليه أن يقطع ستة أميال للوصول إلى «إندبندس» في منتصف اليوم إذا تحرك على الفور، أو بعد ذلك بقليل إذا تكاسل البغل في المسير، وقد تكاسل البغل، وكان هو يرغب في أن يشترك في رحلة أوريجون؛ لأنه كان فخورًا بأن تكون له يد في ذلك، وفي بناء «كوخ العم سام» ووقف الإنجليز. وكانت ميسوري تكفيه كرجل يرغب في العيش إذا أراد العمل في حدود لا تجعله غنيًا، فهو يستطيع أن يعيش ويكافح الحمى ويتاجر، ويأمل أن يشتري في يوم من الأيام زنجيًا حتى يكون عنده وقت كاف لكي يفعل ما يريد أن يفعله.

ولم يكن ما يرغب فيه «إيفانز» هو امتلاك مجموعة من الزوج ومنزل كبير، وعدد من الجياد الممتازة مثلما يحدث في مناطق القطن الواقعة في جنوب البلاد، ربما لم يكن يرغب في امتلاك أي زنجي؛ لأنه كان رجلاً عبد نفسه. ولم يكن يعرف: هل من حق الإنسان أن يمتلك إنساناً آخر أبيض أو أسود؟ ولكن كان كل همه ورغبته هو الحصول على الكثير من الحياة أكثر مما استطاع أن يجده.

وكان هذا يبدو عملاً سخيّاً.. الذهاب إلى أوريغون. ولكن كان شيئاً طيباً أن يفكر في وسيلة للخروج عن تقاليد الوسائل القديمة، والتحرر من الأماكن القديمة. وكما قال أبوه، حينما كان يتحدث إليه وهو متجه إلى أوهايو في قارب صغير: لم يكن هناك أجمل من هذه البقعة التي تقع هناك.

وكان الوقت مناسباً للتحرك، وهو الوقت الذي كانت فيه الحقول والأشجار تبدو عارية تشير إلى أن الربيع سوف يأتي، واندفعت الدماء في جسده وبدأت الأفكار تراوده، فحينما تذكر احتراق منزل والده وزحف النيران إلى المدخنة المصنوعة من الطوب اللبن، اكتسحه الشعور نفسه، وكأن الحادث يمر أمامه في ذلك الوقت بطريقة لا يرغب في تكرارها، بل إنه يستطيع أن يبنى حياته من جديد كما يرغب، وأن يسير على منهج مختلف، وهو أمر سوف يجعل الناس يظنون أنه معتوه إذا عرفوا ما يدور بخلده.

وكان يعتقد أن اليوم سوف يكون دافئاً حينما تمر به العربة وسط عدد من الأشجار المنتشرة في البراري، وتحقق ما كان يعتقد؛ إذ شعر

بالشمس تدفئ فخذي، وظهر في ذلك الوقت سنجاب صغير وسط الحشائش ينظر إليه، وقال: «إيفانز» مخاطباً نفسه إنه كان يستطيع أن يطلق النار عليه ويصيب رأسه إذا كانت بندقيته معه، ولكنه تركها في المنزل؛ لأنها ثقيلة.

كان البغل يسير متوغلاً في الأوحال وهو لا يشعر بغباوته ولا يعرف الفضول، أيدرك ما تفعله الطيور حينما تبني لنفسها عشاً؟ ربما يدرك هذا البغل أكثر مما يدرك الإنسان، ولكنه يسير بطيئاً وحزيناً تحت ثقل الأفكار.

وبدأت المدينة تظهر شيئاً فشيئاً، وبدأت المباني الأولى المنتشرة على الأرض المبتلة والتي أغرقت أخشابها مياه مطر الأمس، في حين وقفت الكلاب تعطس في الزوايا والأركان أو تندفع إلى الفضاء لتنبح. وهناك أيضاً زوجان من الخيام يلمح بياضهما في ضوء الشمس، وثلاثة رجال يجلسون على قطعة خشب ممدودة قريين بعضهم من بعض، في حين كانت بنادقهم قريبة من أيديهم، ربما كانوا يتحدثون عن أوريغون منتظرين البدء. وكانت المتاجر مزدحمة بالعملاء الذين يدخلون ويخرجون، أما الزوج فكانوا يفرغون البضائع الآتية من أماكن أخرى. وكان هناك ثلاثة من المكسيكيين يسرون أمام وجهة «نولاند هاوس» بقبعاتهم المخروطية العريضة، كما لو كانوا لصوفاً من النوع الذي كان يسرق تجار سانتافيه.

وكان هناك رجلان يقفان أمام وجهة مخزن هيتشكوك يتحدثون باهتمام شديد، أحدهما هو تادلوك أحد مواطني إلينوي الذين قدموا إلى

مدينة «إندبنس» للحدث بشأن أوريجون. ولم يد استعداده ورغبته في الاشتراك مع أي مجموعة تكون قد تكونت، وإنما أعلن أنه يهدف لتكوين مجموعته الخاصة. وكان تادلوك يبدو مشغولاً كل الوقت وفي كل مكان، كما هو الحال في ذلك الوقت الذي وصل فيه إيفانز.

وكان الرجل الآخر يقف زائغ النظرات، وآثار الخمر تبدو على محياه؛ إذ ظل يومئ برأسه إلى تادلوك، كما لو كان يقول نعم لكل ما يردده.

قال إيفانز: «كيف حالك يا مستر تادلوك؟».

فالتفت تادلوك وظهرت عليه علامات التذكر، وأجاب: «نعم صباحك يا إيفانز».

وأخذ إيفانز يجذب البغل إلى حيث يمكن ربطه، في حين كان يشعر ببعض الوخزات في ركبته، وبعد أن ربطه، توجه إلى الرجلين الواقفين. فقال تادلوك:

- هذا هو هنري ماك بي... ليحي إيفانز.
فتصافحا.

واستمر تادلوك يقول:

- سوف يذهب ماك بي إلى أوريجون. كيف حالك الآن؟ هل قررت رأياً وحددت موقفك؟

- لا أستطيع أن أجيب بالنفي أو الإيجاب؛ إذ إن عقلي من النوع الذي يقرر وضعه إذا زودته بالإمكانات اللازمة.

ولم يكن تادلوك يعتقد أن مثل هذا الوضع يتطلب السخرية، لذلك قال:

- من الأفضل أن تتقدم في طريقك؛ لأنه سوف تكون هناك أشياء يجب فعلها.

وتساءل إيفانز:

- من أين أتيت يا ماك بي؟

- من جنوب أوهايو - مدينة شينشنتاي.

وأعلن تادلوك:

- هذا هو الرجل الذي يعرف كيف يحدد موقفه ورأيه.

فأجاب الرجل:

- نعم يا سيدي، كل شيء يتم فجأة. اشترت كل شيء، ووضعت زوجتي وأطفالي في المركب، واتجهنا إلى الخارج، وهنا نحن أولاء الآن.. ومرحبًا بأوريجون. إن الأحوال ليست طيبة الآن في أوهايو.

فهز إيفانز رأسه، وقال:

- والأمور ليست على ما يرام هنا كذلك.. دعنا نتناول شرابًا.

فقال ماك بي، وهو ينظر إلى تادلوك، الذي كان يهز رأسه:

- يا إلهي! إنه لتفكير سديد.

وهنا قال تادلوك:

- إنني لست من هواة الشراب.

وكان يبدو أنه يفكر مرتين. وأضاف قائلاً كما لو كان لا يعني ذلك:

- اذهبا أنتما معاً.

وبداً يتحرك.

- عندي رجلان آخران أود أن أقابلهما، وسوف أحضرهما معي

بعد فترة.

وتحرك إيفانز وماك بي متجهين إلى الحانوت، وكان هيتشكوك يضع يده على جهاز الحسابات منتظراً التجارة، في حين كانت عيناه المحمرتان تحملقان فيها، لذلك كان من الممكن القول بأن هيتشكوك من مدمني الخمر من أول وهلة.

وكانت هناك رائحة جلود في المكان، وكذلك الجبن والملابس المتناثرة على الصندوق، والويسكي الموضوع فوق «الطاولة»، واختلطت هذه الرائحة برائحة الفراء الحديثة الملقاة في الخلف.

وقال إيفانز:

- قدم إلينا الشراب أيها العجوز اللص!

- أول شيء معقول أسمعك تقوله منذ أن عرف الله متى يكون ذلك.

وسحب هيتشكوك كأسين، وظن أن الموضوع قد انتهى فسحب لنفسه كأساً.

وقال ماك بي، بعد أن مسح لحيته بكم معطفه قبل أن يشرب:

- نعم يا سيدي، قلت لنفسى أوريجون الآن؛ لأن بها مكاناً لكل

رجل.

وتحركت تفاحة آدم بسبب تدفق الويسكي، ثم قال:

- ليس هناك أي منطق في دفع المعدة إلى العمل من أجل لا شيء.

وانحنى هيتشكوك على «الطاولة» وقال:

- إنه يشبه داء الكلب، إذ تحدث العضة ويستمر الشعور بالرغبة في العض، أو قد يشبه كلبًا مع عظمتان، فهو لا يستطيع أن يلذ بالعظمتين في وقت واحد، ولكنه لا يترك كلبًا غيره يأخذ إحدى هاتين العظمتين. دع الإنجليز يأخذون أوريجون، ولنكتف بعظمة واحدة.

وسأل ماك بي:

- إنك لن تستطيع وقفهم عن التحرك إلى أوريجون!

فأجاب إيفانز:

- ليس... ما دامت توجد «طاولة» نستند إليها، وشرابًا نتناوله!

وترك إيفانز نظره يتركز على ماك بي، ثم قال:

- ما هو العيب بالنسبة لميسوري؟ نفس الناس هنا، وكثير من اللحم للغذاء، وتستطيع النوم في سرير دافئ مضمون.

فقال ماك بي:

- أعتقد أنك لا تدرك إدراكًا تامًا. املاؤ الكأسين، هلاً فعلت ذلك؟

ولما حان موعد الحساب، فشل في رفع سراويله، ثم تحول إلى

إيفانز وقال:

- لعنة الله عليّ، لقد تركت نقودي في العربة.

وهنا دفع إيفانز الحساب وقال:

- إنك لست من نوع الرواد يا هيتشكوك، دعهم يستقرون، ثم اذهب بعد ذلك ببراميلك وكحولك وأفكارك الخاصة بالثراء، فالبقالة ليست مما يمكن تسميته بالمغامرة.

- إنها جزء من قليل، أنت تعرف ذلك يا ليجي. يجب على صاحب أي حانوت «بقالة» أن يعرف كيف يكون سريعاً في سحب مسدسه. ومد يده كما لو كان يظهر استعداده لما قد يحدث، مهما تكن الطبيعة.

- وأين ستكون من غير أي حانوت؟

فرد ماك بي قائلاً:

- يا الله! عن طريق الديون.

فحملق هيتشكوك فيه، وقال:

- إنني أشير إليك، وأذكرك بأنه لا توجد عربة أو قاطرة تسير بالديون.

- كنت أمزح فقط.

ثم قال إيفانز:

- خذ معك حانوتك، وتستطيع ببعض المال القليل أن تؤسس حانوتاً جديداً.

فأجاب هيتشكوك:

- سوف أكون ثريًا.. سوف أكون، عن طريق التجارة في البيض وأنواع المأكولات، وما يمكن أن أضعه داخل الحانوت.

فتساءل إيفانز:

- لماذا تتجر إذن؟

ونظر إليه هيتشكوك وأخذ يهز رأسه:

- إنني أعمل بالتجارة دائمًا إذا كان الإنسان الذي أتعامل معه عاقلًا ومقبولًا. إنني سوف أقدم لهذا الإنسان «جوز الطيب» الخشبي الذي قدمه إليه أحد الأمريكيين «يانكي» في إحدى المناسبات؛ لأنني أصبحت عجزًا لدرجة أنني لا أستطيع أن أفتح عيني. إنني أقوم بالتجارة معه؛ لكي أصل إلى أحسن الشروط وأفضل النتائج.

- كيف يكون ذلك؟

- أتجر في لا شيء مقابل لا شيء.. أتوصل إلى تبادل تجاري عن طريق «جوز الطيب» إنها تجرح كبريائي حينما أنظر إليها.

سمع إيفانز الباب يُفتح فتحول إليه ليرى تادلوك يلججه ومعه رجلان آخران، أحدهما يبدو أنه لا يعدو أن يكون غلامًا.

وأخذ هيتشكوك يحملق في تادلوك، ثم قال:

- أعرف أنك لا ترغب في الويسكي. أليس كذلك؟

وكان يبدو في كلامه وكأنه يستغرب بالامتناع عن الشراب، في حين أن الجميع يتناولون الشراب، وهو ليس من الوعاظ الذين يتحدثون عن جهنم والنار!

وبعد ذلك قال تادلوك:

- حسنًا. إيفانز؛ صافح كيرتس ماك، وشارلز فيرمان، وهذا هو هنري ماك بي.

وتصافح الرجال، وكان شارلز فيرمان هو الرجل الذي يبدو صغيرًا، وكانت ملامحه جميلة وعيناه سوداوان، وجبهته مرتفعة، ومظهره جاد، يشعر الناظر إليه بأنه قد اعترك الكثير من الصعاب في سنوات طويلة، أكثر مما يعتقد الناظر إليه من أول وهلة.

وكان كيرتس ماك أكبر سنًا، ويختلف اختلافًا تامًا، وهو أمر جعل إيفانز يظن أنه يبلغ الخامسة والثلاثين، وكان من طراز الرجال الذين لا يبدون الكثير من الاهتمام لما يدور حولهم؛ إذ إن جزءًا منه يكون بعيدًا وفي مكان آخر، وهو يبحث من الخلف أو الأمام عما يمكن أن يفعله. وقال تادلوك:

- لقد انضم ماك وفيرمان إلى صحبتي.

فصاح ماك بي:

- مرحبًا بأوريجون.

ثم قال تادلوك، كما لو كان يمتلك الجميع:

- لقد أصبحنا قرييين برجالي من إلينوي. إننا لا نرغب في صحبة كبيرة؛ لأننا نرغب في أن يكون سفرنا خفيفًا وسريعًا.

وسأل ماك بي فيرمان:

- كم عددكم؟

فأجاب الرجل الصغير:

- زوجتي وابني.

- متزوج، آه!

وهز فيرمان رأسه وقال:

- كنت أفكر.. عندي فتاة تبلغ السابعة عشرة. ووالدتي وخمسة آخرون بجانبهما.

وطلب إيفانز المزيد من الشراب، ولم يكن بيكي يجاريه، ثم سأل من حوله:

- هل لكم في شراب؟

ولم يجبه أي إنسان آخر سوى ماك بي.

- أعتقد أنني أرغب في شراب.

ثم أجاب الجميع بالإيجاب ما عدا تادلوك، ورفع فيرمان كأسه وقال:

- في صحة مكان لا توجد به حمى.

فرد عليه ماك بي قائلاً:

- أجل بالله، ومن أجل التربة الغنية، أزرع مسمارًا وسوف ينتج عنه مسمار كبير. إنني أهيّب بكم ألا تكدسوا العشب، فالحشائش والأعشاب كافية في الشتاء لإطعام الخراف والحملان. دعوا العشب ينمو وسوف ترون الحملان تنمو وتكبر وتسمن، هذه هي فكرتي عن الفلاحة.

فقال إيفانز:

- يبدو لي أنكم جميعًا على استعداد، ولكن أمامكم شهرًا أو أكثر قبل أن تبدأوا في التحرك.

فهز ماك رأسه وقال:

- إن أول شيء هو الخدمة الممتازة، والأرض الطيبة، والإقامة المريحة، والعمل المناسب.

ثم صمت وأخذ يحملق إلى الأمام كما لو كان قد رأى أوريجون أمامه والأرض والموقع، ومكان العمل الذي تحدث عنه، وكان يحرك إبهامه فوق أصابعه من ناحية راحة يده.

وقال تادلوك:

- إن أماننا الكثير من العمل قبل أن نستطيع البدء في ذلك.

فأحنى فيرمان -الرجل الصغير- رأسه وقال:

- كلما أمعنت في التفكير فيها، ازدادت إيمانًا بأنني على حق؛ لا حمى، وأرض جديدة، وفرص جديدة.

فأكمل إيفانز حديثه:

- وطرق جديدة للحياة والأشياء.

وكان يقول ذلك بعد أن قرأ ما يدور في خلد فيرمان، لذلك ابتسم له فيرمان وهز رأسه علامة على الإيجاب.

ثم تحدث تادلوك:

- طبعًا، إنك تفعل الصواب، ويجب أن تنضم إلينا يا إيفانز الآن.
فتساءل هيتشكوك، وهو يمسح جانبًا من فمه بظهر يده، وأخذت
عيناه المنتفختان المحمرتان تجولان من فرد لآخر:
- ولكن ما عيب ميسوري؟

ثم توقفت نظرات التساؤل، واتجه بعينه إلى المدخل، واتجه معه
إيفانز. وكان الباب قد فُتح وولجت منه فتاة تاركة نصفه مفتوحًا خلفها،
ووقفت عند المدخل مثل الطائر الذي يقف مستعدًا للطيران، ونظرت
إلى إيفانز، وكانت فتاة من النوع الذي لا يظهر كل يوم، مجسدة في
ملابسها الفضفاضة التي ترتديها. وكانت السرعة والحذر يبدوان على
وجهها الشاحب وفمها الممتلئ، أما عيناها فكانتا واسعتين سوداوين
تشعان ضوءًا وبريقًا.

وقالت، وهي تقف عارية القدمين، وصدرها الصغير يعلو ويهبط
داخل الثوب الفضفاض:

- بابا...

فنظر ماك بي، وقال:

- حسنًا...

- ماما تريدك... يجب أن تحضر إلى البيت على الفور.

وقال ماك بي، وهو يعبث بلحيته:

- أخبري أمك بأنني مشغول.

- قالت لي أرجوك أن تحضر.

ورفعت قدمًا إلى أعلى ثم أنزلتها بجوار الأخرى، وظن إيفانز في ذلك الوقت بأن والدتها أوصتها بعدم العودة من غير والدها، لذلك قال لها والدها:

- أخبريها بأنني سوف أحضر حينما أستطيع ذلك، وليس قبل ذلك، هل تسمعي؟

وحول إيفانز نظريه عنها إلى ماك بي، ثم جال بهما بين الحاضرين، فلمح ماك وهو منصرف وعينه مشغولتان بما يمكن أن يسمى جوعًا، كما لو كان قد أطلق لأفكاره العنان، ولم يهتم الآخرون بالموقف كثيرًا، ربما لأنهم لا يشعرون بمثل هذه المواقف كما يشعر بها إيفانز نفسه.

ثم قال ماك بي:

- اذهبي أنت.

فتحولت الفتاة ببطء وخرجت، ثم اختفت عن الأنظار بعد أن أغلقت الباب خلفها.

وقال ماك بي:

- لعنة الله عليها من امرأة! إنها تريدك دائمًا لشيء «إنها ابتلي ميرسي».

ثم دفع يده إلى جيبه ليجث عن شيء من الطباق لغلبيونه.

وشرب الجميع بسرعة لفترة دقيقة واحدة، ثم تولى تادلوك تحويل الموضوع الذي كان يدور بخلد الحاضرين، وقال:

- لم نقرر بعد مسألة المرشد، يجب علينا أن نبحث عن مرشد ممتاز.

فرد عليه ماك قائلاً، ونظره مركز على المدخل:

- هناك كثيرون ممن يقولون إنهم كذلك، فهناك مثلاً «آدمز» أو «ميك».

ولكن ماك بي لوى فمه، وقال:

- أراهن أنهم لا يعرفون أين يذهب المسمار نفسه.

ثم عاد تادلوك وقال مرة أخرى:

- إن آدمز لم يذهب في حياته بعيداً عن قلعة «لارامي»، وأي معتوه يستطيع أن يذهب إلى «لارامي»؛ فهي البلدة التي تلي هذا الموقع مباشرة.

فسأله ماك:

- وماذا عن ميك؟

ولكن تادلوك تحول إلى إيفانز وهو يقول:

- إنني أعرف أنه وآدمز يستويان في معرفتهما، أنت تعرف من غير شك مرشداً جيداً.

- لا أعتقد ذلك.

- إنك تتحدث كما لو كنت تستطيع.

- كنت أفكر فقط.

وانتظر تادلوك، ثم قال إيفانز:

- أعتقد أنني أعرف أحدهم، ولكن العثور عليه هو الأمر الصعب.

- من هو؟

- لا أعرف. ويجب عليّ أن أحادثه أولاً بنفسه، ربما قد يوافق على قولي.

- ولماذا يعترض؟

ثم أمر ماك هيتشكوك بإحضار المزيد من الشراب.

- إنني لا أعرف، ربما لا يقبل.

- وكيف تخشى إخباره بذلك؟ إن قولك لا يلزمه بشيء. ويجب أن نعرف ما إذا كنا سنضع الافتراض أو لا نستطيع. سوف يكون هناك مبلغ كبير من المال له، ليس مبلغًا يعادل أموال الشركات، ولكن العمل على أي حال سوف يكون أقل.

وقال إيفانز وهو يعيد ملء كأسه:

- أعتقد أنك على صواب. إنه لن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك، إنه ديك سمرز على كل حال، وهو الشخص الذي استطاع أن يذهب إلى كل مكان للصيد والقنص وقتال الهنود، فهو يستطيع أن يقودنا وهو مغمض العينين.

- أين يعيش؟

- إنه جاري.

- هل هناك فرصة للاتصال به؟

- من الصعب أن أقرر ذلك الآن.

- ولكن سوف تتولى إخباره بذلك. إننا لا نستطيع أن نعتمد على شيخ يسير متوكئاً على عصاه وقنينة الخمر في يده.

وقال إيفانز ببطء، وهو ينظر إلى تادلوك:

- إنني أعتقد أن ديك سمرز من أحسن الرجال الذين قابلتهم في حياتي.

- سوف تذهب معنا لرؤيته.

- غداً، أو بعد غد.

- حسناً. وسوف نتولى تحديد ما سندفعه له.

وكان تادلوك قد حدد في ذهنه الرقم الذي سيقدمه في ذلك الحين، ولكنه لم يذكر أي شيء عن ذلك، وحينما تحدث كان يسأل إيفانز:

- هل قر رأيك على شيء الآن؟

- لست متأكداً بعد.

- سوف نكون فريقاً كاملاً في وقت ضئيل.

وتساءل ماك قائلاً:

- لماذا ترغب في البقاء هنا، في الوقت الذي تستطيع أن تذهب فيه إلى أوريغون، وكما قلت من قبل، من يأتي أولاً سوف يلاقي الخدمة الممتازة.

ولكن لم يكن عند إيفانز أي إجابة حاضرة على ذلك.

لذلك قال فيرمان الصغير، كما لو كان يعني ذلك:

- آمل أن تستطيع الحضور.
- وقال تادلوك، وهو يعد على أصابعه:
- إنك تعرف أن وادي ويلاميت يعتبر واديًا خصبًا وجميلًا أيضًا،
أبعد كثيرًا مما نستطيع أن نتصور.
- هذا ما يحدثوني عنه.
- إنه منطقة غنية، ومن الممكن الوصول إليها عن طريق المياه أو
النهر أو المحيط.
- فوافق إيفانز، وقال:
- كانت لجنة «أيوا» تعرف ما تحدث عنه -منذ عامين- أليس
كذلك؟
- كيف يكون ذلك؟
- لنأخذ الطقس مثلًا أو القوة المائية أو الصحة أو الخشب أو التربة
أو الأسواق المناسبة، فإننا سوف نجد أوريجون تتفوق في كل ذلك.
- كان ذلك قبل أن يأتوا هنا.
- إنك سمعت قصة مختلفة منذ ذلك الحين.
- ألا تعرف كما أعرف.
- وقال تادلوك مستخدمًا يديه كما لو كان واقفًا أمام مكتب:
- هناك سبب أفضل أيضًا.
- ثم توقف برهة وواصل حديثه:

- هل هذه هي بلدنا أو بلد إنجلترا؟ هل تريدون أن تصبح بريطانية؟

- هيتشكوك يريد ذلك، ولكني لا أريد.

- حسنًا، ما الذي ستقررونه الآن؟ الشعب هو كل شيء، الشعب
مثلك ومثلي، إذا كانت عندنا النية الكافية للاستقرار هناك.

اندفعت الدماء إلى وجه تادلوك، وقد استطاع إيفانز من محرابه أن
يرى شريانًا ينبض في رقبتة، في حين كانت الكلمات تندفع من فيه.
وبعد ذلك تحرك إيفانز، في حين استمر تادلوك يقول:

- إنهم يقولون أربعة وخمسين أو القتال... وإنما يجب ألا نحارب
إذا كان هناك عدد كافٍ منا على الأرض.

ثم تهدل صوته واستمر يقول:

- إنه لمن الفخر بالنسبة لك يا إيفانز ولأولادك وأحفادك أيضًا
الذين ينادونك بلفظ «بابا» أو «جد» أن يكتسبوا أرضًا جديدة، أو هل
تريد أن تجلس على المقعد وتترك الآخرين يصنعون التاريخ؟

وأخرج تادلوك منديلًا من جيبه مسح به جبهته، وقال:

- هذا هو كل شيء، إلا أننا نريدك أنت.

وتساءل ماك قائلاً:

- ماذا تعتقد؟

وقرأ إيفانز في وجه فيرمان أمله في أن يقول نعم، لذلك قال إيفانز
وهو ينظر من وجه لآخر ليرى الجميع منتظرًا في صمت حتى ماك بي
نفسه:

- إنكم تخرجوني.. أخبروني ماذا أفعل؟ إذا ذهب ديك سمز،
سوف أذهب معكم.

- حسنًا.

واندفع ماك بي يقول:

- فلتتصافح.

ثم طلبوا شرابًا آخر ما عدا تادلوك وفيرمان، وخرج إيفانز وحل وناق
البغل وركبه متجهًا في طريقه إلى بيته، وكان يقول في أثناء سيره إنه ترك
الخمير تتحدث عنه، ولكن ظل يتساءل عما سوف يفعله. وكان الوضع
يبدو كأنه استقر على حل معين، ولكنه ظل يراود نفسه بأن الوضع سوف
يتوقف على قوله نعم أو لا، وسوف يذهب إذا ذهب ديك، وربما يذهب
بأي طريقة أخرى؛ نظرًا لوجود الرجال الأحرار والشجعان، والهدف
من تحقيق خلق أمة جديدة، كما سوف يكون هناك اتجاه جديد للأشياء
والتربة الطيبة والصيد والقنص الثمين، والطقس المناسب، ولن تكون
هناك حمى، مرحبًا بالذهاب إلى أوريجون. ولم يستطع أن يفسر كيف
اتجه هذا الاتجاه، ولكنه بدأ يشعر بالتعب في رأسه من كثرة التخيل
والتصور، إنه سوف يذهب لأنه يرغب في الذهاب لأسباب لا حصر
لها... وسوف يذهب إذا شعر بالشعور الذي يشعر به الآن بعد أن
انطفأت النيران فيه.

ونزل من فوق البغل وحل رباطه ولجامه، وتركه في حظيرته متجهًا
إلى بيته.. وتذكر في هذه اللحظة أنه لم يأكل شيئًا، وأنه يشعر بالجوع.
وكانت الشمس تنحدر تجاه الغرب في السماء وتخرج أشعتها الباهتة

من وسط السحب المتكاثفة، لذلك كان يبدو أن جو الغد سيكون طيباً ومناسباً، وهو أمر سوف يدفعه إلى تقليب الأرض وفلاحتها؛ لأنه يعتمد عليها، وأخذ يكرر لنفسه عبارة «إن الإنسان لا يصنع التاريخ»، وكان يقف ملتصقاً ببيته وهو في هذا التفكير.

ورحب بمقدمه روك العجوز، ثم توجه إلى الباب وفتحه ليرى ربيكا واقفة بجوار المدفأة، وهنا صاح: «ضع سروالك عليك يا بيكي.. إننا ذاهبون إلى أوريجون».



الفصل الثاني

انصرف الجميع من الحانوت بعد أن خرج منه إيفانز، وكان تادلوك قد أعلن أن عنده عملاً يجب أن يحضره في نولاند هاوس، في حين اتجه ماك بي إلى بيته لمعرفة ما تريده امرأته، واعتذر ماك بالانصراف قائلاً إنه متجه لشراء بعض الماشية.

وفي الوقت الذي خرج الجميع فيه من الباب تارकिन هيتشكوك يحملق فيهم ويشيعهم بنظراته، كان تادلوك يراقب إيفانز وهو يمتطي صهوة بغله، وقال:

- هذا هو الرجل الذي أرغب أن يكون بصحبتنا.

وكان هذا هو الشيء الذي يفكر فيه شارلز فيرمان أيضاً؛ إذ إنه كان يحب هذا الرجل الضخم ذا الخلق السلس الذي تبدو عليه دلائل الفكاهة الطيبة والوجه البشوش، والقدرة البدنية، واليدين الضخمتين، والهيكل الكبير. إنه الرجل الذي يتمنى كل إنسان أن يصاحبه في رحلة محفوفة بالمخاطر والصعوبات الطويلة، وكان يعطي أملاً بأن صحبته سوف تكون أمتع وأفضل من صحبة تادلوك الذي سوف يكون متعالياً، صعب المعرفة.

وقد قال ماك لتادلوك:

- أتوقع أن إيفانز سوف يحضر بعد هذه الخطبة التي ألقيتها.

- إنها الحقيقة التي أبرزها الله.

فقال ماك، وهو يتسم ويضع قبعته على رأسه، ويتدئ في المسير:

- الحقيقة التي أبرزها الله على لسان تادلوك.

وحيا فيرمان الحاضرين، وسار في طريقه إلى ما يسميه بيته الذي لم يكن سوى حجرتين في منزل على وشك الانهيار، ولكنه على أي حال أفضل بكثير من الخيمة. وكان يشك في أن يستطيع تود العيش في خيمة يشعر فيها بالحمى، وكان يرغب في أن يكون له مأوى ورعاية، وفوق ذلك يريد أن يكون عنده هواء جاف مثل ذلك النوع الذي يجده الناس في وادي «بلات» الشاسع الأطراف، الواقع بين الجبال في منطقة أوريجون، حيث لا أثر للحمى على الإطلاق.

وتمنى فيرمان في هذه اللحظة أن يتدئ التحرك على الفور بعد أن نظر حوله وشاهد الأكواخ تنغمس في الأحوال. وبعد أن شعر برطوبة الهواء على الرغم من ارتفاع الشمس، وكان الضباب المخيف يغطي مدينة «إندبندس» كما هي عادة الأراضي المنخفضة في كنتاكي. وكان يتساءل في بعض الأحيان ويريد معرفة سبب ترك والده لفيرجينا متجهًا إلى كنتاكي عبر المنخفضات، ثم إلى أوهايو على عدة مراحل. لقد كانت فيرجينا أكثر البلاد صلاحية من الناحية الصحية، وقد اعترف والده على أي حال في أيامه الأخيرة، حينما ترك جانبًا روح المغامرة، بأن الناس لا يخضعون للتجمد في منطقة معينة، وإنما يظلون يتحركون وينظرون إلى غايات بعيدة، حتى ولو كانوا لا يستطيعون التحرك.

وحينما اقترب فيرمان، قامت سيدة المنزل بفتح الباب وفي يدها منفضة من الريش تزيل بها الأتربة والقاذورات العالقة، وكان طرف أنفها أحمر كالعادة نتيجة القيام بأعمال الطهو، ثم قالت وهي تتوقف عن التنظيف وتترك ذراعيها تنزلان إلى أسفل ببطء:

- أوه.. إنه أنت.

ثم تحول نظره إلى أنثى خنزير راقدة في الأوحال، ثم أخذت تنهض وتنظر بعينين صغيرتين بلهاوين، ثم أصدرت صوتًا غبيًا، وهربت بعيدًا.

وسأل فيرمان:

- ماذا تقولين؟

- كان يوجد رجل هنا.. كنت تقول دائمًا إنك تريد رجلًا آخر.

- أوه! حسنًا. هل تعنين أنك سوف تذهبين معنا؟

- لقد قال إنه سوف يذهب من أجل الركوب والحصول على الغذاء.

- هل تحدث إلى زوجتي؟

- إن يفعل ذلك؛ يعرف الله كم تستطيع النساء الحديث، ولكني لم أقل شيئًا.

ثم عطست ومسحت أنفها.

- هل أستطيع أن أعرف أين ذهب؟

- ذهب إلى مكان ما، ولكنه قال إنه سوف يعود مرة أخرى.

فقال فيرمان:

- لقد فهمت.

وكان يأمل أن يعود الرجل بعربتين وماشية تكفي لجر هاتين العربتين، وكان يحتاج إلى رجلين، بأقل تقدير، كان عنده واحد منهما على درجة كبيرة من النشاط يهوى مضغ الطباق طوال اليوم، ويمضي يومه دائماً في حظائر الثيران والخيول والبغال.

ودخل فيرمان المنزل، ثم قالت المرأة وهي تحدث نفسها ووجهها مستدير نحو كتفها:

- إن له وجهًا صارمًا.

ثم اتجه إلى حجرة وفتح بابها المؤدي إلى المكان الذي تحتله أسرته، ونظر إلى جوديث، تاركًا وجهه يسأل عن حال تود، فابتسمت ونادته قائلة:

- تود. لقد عاد والدك.

فخرج تود مسرعًا من المطبخ راكبًا عصا.

- يا لك من ولد مشاغب. أأست كذلك؟

ثم أبعد العصا من بين فخذه، وقال:

- سوف أمتطي صهوته إلى أوريجون.

فقال فيرمان وهو يلمس العصا:

- سوف يكون حصانًا لطيفًا بالنسبة لشخص يبلغ الخامسة من

العمر، إنك أحسن قافز.

فابتسمت جوديث لابنها، ووضعت يدها على رأسه، وقالت:

- إنه سوف يكون مستعداً، لقد أصبح سميناً بما فيه الكفاية.

فحذرهما فيرمان قائلاً:

- إنها لا تزال أرض الحمى.

- ولكنها لا تشبه بادوكاه.

- ربما. إنه لا يبدو أحسن حالاً.

وحدث فيرمان نفسه بأن تود قد أصبح أفضل من قبل، على الرغم من أنه لا يزال هزياً، يشبه الطائر الصغير، ولكن عينيه أصبحتا صافيتين، وأصبح لونهما أكثر بريقاً.

فقال تود:

- إنني على أحسن حال. لماذا لا نذهب الآن؟ ولماذا ننتظر يا والدي؟

- سوف نذهب قريباً، وتذكر أن تقول دائماً يا والدي.

وهزت جوديث رأسها، كما لو كانت تقول إنها لا تتعب نفسها بالتفاهات، ثم أخبرته:

- لقد تناولنا غداً لأنك تأخرت كثيراً، ويوجد على المائدة أمامك دجاجة باردة وخبز ولبن.

فذهب إلى المطبخ، أو الحجرة التي يمر منها إلى المطبخ، وجلس

أمام المائدة، ونادى زوجته وهو يبعد ساقيه بعضهما عن بعض:

- جودي، لقد كنا نسير في الاتجاه السليم.

فحضرت إليه مع تود، وقالت:

- أوه!

- ليست الحمى فقط، وإنما كل شيء.

- أرجو ذلك.

- إنها تجعل الإنسان يشعر بأنه شيء يُذكر - هذه المغامرة - وسوف

تكون معنا صحبة طيبة، كنت أتحدث مع بعض الرجال.

وترك لأفكاره العنان وهو ينزع قطع اللحم من صدر الدجاجة، فأخذ يتصور المزرعة التي سوف يمتلكها في أوريجون، وسنابل القمح الصفراء المتماوجة، والسفن التي تأتي من كولومبيا لشحنها. ورأى، أو تخيل، تود قويًا يكسوه اللحم ويتمتع بالصحة، بدلاً من الضعف الذي يعتره، وأخذ يتصوره وهو ينمو وتنمو معه المنطقة ويزداد أهمية مع ازدياد أهمية البلاد، وشعر بهذا التخيل بالفرح بعيداً عن المنغصات التي تسود حياته، وقال:

- سوف يكون الأمر صعباً في البداية، ولكننا سوف نستطيع تحمل

القليل من الصعوبات، أليس كذلك يا بني؟

وامتطى تود العصا مرة أخرى، وصاح قائلاً:

- أواه!

وقال فيرمان، وهو يدرس آثار كلامه على جوديث:

- هناك شيء واحد فقط، إنني أتمنى أن أوفق في إحضار عبد لنا.

- لا تهتم كثيرًا بي، فسوف أتحمّل كل شيء بسهولة.

فأجاب، وهو يجعل لهجته صادرة من القلب:

- حسنًا.

ولكن عقله عاد إلى كنتاكي، حيث اشترك أهالي تينيسي وكمبرلاند مع أوهايو وعاشوا في بيت وليس في أكواخ، واشتغلوا معًا، وعاشوا معًا، وبدأوا معًا. وقد شعر في لحظة سابقة بآس شديد، وتملكه الشك بأن جوديث نفسها لن تستطيع أن تتحمّل الصعاب؛ لأنها لم تكن فتاة قوية، ولكن من يدري، لعل الوضع يختلف. لقد كانت تعمل على حسب حدود طاقتها وقدرتها، لدرجة أنه كثيرًا ما يجدها في حالة انهيار، وكان يشعر في بعض الأحيان أن لحم خديها وشفتيها يقتربان من الاختفاء، وأنه يشعر بقوة تدفعه إلى النظر إلى عينيها الزرقاوين اللتين تمتلئان بالتحذير، ليستشف ما يدور في أغوارها.

وكانت كثيرًا ما تسقط ضحية الحمى أيضًا، وتمر بمراحل اليأس والخطورة وارتفاع درجة الحرارة، وتستمر في تناول الأدوية المقاومة و«الكينين». وكان فيرمان قد قام من أجلها ومن أجل تود أيضًا ببيع مزرعته الصغيرة، وأخذ عبيده القلائل وذهب على ظهر مركب بخاري إلى سانت لويس ثم إلى «إندبندس»، وكان المركب قذرًا يعج بالرجال الذين تفوح منهم رائحة القذارة والعفن والخمر، في حين كان الشر يتطاير من أعين الهنود الفقراء، وكانت الأشجار العارية تصطف على طول الساحل بطريقة تصلح لأن تكون حجرات هوائية، في حين كانت

الأغصان المائلة تغطي جذوع هذه الأشجار وتحجب معظمها عن الرؤية. وكان يبدو أمام فيرمان أنه يرى المرض هناك أمامه ويرى الحمى تنتشر فوق أرض لا هواء فيها ولا مجال للتنفس، وكان يشعر أيضًا بأن هذه الحمى تجري مع المياه أسفل المركب، مع التيار الثقيل البطيء الأصفر القادم من أوهايو والميسيسيبي، ولذلك شعر برغبة ملحّة في العودة إلى حيث أتى.

وقال مخاطبًا نفسه إنه كان على حق في ذلك الوقت، لقد كان يعرف أنه ليس رجلًا عمليًا، ولكنه يشعر بأنه على حق بالنسبة لأوريجون. وكان يشعر هو وجوديث أن تود لا يمكن أن يعيش في أرض النهر المنخفض؛ لأن الأمراض تنتشر وتخيم على كل بقعة فيها، وأن الطريق ممهد لعودة المرض، حتى إذا استطاع الإنسان أن يتخلص من مرض معين لحقه آخر. وعلى هذا الوضع عاش كل من فيرمان وجوديث في خوف صامت ولكنه حقيقي، ويقع بعبئه على كاهليهما، وكان فيرمان يشعر بالخوف في الليل والتفكير المستمر عن صحة ابنه الذي يشبه جلده لون الذهب، وذهب تفكيره بعيدًا ليشعر بأن الحمى قد انهكت جسد ابنه الذي بدأ يذوي ويذبل، مما جعل قلبه يقفز بين ضلوعه ويشعر بخوف قاتل، فجلس في سريره محاولًا إبعاد شبح هذه الصورة من مخيلته ورأسه.

وسأله تود:

- بماذا تفكر؟

- فكرت في أن أذهب إلى الخارج، وأنظر بعض البغال.

فردت جوديث قائلة:

- ألا تعتقد أن الوقت لا يزال مبكرًا؟

- أعتقد أن الأسعار سوف ترتفع حينما تكتمل التجمعات الحقيقية.
وهنا سأل تود قائلاً:

- هل أستطيع أن أذهب يا بابا؟ أعني يا والدي؟

فنظر فيرمان إلى زوجته، وقال:

- أعتقد أنها لن تضره، إذا لم ترغب في أنت في الذهاب أيضًا، إن الجو لطيف في الخارج.

واسترسل فيرمان وهو ينهض ويسير متجهًا إلى ساحة المنزل الذي
بنيت خصيصًا لجعلها مركزًا للبيع:

- أعتقد أنك تستطيع يا بني.

وقد كان يومًا لطيفًا وطيبًا من نوع الأيام التي تجعل الإنسان يميل
ويرغب في العمل على الفور، فقد كانت الشمس رائعة، وكانت رياح
الربيع عبارة عن نسيم عليل بطيء في سيره، ولم يكن هناك ما يعكر هذه
الطبيعة سوى الأوحال. ولم يهتم فيرمان بالأوحال وبالصعوبات التي
سوف يواجهها حينما تشق العربات طريقها وسط هذه الأوحال، وشق
فيرمان طريقه وسطها وأمامه تود.

كان فيرمان يمتلك ثلاث عربات تقف على عجلات حديدية يبلغ
قطرها ثلاث بوصات، ثم أحضر عربتين كبيرتين مصنوعتين من الخشب
الجيد وأرضها من صفائح الحديد، وصنع فوقها صندوقًا يمكن أن يضم
منقولاته الأساسية وحاجياته، ويستطيع أن يجلس أو ينام فيه إذا احتاج

الأمر. واستطاع أن يجمع جميع معدات وأدوات سحب هذه العربات، وأن يشتري بندقية ومسدسًا وموقدًا من الحديد، وغلاية وفرناً هولنديًا، وأطباقًا وأقداحًا من الصفيح؛ لأن أقداح الفخار سوف يصعب حملها بسبب ثقلها والخوف من كسرها، وكان يمتلك خيمة وأسطوانة لصنع الزبد، وواحدة لخلط اللبن، وجهازًا لصنع الحبال التي تستخدم لربط الحيوانات.

وكانت قائمة المعدات التي وردت في ذهنه كاملة، لذلك يجب أن يفكر الآن في الإمدادات والغذاء واللحم، والسكر والمواد الجافة، والبن والأرز، وربما القليل من الخمر، والخل، وكذلك الكتب، وبخاصة كتب الأولاد؛ لأن الكتب سوف تكون نادرة في البلد الجديد. وهو يستطيع أن ينتقل إلى المكان الجديد بعربتين أكثر من بقية المسافرين.

وكان من أهم الأشياء التي يجب أن يضعها في اعتباره هي مسألة القوة الكافية لسحب العربات، ثيران للعربتين (سبعة أو ثمانية بأقل تقدير)، وبغال للركوب، وبقرات لاستخراج الألبان، وماشية لدفعها إلى الطريق ولاستخدامها فيما بعد. هل يحاول أن يأخذ معه أغنامًا ودجاجًا، وإوزًا؟ يجب على الإنسان أن يستمع إلى جميع أنواع النصائح؛ لأنه يرغب أن يكون متبثًا من كل شيء.

والأدوية؟ يجب ألا ينسى إمدادات كافية من الأدوية.

وكان قد وصل إلى لب الموضوع، حينما سمع صوتًا يناديه من الخلف:

- أتبحث عن رجل يذهب معك إلى الغرب؟ هل أستطيع أن أكون

رجلك يا مستر فيرمان؟

فاستدار وقال:

- نعم.

ثم انتظر ليرى رجلاً مديد القامة، يرتدي قميصاً سميكاً وسروالاً طويلاً مرتفعاً وقبعة عتيقة.

وأعلن الشخص:

- اسمي هيج، أو هذا ما يطلقونه عليّ، وهو اختصار لكلمة هيجنز، أود أن أكون في عربتك. قد تكون السيدة قد أخبرتك بذلك كله.

وقد كانت السيدة على حق حينما ذكرت أن وجهه كان منقبضاً؛ إذ إنه ليس كبير السن، ولكنه فقد أسنانه، الأمر الذي سهل عليه تحريك فكاه وأنفه الرفيع، وكانت العينان تبدوان مزدحمتين أيضاً بالمعاني الكامنة تحت الحاجبين، وقد لاحظ فيرمان أن الطيبة تبدو على محياه، كما لو كانت الطبيعة قد حاولت رسم خطوط الطيبة وحسن الخلق عليه.

وقال الرجل:

- إنني أرغب في الذهاب.. امنحني مكاناً لكي أضع رأسي عليه، أي مكان قديم، وبعض الدريهمات لتغذيتي، وسأكون أنا تابعك. كيف حالك يا بني؟

- هل أنت ذو خبرة؟

- إن أي رجل لا يصل إلى عمري من غير أن يتعلم ويعرف.

- أعني هل تستطيع أن تدير حظيرة؟ وتدفع عربة؟ أو تتقدم للمعونة إذا طُلِيت منك؟

- بالتأكيد يا سيدي، إنني قد أبدو صغيراً وعديم الخبرة من الخارج، ولكنني قد بلغت درجة كبيرة من النضج من الداخل.

- ما هدفك من النضج؟

- لا أعرف ذلك معرفة تامة، وإنما أرغب في الذهاب إلى مكان لم أذهب إليه من قبل.

وكان هذا هو سبب الغالبية نفسه، وهو ما عبر عنه فيرمان، لذلك سأله:

- ما عمرك؟

- هذا ما لا أعرفه، وقد اعتاد والدي أن يقول: إنني أصغر من أن أموت، وأكبر من أن أرضع.

وظهرت علامة الرضا على الوجه المنكمش، علامة قد تتسع إذا وجدت لها مخرجاً.

- إن الرجل الذي آخذه معي يجب ألا يخشى العمل.

- لا أستطيع أن أقول لك كم أحبه، ولكنني أبذل الكثير من أجل العثور عليه، بشرط ألا يقتلني! وقد أخبرك في الوقت نفسه بأنني أرغب في الفكاهة.

وتساءل وهو ينظر بعينين ثابتتين إلى فيرمان:

- إنك سوف تحتاج إلى الفكاهة حينما تجد نفسك تأكل «بوشل»

من التراب، وتجد امرأتك تسألك كيف الحال، وبأنك تفقد عقلك
ورأسك من أجل أوريجون.

- من أين جئت؟

- الآن أو من قبل؟

- حسنًا. الاثنان معًا.

- الآن من بيتسبرج، وويلنج، ولويزفيل، وما بينها. أما من قبل فقد
أتيت من هنا -ميسوري.

- هذا عمل جدي، يجب أن تظل هادئًا ومرتزًا.

- هذا ليس أمرًا شاقًا بالنسبة لي، سواء في الإقامة أو الشراب،
فإنني لا أتناول شرابًا.

وظل فيرمان يقلب الأمر من جميع زواياه، ويفحص بعينه الرجل
مبتدئًا بجبهته التي تتسم بالطيبة، إلى الوجه المنكمش، ثم إلى بقية
الجسد، والقدمين اللتين تتعلان حذاء قديمًا ذا رقبة. لقد كان يحتاج
حقيقة إلى رجل آخر، وفي الوقت الذي كان يتأمل فيه هيجنز، انبرى
هذا الأخير قائلاً:

- إنني أستطيع أن أحدد أيضًا وضع الأشياء، وأن أعالج البنادق
والمدافع، وأصلح العجلات. هل ترى الآن؟

وانتظر... وحينما لم يرد فيرمان على الفور، أخرج يديه وقال:

- انظر إليهما، إنهما تشبهان المخالب، إنني نحيف، ولكني
قوي مثل الشوك الذي يعلو ظهر القنفذ، إنني لا أطالب بأي شيء

سوى أن أذهب معكم وأساعدكم، وأتناول غذائي من وعائكم.
- حسنًا.

وانحنى هيجنز إلى تود وقال:

- سوف نكون نحن الاثنين قريبًا، أليس كذلك يا صغيري؟
سوف ننشر الفكاهة والضحك.

وشعر فيرمان بأن يد تود قد ازدادت شدة في يده، فنظر إلى
أسفل، ورأى الصبي يتسم ويخبر هيجنز:

- اسمي تود، وعندي حصان.

فقال هيج:

- تود.. أليس كذلك؟

ثم رفع رأسه إلى فيرمان وقال:

- إذا كان الأمر يسير هكذا يا سيدي، فإنك قد استخدمت رجلًا
معك.

وقال فيرمان، وهو لا يرغب في التقيد والالتزام بشيء بعد:

- حسنًا.. إنني كنت ذاهبًا لمراقبة بعض البغال.

- سوف أجرها إذا لم يكن عندك أي اعتراض.

ووصل هيج إلى مكان تود وتناول يده، وظل فيرمان يفكر قليلًا
من غير أن يستطيع فعل أي شيء، وأصبح من المحقق أنه استأجر
أو استخدم رجلًا.

وكان تاجر البغال يقف بجانب أعمدة «السور» يدخن سيجارًا، وهو ينظر من خلال الدخان إلى الحيوانات في الداخل، وكان رجلًا ناعمًا يرتدي الياقات المستديرة ويلوك السيجار في فمه الكبير، وكان يحمل سيفًا صغيرًا في منطقتة، وهو يقول:

- إنني أعتقد أنكم ترغبون في شراء بعض البغال، هل ترغبون في ذلك؟

- أعتقد أنني أرغب.

- عندي بعض منها لا تستطيعون العثور عليه.

وقال هيج:

- إن هذا هو الكتاب المقدس... أراهن على ذلك.

فنظر إليه الرجل بحدة، ثم استمر في حديثه:

- خذ هذا النوع غير العادي الضخم الواقف هناك.

ثم أشار بسيجاره الضخم:

- سوف يأخذك إلى المكان الذي ترغب فيه، ثم يعيدك منه،

وهو يخضع لاتجاهات الغالبية ويسير في ركابها، وقدماه ثابتان، ويستطيع أن يدور حول نفسه داخل عش الدجاج ولا يتعرض لأي بيضة بالكسر.

ثم نفخ الرجل في سيجاره، كما لو كان يريد إثارة الرياح، واستمر يقول:

- إن اسمي توليتي.

- وأنا فيرمان، وهذا هيجنز.

- غرباء... أَلستما كذلك؟

- إنني لم أكن هنا منذ مدة طويلة.

وقال توليتي:

- وأنا كذلك، ولكنني هنا منذ فترة تكفي لإقامة تجارة من أجل أوريجون، إنك تنوي الذهاب إلى أوريجون، أعتقد ذلك، إنها بلد جميل.

وقال تود:

- لن أصاب بالحمى بعد ذلك.

- هذا حسن. لعنة الله على الحمى وما تتسبب فيه من آلام وهزات. والآن ماذا عن البغال؟

ثم سار إلى الحاجز ورفع الحواجز التي تغلق البوابة، وأخذ ينظر إلى رجل قفز إلى ظهر جواد واستقر مدة دقيقة، ثم بدأ يتأرجح على «السرج»، ثم سأله توليتي وهو يحمل حاجز الباب في يده:

- هل تبحث عن بغال؟

فأجابه الرجل:

- إنني أسعى لإيجاد بعضها، وقد أخبرني جاري بأن أبحث له عن بعض الأنواع الممتازة.

ثم نزع قبعته وأخذ يمر بيده على رأسه التي يكسوها شعر فضي

اللون، وكانت جميع حركاته وكلماته مقصودة وسهلة، كما لو كان قد عاش فترة طويلة كافية للشعور بأن وطنه في أي بقعة من بقاع العالم.

فقال توليتي:

- إنك على حق - عندي بعض الأصناف الممتازة سوف أقدمها إليك مباشرة.

ثم تحول إلى فيرمان وقال:

- أستطيع أن أقدم لك واحدة أو اثنتي عشرة منها، هناك بغل ضخم يستطيع أن يسير بنفسه من غير أي رقابة.

- إنني أريد فقط الأنواع التي يمكن امتطاؤها؛ لأنني سوف أشتري بعض الثيران للعربات.

- ألم تشتريها بعد.. آه؟

- ليس بعد؛ إذ إنني كنت أجوب السوق لشراء بعض الماشية أيضًا.

وهنا قال توليتي، وهو يشير بسيجاره:

- دعني الآن أخبرك بشيء، إنني أبيع البغال والثيران معًا، حتى ولو لم يكن عندي ثيران في الوقت الحاضر، وإذا كنت سأذهب إلى أوريجون فإنني سوف أذهب راكبًا بغلاً.

- لماذا؟

- لأن البغل أسرع وأكثر بهجة، وأسهل قيادة، وأفضل من جميع الأوجه، ومن الأفضل الجلوس عليه أيضًا.

فقال هيج، وهو يبتسم ابتسامته الرقيقة:

- زيادة في الرياح وأقل في المطر.

واستمر توليتي يتحدث على الرغم من هذه المقاطعة:

- إن أي ثور سوف يخدم غرضه على أحسن حال، ولكن حينما يتعب ويرقد فوق الأرض، فلن يستطيع أي إنسان أن يجعله ينهض ولو بحزمة من العشب الجاف.

وهز تود يد والده فيرمان، وقال:

- إنني أريد البغل الكبير يا والدي.

- ليست هذه هي طريقة الكلام يا تود.

وقال توليتي:

- قل لي.. كيف تلتقط الأشياء؟ وأين سمعت ذلك؟

ثم سأله فيرمان:

- ما المبلغ الذي تطلبه؟

- أربعون دولارًا للواحد، وخمسة وسبعون للاثنين، واختر ما

تشاء.

- هذا يكفي.

- رخيص.. رخيص مثل التراب.

ثم دخل هيجز في المناقشة مرة ثانية:

- من أين أتيت؟ إن هذا التراب غال وعزيز.

ولكن توليتي اكتفى بالنظر إليه حين سأله فيرمان:

- وهل ستأخذ معك بغلاً؟

- تستطيع أن تمتطي صهوة بغل، أو تحمله ما لا تستطيع أن

تفعله مع الثور. وسوف يأتي الوقت الذي تجد نفسك فيه محاطاً

بالبهود، فماذا تفعل بالثور البطيء؟

- ألم تسافر في عربة؟

- لا. ولم أفقد أي شيء مني، ولكنني أعرف اللحم الطيب معرفة

تامة.

- نصيحتك ليست هي ما أرمي إليه.

- سوف يخبرك الناس بأي شيء.

ووضع الرجل قدمه على عارضة الحاجز، ومد يده وبها اللجام

الذي أخذ يلوح به، ولم يكن نحيفاً أو سميناً كما كان فيرمان يعتقد،

ولكنه كان مليئاً بالعضلات، وكان وجهه صارماً، ولكنه هادئ كما

لو كان يعرف الصعوبات والصبر. وتساءل فيرمان:

- ماذا تقول يا سيدي؟

- إنها ليست صفقتي.

ثم وجه الرجل كلامه إلى توليتي قائلاً:

- ما هو شعور الهنود تجاه البغال؟

فأجاب توليتي بسرعة:

- إنهم يشعرون بالجنون والرغبة الشديدة مثل أي شخص آخر.

وهز الرجل رأسه بهدوء، كما لو كان قد أوضح نقطة هامة، ثم نظر إلى اللجام في يده.

وفتح توليتي فمه كما لو كان قد تذكر فجأة شيئاً تركه، ولكنه لا يستطيع أن يفصح عنه.

وهنا قال هيج:

- إن ما يميل إليه الهنود هو السرقة.

ثم رفع الرجل رأسه، وكانت علامات الإيجابية تبدو على فيه، ولكن عينيه كانتا مسمرتين.

وأدار توليتي رأسه متوجّهاً إلى الرجل، وقال:

- إن لك أنفًا حادًا طويلاً.

فتدخل فيرمان قائلاً:

- انتظر. لقد سألته سؤالاً سوف يجيب عنه. هل تعني أن الهنود

يسرقون البغال فقط، ولا يسرقون الثيران؟

- ربما.

وحاول توليتي أن يزيع الرجل جانباً، فقال:

- اترك السيد يشتري ما يريد، إن هذه المسألة ليست من شأنك.
وكان الرجل يبدو هادئاً وهو يضرب اللجام في راحة يده،
وحينما تحدث مرة أخرى ظل هادئاً.

- هذا البغل الكبير الواقف هناك.. يبدو أنه كان ملكاً لتوم
بروكتور. وكان توم قد اعترف بأنه أقوى حيوان شاهده.
- هذا ما كنت أقوله لهم منذ لحظة.

واستمر الرجل يقول:

- نعم يا سيدي، لقد قال توم إن البغل يحدد هدفه، ثم يدفع
قدمه في وجه الرجل الذي يريده، ثم يحطم ما يريده، حتى ولو كانت
الأسنان، ولا يخطئ الهدف نفسه.

وقال هيچ:

- هذا هو ما أقوله من أن قدمه ثابتة مؤكدة، وأراهن أنه يستطيع
أن يطيح بأسناني لو رغب في ذلك بفرصة واحدة.
فصاح توليتي قائلاً:

- لماذا لا تتعد أنت - لعنة الله عليّ إذا لم أركبه.

ثم أخذ يعدو نحو البوابة وقد صمم على شيء.

وظل الرجل واقفاً في هدوء، في حين بقيت قدمه على الحاجز
ويده على ركبته. وكان فيرمان يتعجب مما إذا كان قد سبق له مشاهدة
الخنجر الذي يتمنطقه توليتي أولاً.. وكل ما استطاع أن يقوله هو:

- مهلاً أيها الضيف العزيز.

وتوقف توليتي، مثل الكلب الذي اندفع إلى الخارج بسبب ثورة عارمة، ويرغب في حسم الموقف في آخر لحظة، وقد بدأت لهجة الجد تظهر على صوت توليتي حين قال:

- أأست راغباً في شراء أي شيء؟ ليس عندكم هنا أي عمل شريف جاد؟

فقال الرجل، وهو ينتزع قدمه من فوق الحاجز متجهاً إلى جواده:

- أأعتقد أن هذا صحيح.

- ما اسمك؟

فأجاب «هيج» موجهًا كلامه إلى توليتي:

- ربما أولد هيكوري، أو ربما أندي جاكسون بشخصه نفسه.

- اسمي ديك سمرز.

وكرر فيرمان:

- ديك سمرز؟

فأجاب الرجل وهو يحرك رجله فوق الحصان، في حين ظل ساكنًا فترة دقيقة واحدة، ثم أخذ ينظر إلى الجميع من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم، من توليتي بسيجاره الضخم إلى هيج ثم فيرمان وتود، ثم استدار بجواده.

وكان فيرمان يرغب في مناداته لسؤاله عما إذا كان هو نفسه
رجل الجبال، وعما إذا كان يرغب في أن يصبح مرشدًا للفريق الذي
سوف يذهب إلى أوريجون. ولكنه ظل صامتًا في الوقت الذي كان
الحصان فيه يشق طريقه باندفاع؛ لأنه كان يعرف أنه سوف يرى
الرجل الثاني الذي سوف ينتقل معه في رحلته.



الفصل الثالث

جلس ديك سمرز فوق جذع شجرة مقطوع وأخذ يدخن غليونته، وكانت الأيام تبدو أطول مما سبق، وكان الغسق قد بدأ ينشر ظلاله بين الأشجار، وكانت المرأة قد أضاءت النور في الكوخ، والتصق بالجذع وهو يعرف أنه يجب أن يذهب ليحضر البقرة ويتولى حلبها؛ بعد أن عرف أنه لا يوجد أي شخص آخر يتولى هذا العمل، وظل ساكنًا في مكانه يدخن غليونته.

وكانت الضفادع تقفز خارجة من المستنقع الضئيل الذي يتكون من مجرى المياه الصغير الذي يأتي من شق صغير، وكانت رائحة الربيع وهوّاه الجميل ينتشران في كل مكان، وكان شكل الأشجار يوحى بمجيء الصيف، وقد أخرجت البراعم زهورها، وأخذت أوراق أشجار الفراولة تهتز لمرور نسيمات من الهواء العليل. ولكن يجب عليه أن يذهب الآن لحلب البقرة.

وهناك بعيدًا على طول سهل «بلات» أو «جرين ريفر» أو «بوبو أجي» أو «ثري فوركس» أي الشركات الثلاث، في الشمال يوجد الصيادون -أو ما تبقى منهم- ينصبون المصائد ويجمعون صيدهم

ويعدون أيامهم حتى يوم اللقاء، إلا في حالة عدم وجود لقاء، وحيث توجد قلعة «جيم بريجدر».

وتحرك رجل من الكوخ، فشاهد فيه «سمرز» جاره «ليجي إيفانز» الذي قرأه على الذهاب إلى أوريجون، وهو يرغب الآن في أن يوافق الجميع على الذهاب. وتساءل إيفانز قائلاً:

- هل لك رغبة في مصاحبتنا؟

ووقف بجسده الكبير على الأرض، وقدم إلى سمرز زجاجة خضراء كان يعرف أنه قد أحضرها له وشرباً منها، ثم عادا إلى غليونيهما، وبعد فترة قال إيفانز:

- إنها تخلق منا جسداً شفافاً يا ديك.

فهز سمرز برأسه، وهو لا يتكلم، وإنما ترك الكحول يدفئ معدته، في حين ظل يفكر في البلاد الجميلة التي قال لها في يوم من الأيام وداعاً. ولكن منذ متى؟ في الفترة ما بين عامي ألف وثمانمائة وسبعة وثلاثين، وألف وثمانمائة وخمسة وأربعين، ثمانية أعوام، ولكنها كانت تبدو كما لو كانت ممتدة إلى الأبد. وكان يعجب في بعض الأحيان من الأعشاب الوحشية التي تنمو وسط الجبال بلونها الأزرق، ومن الثيران والأبقار الوحشية التي تثير أصواتاً كالرعد وهي تركض.

كان قد ودعها، وعاد إلى ميسوري للفلاحة، واستطاع أن يشتري لنفسه مجموعة من البغال، وأن يبني لنفسه كوخاً، وأن يتزوج امرأة بيضاء، وأن يستقر لزراعة القمح والذرة والطباق والخضراوات وتربية

الخنازير. وكان يعتبر الحياة القديمة كما لو كانت حركة شاذة وسط نغم متناسق، كما يستطيع أن يتذكر -إلا في بعض الحالات- حينما يرى ببصيرته أن الشمس تشق طريقها فوق حافة العالم، وتكتسح طريقها كما لو كانت نارًا تسقط خلف الجبال. وكان يرى في العادة وراء الشمس بقاءً جميلة، ويسمع أصوات عجلات العربات وهي تخوض المياه، ويسمع الطلقات والأصوات في هذه البقاع، ثم السكون الشامل الذي يجعلك تظن أنه لا توجد حياة.

وقد يرى قرية هندية أو نساء الهنود الحمر وهن يلتفنن في عباات حمراء، أو امرأة صغيرة كاملة النمو، أو شابًا تشعر في نظراته بالتحدي، كما لو كان يقول لك نعم - الليلة - في حين يخبر الزعيم بأن قلب الأخ الأبيض طيب، وهو يتكلم بنغمة واحدة. وقد يرى أصدقاء مثل «جيد سميث» أو «ديف جاكسون» أو «جيم ديكنز» الذين ماتوا جميعًا. والتيتون العظيم الذي يظهر فقط من بحيرة جاكسون، ثم رائحة روث الخنازير التي تزكم الأنوف، أو قد يرى جاك -البغل العجوز- وهو يصهل، ويعرف أنه لا شيء سوى «ركوبة» يمتطيها الفلاح لقضاء حاجاته.

وقال إيفانز بعد ذلك:

- ألم يقرّ رأيك بعد على ما سوف تفعله يا ديك؟

فهز سمرز رأسه وقال:

- يجب أن أسألك أولاً، إن الوقت ليس مناسباً للتخمين.

- حسنًا.

- إنني أتساءل فقط - ما لم يظهر الوقت لي الحقيقة - يجب أن نعرف كل شيء قبل مرور الوقت.

ثم تناول سمرز القنينة من إيفانز وشرب مرة أخرى، وضحك بصوت عال، ونظر إلى أعلى حيث توجد سويت ووتر (المياه العذبة) ونحو سودرن باس (الممر الجنوبي)، وإلى الأسفل حيث سانديز، ثم جرين؛ لكي يرى الماعز البري أو «التبوس» كما اعتاد الناس تسميتها في ذلك الحين، وكذلك «التبوس» الصغيرة التي تمرح وتقفز هنا وهناك. وابتعدت الشمس وحل الليل وانطفأت النيران، وبدأت الذئاب تجوب التلال تنير لها النجوم طريقها، وكانت هناك رائحة دخان شجر الورد تعبق الجو وتدخل الأنوف.. يجب أن يذهب لحلب البقرة.

وأخذ إيفانز نفسًا طويلاً، كما لو كان قد لاحظ الدخان أيضًا، ولكنه قال:

- يا لها من أشجار... إن رائحتها ذكية لطيفة.

ويفكر الإنسان في شيء واحد هو الأشياء التي سبق أن فقدوها فيما مضى، كما يفكر دائمًا في «حفرة جاكسون» وفي «جبال الرياح»، وكذلك نساء الهنود الحمر اللائي شاهدين حينما كانت الدماء حارة في جسده، وكان يميل أيضًا إلى التفكير في الأبقار الموجودة في سهول «لارامي»، وفي المسيح كما لو كان معه في الأزمنة الغابرة، ثم تذكر صديقه «وايت هوك» (الصقر الأبيض) رئيس الشوشون، وكذلك جداول المياه التي تجري بسرعة وصفاء، وكذلك الحية البيضاء السامة

التي تكمن دائماً في عثرات الطريق.

وقال إيفانز:

- إن تادلوك مرتبط بموعد و ينتظر منك جواباً، ولا يمكن أن ألومه الآن كثيراً يا ديك.

- لماذا أنت ذاهب أيضاً يا ليحي؟ إنك لا تترك أي شيء.

- لقد أخبرتك. يجب أن نستولي على أريجون يا ديك، وإنني أشعر بآني ملزم بتقديم العون.

- ليس هذا كل شيء.

- لا، لم يسبق لي الذهاب إلى هناك، ولكنني هناك، ولست مقتنعاً بأن أعمل لكي أبقى على أودي ما دمت أستطيع أن أعمل أكثر.. يجب أن تكون هناك وسيلة للعيش أفضل من ذلك.

- إنني لم أتصورك كسوّلاً في يوم من الأيام.

- ربما.. ولكن لا يوجد مجال كاف هنا في ميسوري.

فأوماً سمرز برأسه، وقال إيفانز:

- إنه في الجو يا ديك مثل الحمى التي تحوم حول المستنقع، إن براوني يرغب في الذهاب، وهذا ما أرغب فيه أيضاً، وما ترغب فيه ريكا، فما الموقف الآن؟ إنني لا أهتم كثيراً لكي أسأل نفسي عن السبب، ولكنني سوف أكتفي بالذهاب.

وهياً سمرز نفسه كما لو كان يستعد للذهاب:

- سوف أذهب لتحلب البقرة.

فرد عليه إيفانز بصوت أجش:

- أنت تحلب البقرة؟ اجلس يا رجل!.. براوني! أهلا يا براوني.

وكان سمرز قد استطاع أن يرى شخصًا يأتي من اتجاه الكوخ، وجاء براوني يجري، وكان صبيًا لا يبدو منه سوى ذراعين وساقين ورقبة، على الرغم من أنه كان يظن أنه رجل، ولكنه لم يكن يبدو أنه قد وصل إلى هذه المرحلة، وصاح الغلام قائلاً:

- ماذا هناك يا والدي؟

- لقد نسينا أمر البقرة، لقد قامت والدتك وبعض النسوة الأخريات بعمل اللازم، خذ لنفسك دلوًا «جردلاً» واذهب لتحلب بقرة ديك.

فدق الغلام الأرض بقدمه، وقال سمرز موجّهًا حديثه إلى إيفانز:

- اتركه.. إن الرجل لا يميل إلى القيام بأعمال النساء.

فقال إيفانز:

- هذا ليس عملاً عاديًا يا براوني؛ لأنه لا يوجد أي عمل تافه. اذهب

يا بني.

فرد الغلام بصوت جاف مفاجئ مثل العجل الذي يتحول إلى ثور:

- حسنًا.

وقد هزه هذا الصوت الذي لم يكن يتوقعه، فأطلق لساقه الريح

متجهًا إلى الكابين.

وتساءل سمرز:

- كم عمره الآن؟

- سبعة عشر عامًا طوالاً.

- لا يبدو أنه قد بلغ هذا العمر.

- لأنه كان ينمو ببطء بسبب الجو والغذاء، ولكنه سوف يتغير.

- إنه غلام طيب.

وأعلن سمرز عن سروره إلى إيفانز، فرد عليه إيفانز قائلاً:

- إنني أدين بجزء من سبب ذهابي إليه هو نفسه، إنني أود أن يعرف الكثير غير الزراعة والأشجار والقنفاذ، أو الموت.

ثم عاد الاثنان إلى الشراب، وبعد ذلك سأل إيفانز:

- هل هي رحلة شاقة وقاتلة يا ديك؟

- إنها سهلة بالقدم أو بالخيول، ولكنني لا أعرف ما هي بالنسبة للعربات؛ إذ إنني اعتدت التفكير بأن العربة لا تستطيع أن تذهب إلى أبعد من «جرين»، ولكن بعض العربات استطاعت ذلك.

فقال إيفانز وهو يغير من وضعه فوق الأرض:

- يجب ألا أثقل عليك بأسئلتني.. هل هناك أي شيء أستطيع أن أفعله لك؟

- لا أعتقد ذلك.

لا يتيح الناس عادة لأي إنسان أن يقوم شخص مكلوم وحزين بعمل

أي شيء لنفسه، فهم يحضرون له الخبز واللحم، وقد يساعدونه في دق نعش الذي تُوفي له وحفر قبره وتوسيد الجسد الميت في حفرة القبر، ثم يبقى الجميع محيطين به، الرجال يدخلون ويمضغون ويتحدثون عن الخنازير والمحصولات، في حين تتحدث النسوة حديث النساء، حتى يرقد الجسد على الأرض ويُوارى التراب، وقد يحاولون بناء مقبرة؛ لكي تغلق بإحكام على الجسد بعيداً عن الجو والحيوانات والحشرات. وتحدث إيفانز فقال:

- إن تادلوك رجل طيب الخلق، نال قسطاً من التعليم أكثر من غيره، ويكنّ شعوراً قوياً لأمريكا. إنه الرجل الذي ارتضاه الله ليكون قائداً لهذه الصحة.

- ماذا قلت عن مكان مجيئه؟

- لقد أتى من إلينوي - ريف نهر إلينوي - ولكني لا أعتقد أنه فلاح، إنه يبدو موظفاً، وقد رأيت هذا الصباح في المدينة، وأخبرته بأن يحضر، وقد يأتي.. إنه رجل صلب الرأس.

ولم يجب سمرز على ذلك؛ لأنه لم يكن متيقناً مما سوف يفعله مع تادلوك، ولم يرغب في أن يلتزم بأي التزام على الفور. وبعد فترة من السكون سأل إيفانز قائلاً:

- هل ترغب في إلقاء نظرة، إن الناس يرغبون في أن تقوم بإلقاء نظرة.

وأدار برأسه ناحية الكوخ.

فقال سمرز:

- بالتأكيد.

ولكنه لم ينهض، ولم يرغب في أن ينهض بعد.

وكان يشعر بالحزن أو بشيء من الحزن، كما كان يعرف أن الصغار هم الذين يواجهون الموت بخيبة أمل؛ لأنهم لا يتوقعون من الله القادر أن ينفذ مشيئته هكذا. أما الرجال فإنهم يتلقون الخسائر والمصائب كما تأتي، والرجل الذي يبلغ الخمسين من العمر، يشعر بذلك ويتذكر الوداع القديم.

هذا يوضح كيف ودع امرأته التي لم تكن في حالة طيبة منذ عرفها، وإنما كانت دائمة الاصفرار شاحبة الوجه، مصابة بالحمى، وتقرب من الموت، وبخاصة حينما كانت تضع ابنها منه.

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد كانت سيدة فاضلة، ولكنها لم تكن حسنة المظهر أو لطيفة أو ودودًا في الخارج، وإنما كانت صعبة المراس، مجتهدة في عملها، ترغب في أداء الأعمال الطيبة لزوجها. ولو كانت موجودة الآن لتبعت البقرة في الصباح لإيجاد الأعشاب الخضراء لها، ولم تكن الحمى هي التي قتلتها، ولكن كان يبدو أن قوتها قد هربت منها فجأة، وذهبت إلى السرير حيث وافتها منيتها في يومين. وكان يعرف أنها سوف تموت حينما كانت تنظر إليه بعينين تعكسان لهيب الحمى، ولم يكن أي منهما قادرًا على أن يقول أي شيء للآخر إلا القليل التافه مثل: ما ألطف الربيع، وإنني مندهش لقيام ليحي إيفانز ببيع مكانه للذهاب إلى أوريغون. لقد رأى خيولًا كبيرة في السن تموت

مثل هذه الميته، رآها تذهب بنفسها وترقد هذه الرقدة وتسلم الروح، أو تنظر إليك بأعين بطيئة يائسة، في حين تخرج منها الروح وتختفي معالم الحياة منها.

لقد كانت امرأة صريحة طيبة القلب، وكان يعتقد أنه يجب أن يشعر بالسوء والأزمة لفقدانها، كما لو كان يشعر أن الطريق لم يكن مناسباً لها، ويجب عليه ألا يفكر في فتيات الهنود الحمر، وفي الأيام الخوالي التي قضاها وسط الجبال، ولكنه كان يفكر في بعضهن حينما كانت زوجته على قيد الحياة، ولكن موتها شل تفكيره وجعل الحزن يسوده ويظهر عليه.

واختلطت المشاعر مثل أي شيء آخر؛ لأنك تشعر بالحزن وتعرف أنك يجب أن تكون حزيناً وخفيف الظل في الوقت نفسه، كما هي الحال بالنسبة له الآن، وكان يشعر في قرارة نفسه بأنه حر إذا لم يقم بمراقبة نفسه بنفسه، وكان يبدو كأن العالم قد فتح ذراعيه من جديد وشعر أنه حر، وأن الربيع والجبال تهز فيه المشاعر الكامنة بأنه يستطيع أن يرشد القافلة ويقودها إلى أوريجون، كما يستطيع أي إنسان آخر أن يفعل. وقال في نفسه إنه مجنون كبير، ولكن لا يضره ان يفكر في أنه يستطيع أن يبتدئ من جديد، أو أن يعود إلى عاداته في الأيام الخوالي الطيبة. وكان حزيناً، ولكنه كان واثقاً ومتأكداً، وقد شعر برياح الغرب تلاطم وجهه وشاهد زهور «الكاكيتوس» تزدهر، لذلك شعر بالسرور والبهجة التي لا يستطيع أن يعبر عنها لأي إنسان؛ لأنها كانت كافية في نفسه.

كان الليل قد بدأ يرخي سدوله، لذلك لم يستطع أن يرى من بداخل الكوخ، إلا حينما تحرك رأس عبر النافذة التي يبدو منها الضوء، واستطاع أن يسمع الأصوات الصارخة التي تتحدث بها النساء في الداخل. وفي «الجرن» كانت الخزائير تطلق أصواتاً مخيفة تحدث ضوضاء مزعجة، التي يطلق عليها البعض أنها علامة العاصفة.

وقال إيفانز:

- أي شيء آخر... هناك واعظ يتحدث الليلة عند توكر، وقد رغب توكر أن أخبرك بما إذا كنت تريده يعظ في الجنازة.

- لقد تركت كل شيء له.

- ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن هذا الواعظ الذي حضر والذي قال عنه توكر إنه من النظاميين.

- كل إنسان طيب، إنها كانت تريد واعظاً.

فقال إيفانز، وهو لا يسأل سؤالاً، وإنما يتحدث عما يعرفه:

- جناز في الصباح؟

فهمز سمرز برأسه قائلاً:

- هذا أفضل.

واستمر سمرز يومئ برأسه، في حين قال إيفانز:

- قد يريد الواعظ قطعة من النقود يا ديك، ربما نستطيع أن نغني أغنية، وقد يستطيع هاري بارلو أن يقرأ لنا جزءاً من الإنجيل،

وبصلي، ثم ننهي الأمر.

- دع الواعظ يحضر يا ليحي، أعتقد أن توكر سوف يستطيع إحضار أحدهم من مدينة إندبندس؛ إذ استطاع ذلك كما يعتقد.
- سوف أخبر توكر بأن هذا سيكون واعظ أوريجون، أو هذا ما أعتقد.

ثم وقف سمرز بعيداً عن جذع الشجرة، وسار مع إيفانز إلى الكوخ وهو يقول:

- هل هذا هو الوضع؟ أفضل أن أرى وضع المرأة بنفسي.
- وظل الرجل صامتاً وهو يسير حول الدائرة نفسها، وأسكتته المرأة وهو يدخل، وتركت له جانباً ليمر وهو يدخل، وكان يبدو عليها الحيوية والنشاط. واعتقد في نفسه أنه لا يوجد أي شيء مثل الموت يستطيع أن يجعل المرأة تتمسك بالحياة، وكان الجميع يتحدث إليه بالإيحاء أو بصوت منخفض - ما عدا مسز إيفانز - وكانوا يعرفون أنهم قلقون حوله، ولا يعرفون الكلمات التي يستطيعون مواساته بها، واشترك الجميع حول المائدة لتناول الطعام والحلوى، واستطاع أن يرى من خلال الباب التابوت الذي صنعه ليحي إيفانز، ووضع في حجرة النوم فوق عارضتين من الخشب كان سمرز يستخدمها في أعمال النجارة.

وقالت مسز إيفانز بصوتها الجهوري القوي:

- بعد أن تلقي نظرة، تقدم لتناول طعامك.. على كل فرد أن

يتناول طعامه، وأنت اذهب لتناول طعامك بصرف النظر عن أي شيء.

ثم ذهبت إلى غرفة النوم معه، وكانت تبدو خفيفة في حركتها على الرغم من ثقلها، ثم تناولت مصباحًا غير نظيف ضعيف الضوء يعكس بعض الظلال داخل الحجرة، ثم قربت المصباح من الصندوق حتى يستطيع أن يرى.

كانوا قد لفوا «ماتي» وصففوا شعرها وأرقدوها داخل الصندوق ويداها فوق صدرها، وكان يبدو عليها الموت بسبب الحمى، كما كان سمرز يعتقد، وأخذ ينظر فترة طويلة إليها، وهو يسمع صوت تنفس مسز إيفانز التي تقف بجواره منتظرة كلماته. لقد شاهد الرداء الجديد، وشاهد اليدين المنهكتين، وشاهد لون الحمى التي تركت أثرًا قاتلاً على خديها، وأخذ ينعم النظر في شعرها فوجده أكثر بياضًا مما كان يتذكر. لقد شعر الآن بأنه لن يراها مرة أخرى بعد ذلك، وكان كل ما تبقى منها هو جسد مسجّى منكمش وساكن، وحينما يأتي الصباح سوف تذهب وسوف يذهب الجميع. أما «ماتي» التي أرقدوها في الصندوق فلن تقوم بعد ذلك إلا في الذاكرة فقط.

لقد كانت امرأته التي شاركتها في مرقده، وحافظت على بيته، وشاركتها في حياته وعمله، وكانت خير زوجة، إن لم تكن أفضلها من جميع الزوايا، لذلك يجب ألا يتعد عما تركته له، ويجب ألا ينسى لونها الشاحب وعينيها الغائرتين، ونظرة التعب والإنهاك التي ظلت تبدو عليها دائمًا.

وانتظر دقيقة أخرى لا يلمسها ولا يرغب في ذلك، ثم استدار وهو يهز رأسه، ووجه حديثه إلى المرأة وهو يخطو تجاه المطبخ:

- إنني أشعر بالامتنان لك، ولا أستطيع أن أتصور أن هناك من يستطيع القيام بأفضل من ذلك.

وأدخل ليحيي إيفانز رأسه وهو يقول:

- لقد وصل الواعظ يا ديك ومعه تادلوك أيضًا، هل تريد أن تتحدث إلى الواعظ؟

ولكن سمرز رد قائلاً:

- ليست بي حاجة إلى محادثته.

ولم يكذ يتم حديثه حتى دخل الواعظ، وكان طويل القامة، كبير السن، تبدو الطيبة على محياه والفضيلة والبُعد عن الرذائل، وكان يضع على كتفيه معطفًا أسود لا يذهب مع سرواله الحائل اللون، ولا يتفق معه. وثنى الواعظ يديه وتحدث بصوت يأتي من أعماق التاريخ ليطالب المخطئين بالعودة إلى المسيح كما اعتقد سمرز.

«الرب هو الذي يعطي، وهو الذي يمنح».

وتناول سمرز يده من غير أن ينبس بحرف واحد، واستمع إلى الواعظ وهو يقول:

- اسمي ويدربي -جوزيف ويدربي- يا أخي سمرز، وقد أتيت من أندياني.

- حسنًا.

وقال الصوت الأجش:

- إنني أشعر بأن الرب قد قادني إلى هنا، إلى هذا البيت الحزين.
وكانت الكلمات تخرج من فمه منمقة ناضجة، كما لو كانت
موجهة إلى الرب، واستمر يقول:

- لا تحزن، إن الرب يعمل بطرقه الغامضة الخفية علينا.

واضطر سمرز مرة أخرى أن يبتسم، وكان يعرف أن الوعّاظ
ورجال الطب ينتمون إلى الوحدة نفسها، وقد خُلقوا ليعرفوا ما لم
يستطع أي إنسان معرفته، إنهم رفاق الروح الأعظم. ولكنه لا يبتسم
الآن، بل ظل ينظر إلى العينين الزرقاوين الشاحبتين، وكان يعرف أن
ويذربي يعتقد فيما قاله:

- أيها الأخ... لقد أخبرني توكر أنك تريد مني أن أتولى قيادة
القداس.

- إذا تفضلتم بذلك.

- هل لك في نص تختاره بنفسك، أو اختارته هي بنفسها؟

- لا يوجد كما أتذكر.

- سوف أقرأ جزءاً من سفر التكوين.

- إذن اختره بنفسك.

واهتز الرأس الأصلع ثم تحدث:

- لقد أخبروني بأنك قد تقوم بإرشاد القافلة إلى أوريجون.

- ربما.
- أريد أن أذهب.. إنني أشعر كأن الرب يناديني إلى الأرض الجديدة، ربما لأنقل بركاته إلى الذين لا يعرفون حقيقته.
- إنها قطعة كبيرة بالنسبة لهم، أولئك الذين لم يعودوا صغارًا أو لم يتعودوا عليها.
- إنني أضع ثقتي في الرب.
- إنك لن تجد صعوبة في مصاحبتنا، فهناك كثيرون ممن يرغبون في الذهاب من إندبندس إلى سانت جو.
- وماذا عنك أنت؟
- لا يهم حتى إذا كنت سأذهب، فإن المصاحبة لها أحكامها وقواعدها الخاصة، وأعتقد أننا سوف نكون مسرورين بوجودك.
- وهنا قامت مسز إيفانز بجذب سمرز من ذراعه قائلة:
- تعال لتتناول طعامك.
- فأجاب:
- ربما من الأفضل أن أرى تادلوك، سوف أعود في لحظة.
- وكان تادلوك يقف خلف الباب، وحينما شاهد سمرز وجهه إليه حديثه قائلاً:
- نود أن نتحدث معك لفترة دقيقة واحدة، إذا كنت تغفر لنا مجيئنا في هذا الوقت.

فأجاب سمرز كما لو كان لا يعرف شيئاً:

- من تكون أنت؟

- عدد منا يمثل الجمعية.

وخرج صوت مسز إيفانز من الباب ليناديه:

- يجب أن تمنحوا الرجل فرصة لكي يتناول طعامه.

وقاد تادلوك الطريق للمجموعة الكبرى التي ظللت الكوخ وقت الظهر، أو التي سوف تظله قبل أن تغادره. وكان هناك أربعة رجال آخرين من بينهم ليحي إيفانز الذي صاح قائلاً:

- إنها ليست فكرتي يا ديك.

فقال تادلوك:

- يجب أن يتحمل أي شخص المسؤولية.

ووقف موقفاً صلباً على قدميه، وتحول وجهه من إيفانز إلى سمرز، ثم واصل حديثه قائلاً:

- هذا ليس شيئاً طيباً، دعني أخبرك، لقد مضى شهر منذ أن طلبنا منك، ولكنك لم ترد بكلمة نعم أو لا، وليس عندك أي سبب لكي تبقى من أجله هنا. إن الوقت يمر بسرعة، يجب أن نحصل على رد سريع؛ لأننا يجب أن نكون أول من يشق طريقه هناك.. هل أنت ذاهب لإرشادنا أو غير ذاهب؟ إذا كان الجواب بالنفي، فيجب علينا أن نبحث عن رجل آخر.

- ربما قد يكون من الأفضل أن تبحثوا عن شخص آخر.

- لقد قلت إننا يجب أن نكون من الأوائل حتى لا نضطر أن نأكل فئات من سبقونا، لذلك أعدنا كل إمكانياتنا.

قال سمرز:

- فكرة طيبة.

وأكد إيفانز قائلاً:

- إننا نفضل أن تكون معنا يا ديك.

وقال تادلوك:

- هذا ما نرغب فيه جميعاً وما نطالب به.

كان هناك شيء خاص بهذا الشخص وبوقفته وحديثه، جعلت سمرز يشعر كأنه يرغب في أن يبصق في وجهه، وبعد ذلك أجاب سمرز قائلاً:

- افعل ما تراه مناسباً.

واستدار متجهاً إلى الكوخ، وهو يفكر فيما قاله معتقداً بأنه لن يؤدي إلى خلق اختلاف إذا كان قد أخبرهم الآن. وكان يبدو أن تادلوك قد أسقط عليه بعض الحجارة والرمال، وربما يعتبر ذلك جزءاً من خلقه وسلوكه، فالإنسان لا يرغب في أن يدفع الأمور دفعاً. وكان سمرز يعرف من قبل ما يرغب في الإجابة به، فقد كان يرغب أن ينتهي أولاً من الجنازة، ثم يتولى بيع كل شيء ما عدا الأرض نفسها التي قد يعود إليها، وما عدا الماشية التي يحتاج إليها، كما سوف يُبقي على عارضة الخشب الضخمة التي سوف يستخدمها

في إغلاق باب بيته، ثم يتولى وضع نقوده في البنك ويحكم إغلاقه، وهذا أمر سوف يتطلب الكثير من الوقت منه.

وقد تكون النسمة الخفيفة التي لفحت وجهه آتية من بعض الجبال البعيدة عبر السهول الطويلة البعيدة، من أماكن شعر بصحتها وحقيقتها أكثر من الأرض التي يسير عليها.



الفصل الرابع

تراجعت العرببة بمؤخرتها إلى مدخل الباب، وكانت ممتلئة، ولكنها لا تستطيع أن تستوعب ما بقي في المنزل. وكان قد تم حزم الأواني والأوعية وشحنها وأدوات السرير والأطباق، وقد وُضعت وضعًا دقيقًا في براميل، وكذلك تم حزم الملابس وبعض قطع الأثاث، وهي الأشياء التي يجب وضعها داخل وأسفل غطاء العرببة.

لم يكن هناك الكثير مما يتطلب العمل السريع، ليس كثيرًا، قبل أن يغلقوا الباب ويخرجوا تاركين بيت إيفانز لأسرة أخرى. وقد حاولت ربيكا أن تحث الرجال بكل مرح وسرعة على إنهاء أعمالهم، وكانت تتحرك هنا وهناك لتجد منشفة قد نسيتهما أو تجد ملعقة مختفية، كما كانت تقوم بعملية مسح دقيقة للكوخ. وكانت العرببة الثانية قد شحنت بالأغذية والمحارث وأدوات الزراعة وحجر الطحن والسندان، وبعض الأدوات الأخرى التي رأى ليجي أنها لازمة له لشق طريقه في الحياة في أوريجون. وبعد أن قاما بإتمام إخلاء «الجرن» وأخذًا في تصفية المنزل، سأل براوني:

– ماذا بعد يا ماما؟

فأجابه ليحي:

- لا يهم الآن ما قمنا بتحميله حتى الآن، إذ سوف نتعاون حين الالتقاء.

وكانت مسز إيفانز تعتقد أنها مثل الرجال تشعر بشعورهم نفسه وتحزن كامرأة تهجر منزلها وتودعه. إن البيت الذي تعيش فيه المرأة فترة طويلة، وتكون قد لمست كل زاوية من زواياه، ووطئت قدمها كل ركن من أركان أرضه، يظل في ذاكرتها ويرaud مخيلتها ليلاً ونهاراً، فهي تتذكر الميلاد والموت، والصغار، والأحاديث السارة التي تدور بين الذين يتزوجون حديثاً.

لذلك قالت، وهي تراقب كلاً من ليحي وبراوني بعد أن خلا البيت وأصبح يشمله الفراغ والصمت:

- تستطيع أن تأخذ الصندوق الخشبي أيضاً.

كان ليحي قد قام ببناء كل زاوية وألصق كل خشبة فيه، وكانت زوجته أو هو نفسه قد قامت أو قام بوضع لمسة الجمال الأخيرة، لذلك فقد كان كل شيء هناك يحمل طابعهما الخاص. لقد جاء صغيرين وشاهدا السنوات تمر ولمسا الشقاء والسعادة، وكان يبدو أن المنزل قد شاركهما في أوقاتهما وشعورهما، وأن الحزن قد خيم عليه بعد أن خلت حجراته، وأصبح جزءاً من الذكرى، يخشى مجيء الغرباء.

وفي الخارج كان رجالها يقفون وهم يتحدثون بأصوات عالية ويفكرون في كيفية ترتيب الأشياء في الخارج داخل العربة، وجاء صوت

ليجي إليها قويًا مليئًا بالرغبة والشعور بالتقدم إلى الأمام، وهو شعور لم يحس به منذ سنوات مضت، وكان كل شيء يسير على ما يرام، وهذا ما أقنعت نفسها به، كما كان الركب على استعداد كامل للتحرك مهما يكن الوضع صعبًا. ولا شك في أن أوريجون تناسب هذه المغامرة، فكل ما يحتاجه ليجي نفسه -وبراوني فيما بعد- هو وجود فرصة أفضل من الفرصة الموجودة في ميسوري والجرأة الكافية، وإيجاد ما رسمته له مخيلته، وهذا هو الشيء الذي كانت زوجته على ثقة من الحصول عليه، لذلك كانت سعيدة سعادة تامة؛ لأن ليجي قام بتنفيذ فكرته المفاجئة بالذهاب إلى أوريجون.

قامت الزوجة بإزالة القاذورات والأتربة من فوق الباب، ثم نزعَت ملابس التنظيف بعد أن أصبح كل شيء في العربة، كل شيء، وأصبح لا يوجد في البيت سوى الفراغ، الفراغ وفرشة الأتربة، وعلامات الأتربة التي كانت تحاول إزالتها، والوحدة الصامتة.

وتردد صوت براوني في الحجرات الصامتة الميتة، في الحجرة التي وُلِدَ فيها والتي رقد فيها وهو طفل... في مهده الصغير الذي صنعه له ليجي:

- أولد روكي (الكلب) على استعداد الآن يا ماما. ماذا عنكِ أنتِ؟

ونزل ليجي من فوق العربة، ودخل المنزل ليلقي نظرة ويقول:

- يبدو أنكِ حصلتِ على كل شيء، ما لم تكوني راغبة في شحن

المنزل نفسه أيضًا!

- أرجو أن نستطيع ذلك.

وقال وهو يضع يده فوق كتفها، ثم يتركه ويعود:

- وأنا كذلك يا بيكي، هل أنت مستعدة الآن؟

وتبعته إلى الخارج حيث توجد أشعة شمس الصباح المشرقة:

- سوف أتبعك حينما أضع القبعة فوق رأسي.

وتحدث إليها براوني قائلاً:

- أخبرني «بابا» بأني أستطيع أن أقود القطيع إلى الأمام، وأنت وهو تقودان الفريق.

فقالت:

- حسنًا. ثم أضافت:

- انتظر لحظة.

وعادت مرة أخرى إلى الداخل، كما لو كانت قد نسيت الشخص الذي خدمهم طويلاً، وألقت النظرة الأخيرة الطويلة... نظرة الوداع الأخير. وأخذت تستنشق الهواء الذي سوف تهجره، لفترة دقيقة طويلة أو دقيقتين، وأطلقت لخيالها العنان، ثم عادت إلى حيث يوجد الجميع لتجد مكانها.

- أسرع يا «ماما».

ورفعت رأسها وسارت بعد أن تثبتت من أن المزلاج، الذي أحكمت وضعه وسبق أن استخدمته عددًا من المرات، قد أحكم هذه المرة وأغلق الدار التي تركتها، متجهة إلى المكان الذي وقع عليه اختيار الجميع.

الفصل الخامس

كان ليجي إيفانز قد جلس في أحد الأيام فوق جذع شجرة يتحدث، ويستعيد ما سبق أن تحدث به الناس من لغات ولهجات غير معروفة.. تذكر كل ذلك في هذا المكان الذي يطلق عليه اسم «الالتقاء» حيث يتم انتخاب الضباط والقيام بالتفتيش على الأشياء قبل البدء في السير. كانت الأصوات تصم الأذان، فالنساء يثرثرن، والرجال يرعون البغال والثيران ويتحدثون في جماعات صغيرة، والصغار يصيحون، والكلاب تنبح، والبغال تصهل بين لحظة وأخرى، والأبقار تخور، لذلك لم تستطع العين أن تستريح، في حين ظل الناس يقومون بدق الخيام، ودفع الأبقار والماشية إلى الحظائر، وتفرغ العربات التي جاءت من إندبندس أو «ويست بورت»، وبدأ الأطفال ينطلقون بين العربات المغطاة بالأقمشة البيضاء، ويقفزون فوق أوتاد الخيام أو يتمرغون وسط الحشائش المليئة بالأتربة. وبين حين وحين تظهر عربة جديدة عليها علامة ميسوري الزرقاء، وما تكاد تقف حتى يندفع الرجال والأطفال والنساء منها، ويتجه الرجال على الفور إلى العمل على وضع الماشية داخل حظيرة لها.

وكان الأخ ويدرربي يتحرك وسط الناس، ويتوقف حينما يكون عليه أن يستمع، ويظهر الجدد على وجهه الكبير على أساس ما سبق أن عرفه من إيفانز. وكان إيفانز يستمع إلى الأصوات المزعجة، في حين كان صوت ويدرربي يطغى على جميع هذه الأصوات. وكان يبدو أنه يُعدّ لإلقاء موعظة في هذه الليلة حول «رب واحد، وعقيدة واحدة، ومعمودية واحدة». وكان الأخ ويدرربي يرغب في إلقاء موعظته كما يسميها، وفي ذلك الوقت كان هناك بغل يتحرك بعربته ويقترّب ثم يقف ليرفع ذيله، الأمر الذي جعل ويدرربي يتوقف عن كلامه وهو مضطرب، وبعد أن يتولى إلقاء موعظته سوف يقوم بإمرار قبعته على الحاضرين وهو يقول: «إن الرب يحب المحسن الودود»، وقد اعتقد إيفانز أن هذا هو أحد أسباب قيامه بإلقاء مواعظه باستمرار، وهو أنه لم يكن يمتلك شيئاً، فإذا كان الأمر كذلك، وكان بقاؤه يتوقف على درجة احتياجه إلى المال بعد كل موعظة مثل أي عمل تجاري أو زراعي، فإنه قد يغادر المكان بعد أن يكتفي، ولكنه كان يحتاج إلى المال لكي يعمل عمل الرب، وربما فعل ذلك، ولم يستطع أن يستمع إليه، وكان يشك في أن الرب قد اختاره لكي ينشر «الكلمة».

وقف إيفانز بقدمه على مقدمة العربة، وبدأ يراقب ويستمع، ثم لاحظ كلبة متخيلة تجري ويجري وراءها معظم كلاب المعسكر ومعها روك العجوز، ورفع كل من هذه الكلاب رجله، وكان كل واحد وراء الآخر، بجوار شجيرة ضعيفة، كلٌّ يأمل في اندفاعه أن يصل إلى هدفه حتى ولو كان أقل القليل، والكل يشعر بأن الرب قد عينه هو وحده واختاره لذلك.

وكان تادلوك السياسي يجول، مثل الأخ ويذربي، حول المكان، على الرغم من أنه لم يكن هنالك إنسان ينافسه في الانتخابات، فقد كان محدثاً لبقاً، وحمل معه كتاب المرشد لأوريجون؛ ليظهر أنه يعرف أكثر من غيره، ما عدا -ربما- ديك سمرز الذي يعرف كيف يسلك الطريق إلى الغرب.

وحينما كانت الشمس تميل إلى المغيب، بدأت الرياح الخفيفة تصفر وتهز الأعشاب، وبدأت الأصوات الموجودة داخل المعسكر تزداد حدة وخسونة، مثل أصوات الإوز الذي يشير أي شيء. وعلى الرغم من أنهم كانوا على بعد عشرين ميلاً أو أكثر قليلاً غربي مدينة إندبندس وأنهم لم يشاهدوا أي هندي ما عدا بعض «الشونيز» و«الكوز» الذين تراهم غالباً في ميسوري أو تراهم في أي وقت، فإن هذا الأمر أدى إلى شعور بعض الناس بالخوف، كما لو كانوا قد فقدوا كل أمل في الأمن، وكما لو كانوا يواجهون أعداء لم يشاهدوهم أو يعرفوهم من قبل. وكانت هناك مسز تورلي، التي ظلت تتحدث وتنظر حولها كما لو كانت تنتظر أضخم هندي وُلد حتى الآن، أما مسز ماك بي فقد كانت تعيش في رعب، وظلت تطالب بالعودة إلى أوهايو، في حين كان ماك بي نفسه يبحث عن مكان يخفي فيه خوفه وضآلته. وكان هناك غيرها -لم يكن إيفانز يعرف كم عددهم- وإنما كانوا يشعرون بالقلق، وكان هذا القلق أو الرعب ينعكس على وجوههم، وبخاصة حينما يتجه تفكيرهم نحو «بلات» و«بونيس» والتلال السوداء و«السيوكس».

كانت ربيكا جالسة في ظل العربة وتهز بطبق أمام وجهها؛ لتجلب

الهواء لعدم وجود ما هو أفضل من ذلك، وذلك على الرغم من أن شهر أبريل لم يكن قد انتهى بعد، وكان براوني يقف بعيداً يرقب الماشية مع هيج الذي استأجره فيرمان، وعدد آخر من الرجال ومن الشباب الذين ليست لهم عائلات. وأنت لا تستطيع أن تظن متى يقوم «الكوز» بالهجوم على خيولهم أو أبقارهم، أو بالاستيلاء على دواجنهم أو مخزونهم من الغذاء، إنك لا ترغب مطلقاً في وقوع مثل هذا الهجوم لنهب المخزون. وكان إيفانز يراقب ربيكا، وبعد فترة وجيزة تبادل الحديث معها فقال:

- إنني لا أشعر بأننا قد بدأنا بالفعل، إن الطريق الذي يسلكه الجميع يجعلنا نشعر بأننا مساقون إلى مكان معين داخل الجبال.

فردت عليه ربيكا، وهي ما زالت مستمرة في هز الطبق أمام وجهها:

- كنت مثل الآن أقوم بإعداد المكان القديم لاستقبال الجميع.

وكان يبدو أن الأمر أصبح غريباً بالنسبة له؛ لأنها أطلقت لفظ «المكان القديم» على المزرعة، ولم يمض على تركه وعلى مصافحة الشخص الذي اشتراه لنفسه ودفع مبلغ أربعمئة دولار عدداً ونقداً له، سوى وقت ضئيل، ولم يكن قد غادر هذا «المكان القديم» إلا منذ برهات ليمر بطريقه إلى الأعشاب الخضراء وأوراق الطباق النائمة في أحواضها. وكان قد ألقى النظرة الأخيرة على حقل الذرة حيث ظهرت البشائر الأولى له، وعلى «الكابين» الذي تعرف فيها بربيكا تعرفاً حقيقياً وأنجبا فيها براوني. أما الآن فلم يعد هذا المكان سوى المكان القديم... وهذا ما جعله يشعر بشيء من الحزن حين مغادرته له كما لو كان جزءاً

عزيرًا منه ومن ربيكا وبراوني قد تُرك إلى الأبد. وإذا استطاع أن يغتنم بعض الوقت ويعبر منطقة «الكوز» ثم منطقة «ليتل بلو» وأخيرًا «بلات» فإنه سوف يشعر بالأمان والاطمئنان، وكان قد شاهد من قبل مدى اتساع الهضاب والغابات، لدرجة أنه شعر بأن هذا الطريق سوف يكون عظيمًا وطويلاً، ثم عبور صحراء مفتوحة إلى «بلات» حيث أوريجون، ومجال الحياة الجديدة. إن أوريجون قطعة من أمريكا.. هل تراهن على ذلك.. سوف يتولى هو والآخرين احتلال أوريجون. وماذا سوف يستطيع الإنجليز فعله بعد ذلك؟ وشعر في قرارة نفسه بأنه رجل من أوريجون منذ زمن طويل.

ثم سأل زوجته:

- هل تشعرين بتحسن الآن يا بيكي؟ أقصد بشأن الاستمرار؟

وجعلته يبتسم، فقد كان وجهها بشوشًا، ويبدو دافئًا خاليا من آثار الدموع في ذلك الوقت، فقد كانت تصيح منذ لحظة حينما تركت المكان القديم، ثم وجهت وجهها تجاه الغرب، ولم تعد تنظر خلفها، ولم يكن إيفانز يعرف معرفة تامة أو يشعر بماذا يعني تنازل امرأة عن بيتها الذي رتبت حياتها فيه، قد ترفض المرأة التحرك ومغادرة مكانها الأول؛ لأن ذلك يعني التخلي عن ظهورها الصفراء (يقصد بها وقت الزواج).

وهو، على الرغم من ذلك، يفهم ربيكا من زوايا كثيرة، فهي سوف تقوم بالرحلة من غير أي تذمر أو شكوى، وسوف يكون حديثها مرحًا كما سوف تقوم بتنفيذ أعمال تجيدها بيديها.

وأجابته على قوله:

- إنني على خير ما يرام يا ليجي، فالأزمة تعم الجميع... ولماذا تسألني؟ هل غيرت رأيك؟

- لا.. الكل سيذهب إلى أوريجون التي سوف تكون لك ولي.

وكان صوتها يبدو ناعمًا حين قالت:

- إنك أكبر مغفل يا ليجي.

وكان يعرف ماذا تعني، لقد كانت تعني أن الوقت لم يحن بعد لكي يحني رأسه لأوريجون، ويشعر بتحسن لتحقيق هدفه. لقد شعر بأن هذا الاتجاه غريب.

وقالت:

- هالو، هذا هو ديك.

وشاهد إيفانز، ديك سمرز، وهو يجول، ويبدو كأنه شيء، وهو يلبس سرواله وقميصه المعلم، كما شاهد شعره الفضفي وقامته الطويلة وذراعيه وساقيه القويتين، لقد كان رجلًا يسترعي الأنظار؛ إذ إنه يختلف عن أي إنسان آخر. وكان إيفانز يعرف أنه يختلف عن هؤلاء الذين يتبعون قافلة سانتافيه، وعن المكسيكيين الذين يرتدون ملابسهم حبًا في الظهور.. لم يكن هناك حب ظهور في ديك، بل كان هو نفسه دون أي تغيير. وتحدثت إليه ربيكا، وهي تنظر إلى فراش الكباش الذي يضعه فوق كتفيه:

- أعتقد أنك قد تخلصت من جميع شحوماتك!

- أعتقد أنني قد وصلت إلى درجة كافية من التخلص.
- هل هي الشمس التي فعلت ذلك بك يا ديك؟
- فتحدث إيفانز، وقال وهو يشير إلى العربات والخيام والناس والأحاديث والخييل والثيران وكل شيء.
- إنها الوجبات الغذائية، هناك بعض الناس الذين سيعودون من حيث أتوا.
- وتحول سمرز إلى غليونه، فأخذ يملؤه بالطباق وهو يقول:
- إن الأمر سوف ينجلي عما قريب.
- فقال إيفانز:
- إن تادلوك يشبه الضفدع الكبير.
- إنه يبدو كذلك، لقد بدأ بداية قوية لا يستطيع أي إنسان آخر أن ينافسه فيها.
- ربما سوف يصبح قائدًا مناسبًا.
- وهز سمرز رأسه، كما لو كان لا يوافق على هذا الرأي، وقال:
- يجب أن نراقبه بدقة.
- وجذب نفسًا طويلاً من غليونه، في حين أخذت عيناه الرماديتان تجوبان فيما حوله.
- وقال إيفانز:
- إنه يريد أن يقتل جميع الكلاب حتى كلبتي العجوز - روكي.

واستمر سمرز يدخن.

وقال إيفانز مرة أخرى، وهو يضع كلماته في صورة أسئلة:

- هذا هو ما سمعته.. ولكنه لن يستطيع أن يظهر على المكشوف..
لا أعتقد أنه سيفعل ذلك؛ لأنه سوف يكلفه الكثير من الأصوات.
ثم استطرد قائلاً:

- إنهم يقولون إن الكلاب لا تستطيع أن تقدم على مثل هذا العمل،
أليس كذلك؟ وهم يقولون إنهم سوف يقدموننا إلى الهنود.
ونظر سمرز إلى ربيكا وظهرت ابتسامة شاحبة على وجهه، وقال:
- إنهم يصنعون لحمًا طيبًا إذا كان عندهم ما يكفي من الطعام.
- آه.

- السيكوس يأكلون الكلاب الصغيرة، وقد أكلت أنا منها، وهي
تشبه لحم الخنزير.

فسأله إيفانز:

- هل أنت واثق يا ديك؟ وهل يجب أن نتولى قتل الكلاب؟
- أنت الذي سوف تدفع الثمن.
- أعرف معرفة تامة، ولكن هل تعتقد أنه يجب علينا فعل ذلك؟
- إن الكلب يستطيع أن يذهب حيث تستطيع البقرة.
- لم أفكر هذا التفكير من قبل.
- إنهم لن يتركوننا على أي حال، بل سوف يقيمون الحراسة علينا.

وصمت سمرز لحظة، ثم استمر في حديثه قائلاً:

- من الصعب جدًا التسلل إلى معسكر الهنود للتجسس عليها من أجل الكلاب.

- إن تادلوك لا يعرف شيئاً عن ذلك، يجب أن نخبره ونحثة.

ثم أخرج إيفانز غليونيه من جيبه، وأخذ يحشوه، ولكنه سمع صوت بوق ينادي الرجال للحضور إلى الانتخابات.

وذهب كل من إيفانز وسمرز إلى مركز المعسكر حيث اجتمع الرجال، واستطاع إيفانز أن يشاهد، وهو في طريقه، صفاً من الكلاب مرة أخرى يتبعه غلام صغير أبيض اللون نحيف للغاية، وسمع إيفانز صوتاً يناديه قائلاً:

- تودي.. عد يا تود.

وكان هذا الصوت هو صوت مسز فيرمان الطويلة القامة المليئة الأرذاف الخفيفة الشعر الصافية العينين مثل المياه، وخرجت لتمسك الغلام من يده.

واجتمع كل شخص في المعسكر من أجل الانتخابات، وكان الرجال يقفون في الأمام يمضغون ويصقون، في حين كانت النساء واقفات في الخلف، ومعهن الصغيرات، مصغيات لما يدور. وبعد أن تم انتخاب تادلوك قائداً مؤقتاً للقافلة، أعلن أتباع النظام في هذا الاجتماع، ثم وقف فوق قطعة عالية من الخشب وألقى بملقعة على طبق من الصفيح لكي يسود السكون، ولما ساد السكون أرجاء المكان

بدأ يتحدث، في حين التف الواقفون حول المنصة التي يقف عليها. وكان كل شيء يحيط به مستديرًا، لذلك ظن إيفانز أن الأوجه أصبحت مستديرة، وكذلك الأجساد وطريقة الوقوف. وكان يتعجب هو نفسه من أنه قد يكون مستديرًا مثل الآخرين أيضًا، واعترف لنفسه بأن تادلوك قد خلق من نفسه شخصيته، وكذلك من أسنانه البيضاء ووجهه الممتلئ حيوية واحمرارًا، وفكيه القويين وجذور شعر ذقنه، وعينه الجريئتين، وذراعيه وساقيه القويتين، لقد كان رجلًا يسترعي الأنظار؛ إذ إنه يختلف، ولكن القلق كان يعترى إيفانز من أن تادلوك قد لا يكون كذلك، ولم يكن يرغب في أن يفكر تفكيرًا سيئًا بشأن هذا الفريق.

وكان تادلوك يقول:

- رفقائي.. إن عندي سببًا كافيًا للاعتقاد بأننا سوف نكون أول من يذهب إلى أي مكان؛ لأن قطارات سانت جو، لن تسير قبل عدة أيام، لذلك يبدو لي أننا سوف نكون أول من يدخل بعرباته، وأول من يهرب من غبار وأتربة الصحراء، لنجد الحشائش لحيواناتنا، وأن نكون أول من يصل إلى وبلاداميت.

وكان البعض يصبح استحسنًا لكلماته، فيصمت لحظة ليمنحهم وقتًا كافيًا للاستحسان، وحينما ينتهون يكون هناك البعض ممن لا يزالون يصيحون قائلين:

- «الرئيس.. السيد الرئيس».

ووقف الأخ ويذربي بجواره، وهو يضع فوق كتفيه معطفه الأسود، على الرغم من أنه يشعر بازدياد الحرارة، وارتفع صوته يقول:

- إننا لم نؤد الصلاة.. إننا لم نفتح الحديث بالصلاة.

فقال أحد الأفراد الذين يقفون خلف ويدربي:

- اجلس من أجل المسيح.

وأجابه صوت آخر:

- أستطيع أن أتذكر ما قاله والدي في موعظة يوم الأحد من أننا لن نستطيع أبدًا عبور المسيحي.

وكان هناك غيرهم من الرجال الذين يهتممون، أما النساء فكن -كما لاحظ إيفانز وهو ينظر من حوله- يهززن رؤوسهن معتقدات أن ويدربي كان على حق.

ولكن تادلوك لم يهتز، وإنما قال:

- إنني آسف أيها الأخ ويدربي، كان ذلك خطأ مني، هل تفضل بالقيام بالصلاة؟

ثم أحنى رأسه، فأحنى ويدربي رأسه أيضًا، ثم رفع يديه شيئًا فشيئًا وطلب من الرب أن يكون رحيماً بالمذنبين الضعفاء، وقال إنهم عرفوا أن الطريق كان طويلًا ومحفوفًا بالمخاطر، ولكنهم وضعوا ثقتهم فيه.. إننا نسجد لك؛ لتحميننا من العوامل والعناصر والوحوش والمرض والحوادث؛ ولكي تمنحنا القوة في هذه الرحلة، وتجعل قلوبنا عامرة بك مهما يمر بنا.. ولتجعلنا شكورين لنعمتك وفضلك، ولتقودنا إلى معرفة عظمتك ولتجعل المذنب يتوب إليك، والمخطئ يرى نتيجة شروعه، والزاني والزانية يفهمان ذنبهما حتى لا يعودا إلى مثل هذا

العمل.. إننا نسجد لك لكي تسخ علينا من حكمتك الروحية، ولتجعلنا جميعاً مسيحيين.. بارك الرب في الأطفال الصغار الذين قال عنهم المسيح دعهم يدخلون في رحابي.. وليمسك الرب العاصفة حتى لا تأتي على جهودنا، وليمنحنا الرب خيرات الأرض.. اجعلنا نهابك، ونشدد لك أهزوجة المدح الأبدي.. آمين، آمين.

استغرقت كلمة ويذربي في التحدث إلى الرب وقتاً طويلاً يكفي لأن تنتقل فيه نملة من قدم ديك سمرز إلى رأسه من غير احتساب المرتفعات والمنخفضات والرحلات الفرعية، وضلال الطريق الذي يمتلئ بحراب العشب. وأخذ إيفانز يلقي بنظره إلى سمرز، في الوقت الذي كانت الموعظة مستمرة، فرأى رأسه ينحني وعينه تحمقان في فضاء بعيد، وتعجب من أن يكون سمرز يؤمن بالله، ولكن ذلك لا يخلق أي اختلاف؛ إن أي إله يستحق الركوع له سوف يعرف أن ديك سمرز رجل طيب الخلق حتى ولو لم يقوم بإحناء رأسه خشوعاً طالباً البركة والمغفرة. ولم يكن إيفانز يعتقد أن سمرز يطلب أو يرجو، في يوم من الأيام، أحداً حتى ولو كان الله نفسه.

ولما انتهى ويذربي من موعظته، قال تادلوك:

- عندنا قواعد وأحكام يجب أن نتبعها، كما يجب أن نقيم تنظيمًا لنا.

وجاء صوت يهتف، فحاول تادلوك أن يسكته بيده، ولكنه لم يصمت، وأخيراً تساءل تادلوك قائلاً:

- ماذا دهاك يا تورلي؟

وتحرك إيفانز ليرى تورلي الذي كان قد اندمج في الركب أخيرًا
من التلال في ميراميك، وكانت الكلمات تخرج عالية وسريعة من فمه
الضيق.

- يبدو لي لأول مرة أن أول شيء يفكر فيه الإنسان هو: هل نرغب
في الاستمرار أو الانتظار لبعضهم، الذين ليسوا على استعداد بعد؟
توجد هناك قاطرة لهؤلاء، أليس هناك رجال ناضجون على حسب ما
أرى؟ أين سنتلقي بالبونيز، والسيوكس؟ هناك سيل من الناس سوف
يتدفق علينا بالمئات، وقد قال الدكتور وولش القادم من إنديانا إننا
نستطيع أن ننضم إليه، لقد أخبرني بذلك بنفسه، ولكنني أقول دعنا
ننتظره، ولتكن مائة عربة على طول الطريق.

فصاح تادلوك:

- سكون. نظام.

وظل يدق على الطبل، وازداد صوته حدة بتوقف الضوضاء
الشديدة، واستمر يقول:

- لقد بحث ذلك الوضع بحثًا تامًا، وكل فرد انضم إلى هذه
المجموعة يعرف معرفة تامة أننا نزمع البدء في الرحيل مبكرًا؛ لكي
نكون أول الداخلين. ومجموعتنا كبيرة بما فيه الكفاية؛ أربع وعشرون
عربة ونحو ثلاثين رجلًا مسلحين.

ورفع يده ليشير إلى ديك سمرز ويقول:

- اسألوا ديك سمرز هناك، إنه يعرف، وسوف يخبركم بأنه من

الممكن أن تكون القافلة كبيرة.. كبيرة لدرجة تصبح حركتها وسيرها بطيئين وصعبين.

ثم نظر إلى تورلي، واستمر يقول:

- أي إنسان يخاف يستطيع أن يبقى، ولكننا سوف نستمر في طريقنا.. لقد انتهينا من ذلك.

وسكت تورلي، ولكن كانت هناك أصوات أخرى تصيح، واستطاع أن يميز إيفانز صوتًا منها، كان صوت مسز تورلي الذي يعرفه معرفة تامة.

وكان تادلوك قد انشغل، لذلك سأل كما لو كان لا يعرف:

- هل اللجنة على استعداد لإعداد البيان؟

أجابه ماك:

- أجل.. إنها على استعداد.

ثم تقدم إلى الأمام، وعلى وجهه أمارات التفكير، وقال:

- إن لجتكم توصي بأن يتم انتخاب تادلوك قائدًا لهذه القافلة، وشارلز فيرمان مساعدًا له، وهنري شيلدز قائدًا لحرس المؤن، على أن يعمل كل منهم حتى نهاية الرحلة.

وقام شخص من إلينوي من أصل ألماني، يُدعى بروور، بحركة للموافقة على هذه التوصية، وقام هنري ماك بي بمساندة هذه الحركة.

وأتى تادلوك بحركة كما لو كان يهم بالنزول من فوق منصته، وأخذ يقول:

- هل يرغب أي فرد في تولي الرياسة؟ إن ذلك ليس من حقي.

ولكن الصيحات تزايدت لتقول:

- استمر حيث أنت.

فأعاد تادلوك قدمه إلى المنصة مرة أخرى، وقال:

- حسنًا. هل هو إجماع؟

ازداد الهتاف والتصفيق.

- أشكركم. أشكركم جميعًا، سوف أبذل قصارى جهدي.. هل هناك تقرير آخر؟

وكان هناك تقرير آخر قام ماك بقراءته، وكان إيفانز يستمع نصف استماع؛ إذ لم يكن مركزًا انتباهه.. نوصي بنقل غير القادرين، على القطار الذاهب إلى أوريجون.. ونوصي بإقامة مجلس للحكم يتكون من ستة أشخاص من المنتخبين، ونوصي بدفع ضريبة لتغطية النفقات، بما في ذلك مبلغ مائتي دولار نفقات المرشد.. ونوصي بعدم تناول المشروبات الروحية إلا للأغراض الطبية.. ونطلب عربات تستطيع أن تحمل أزيد من طاقتها بمقدار الربع، وفريقًا للسحب يزد بمقدار الربع.. القتل للقاتل.. الجلد تسع وثلاثون جلدة للسرقة وتسع وثلاثون جلدة للزنا (كلمات رنانة لأشياء بسيطة) يحدد المجلس العقوبة بالنسبة للكلمات النابية.. يوصي المجلس بأن يتحرك الركب في الساعة السابعة صباحًا كل يوم، ويسير بمعدل يتردد بين عشرة وخمسة عشر ميلًا في اليوم.

وكانت قائمة طويلة جعلت سمرز يتحرك في مكانه وييدي ضيقه،

كما تحولت أنظار إيفانز إلى كل من ماك، وفيرمان، وماك بي، وبروور، ثم إلى فتاة بعيدة عن الرجال هي «ميرسي ماك بي» التي كانت ترتدي قبعة عريضة حمراء، وتقف زائغة البصر بوجه شاحب، كما لو كانت جرّوا صغيراً استمع إلى أصوات كثيرة وضوضاء، وكان الحزن والفراغ يبدوان على وجهها، ولكن مجرد النظر إليها كان يوحي بأنها تحاول البحث عن رجل معين. إنك تستطيع أن تعرف ما تريده من الحيوانات وتعرف كيف توجهها، ولكنك لا تستطيع أن تدخل في أعماق النفس البشرية لتعرف ما يدور فيها.. تسع وثلاثون جلدة للزاني والزانية؟ كان هذا تحذيراً موجهاً من جميع الرجال المتزوجين إلى العزاب الذين سوف يشتركون في الرحلة. وكان الأخ ويذربي يرغب في إضافة شيء معين لهذه القائمة، فطالب المجموعة باتباع «القانون الخلقي والأدبي الذي وضعه الله في صدر كل إنسان».

وظهرت ابتسامة صغيرة على وجه تادلوك.. كان يعرف أكثر مما يدفعه إلى الضحك، ولكنه عرف كيف يتسم أيضاً، وأنه من الأفضل منح الواعظ فرصة عمل ما يرغب فيه.

أما الرجل الذي كان يقف خلف إيفانز، فقد همهم قائلاً:

- أخرجوا هذا الرجل الثرثار، هل يريد أن يضع القوانين، وألا يكون هناك شيء دون أن يتدخل فيه؟

وعاد ماك إلى تلاوة المزيد.. نطلب ونحتاج إمدادات بالكميات التالية.. مائتا رطل من الدقيق لكل شخص ما عدا الأطفال.. خمسة وسبعون رطلاً من المواد الغذائية، وخمسون رطلاً من اللحم، تعيين

ثلاثة مراقبين للإشراف على العربات والإمدادات.. هل الجميع موافقون على هذا التقرير؟ نعم..

وكان صوت إيفانز في الخلف يقول:

- إن كل هذا يؤكد ويحدد رأي الواعظ.

وكان إيفانز يعتقد أن هذه القواعد لا تكفي؛ إذ لم تتضمن شيئاً عن الماشية وكم عدد الرؤوس التي سوف تدفع العربات وتسير في الركب. وكان تادلوك نفسه يمتلك عددًا كبيرًا من الماشية، وبقرة أو بقرتين للحلب. لم يكن ذلك عادلاً.. في أن يتولى الرجل القيادة لأنه يمتلك أكثر من غيره، وكانت عنده فكرة لأن يتحدث، ولكن تادلوك قال في هذه اللحظة:

- سوف يتم عمل الكثير من الأشياء كلما توغلنا في المسير، أما الشيء الضروري الآن فهو التنظيم السريع حتى يمكن أن نخطو أول خطوة.

وكانت كلماته تحمل الكثير من المنطق، لذلك وجد إيفانز نفسه يشعر بشيء من الذنب، ولم يكن هناك أي سبب للشك في تادلوك إذا اعتاد الإنسان على طريقته، فقد كان رجلاً من الرجال الذين يحبون تركيز الأشياء في أيديهم، ولم تكن هناك أي غضاضة في ذلك. كان تادلوك قد أخبر سمرز في الليلة السابقة قبل الجنازة أنه يجب أن يكون هناك من يتحمل المسؤولية، كان تادلوك على حق باستثناء فكرته السخيفة الخاصة بالكلاب، ولم يقل أي إنسان أي شيء حتى الآن عن الكلاب.

- أي عمل آخر؟

وجاءت الحركة التالية من ماك بي نفسه، الذي طالب بترك الكلاب أو قتلها. وبعد أن شاهده إيفانز يتحدث بكلمات جديّة وقويّة، كان يعرف أن ماك يعني ما يقول، وكان يعرف جيّدًا أنه سوف يقدم أكبر كلب لهذه العملية دليلًا على صدقه.

- هل هناك مؤيد ثان؟

لقد كان بروور -رجل إلينوي الألماني الأصل- هو الثاني في تأييد منع الكلاب من استمرار السفر، ومنعها من دخول أوريجون؛ لأنها سوف تكون إشارة تدل الهنود على مكان المجموعة.

وأخذت الألسنة تهتف بكلمتي نعم.. لا.. لا.. نعم، ثم دق تادلوك على وعاء قائلاً:

- دعنا نحتكم في ذلك.

فتحدث نحو ستة أشخاص كل منهم بعد الآخر محاولين رفع أصواتهم بشأن هذه المناقشة التي تدور بقوة -ماك بي، فيرمان، وبروور مرة أخرى، ويانكي يطلق عليه اسم باتش، وإيفانز نفسه. قال ماك بي:

- أجل. اقتلوا الكلاب.. إنها لم تكن صالحة لأي فرد، وإنما كانت تقف حجر عثرة في طريق التقدم.

وقال فيرمان:

- دع كل رجل يفعل ما يرغب أن يفعله.. إن مثل هذا العمل ليس من اختصاص المجموعة.

فصاح إيفانز قائلاً:

- اسألوا ديك سمرز. اسألوا ديك، فهو يعرف أكثر من أي فرد آخر.

وزاد الصياح، فقالت مجموعة من الأشخاص:

- حسنًا.. دعوا سمرز يتحدث.

وكان يبدو على سمرز أنه غير راض عن التحدث أمام مجموعة من الناس.. ثم أخذ يعبث في سرواله الجلدي وهو يقول:

- إنني لا أود أن أستغل الاختلافات، ولكنني أعتقد أن هناك بعض الكلاب التي يجب التخلص منها، وهناك البعض الآخر الذي يجب الإبقاء عليه.. وعلى أي حال فإن الكلب الذي يموت لا يعتبر خسارة إلا لصاحبه.

كان هذا هو تفكير إيفانز نفسه.. لقد كان الناس يتساءلون ويؤكدون أن الكلب لن يستطيع تحمل الرحلة، وهذا سبب كاف يجب أن يقبله كل فرد.

واستمر سمرز يقول:

- سوف تخبر الكلاب هذا المعسكر عما يفعله الهنود قريباً جداً، وربما أسرع مما نتوقع. أما بالنسبة لي، فإنني أرغب في وقوع أزمات ومشكلات مع الهنود ما عدا بعض الشحاذة، وقليل من السرقات. والهنود عادة لا يرغبون في الاصطدام بمجموعة كبيرة مثل هذه المجموعة.

وفي هذه الأثناء كان تادلوك يمر بيده على فكه، في حين دخل من قطع الحديث مرة أخرى، وبعد فترة وجيزة طرق الطبق مرة أخرى وقال:

- إنني أفكر كثيرًا في المضايقات التي سوف تسببها الكلاب..
سوف تخلق ضوضاء مخيفة، وسوف تعوق تحركات الركب، سوف
تسقط تحت الأقدام والعجلات في الصباح، وتؤذي نفسها، أو تفقد أو
تسبب في التأخير.. إنني خائف.. وعلى أي حال دعنا نأخذ الأصوات.
إنك لا تستطيع أن تكون واثقًا من شيء عن طريق الأصوات -أي
جانب سوف يفوز، ولكن بعد أن طالب تادلوك برفع الأيدي الموافقة
وأحصاها بدقة قال:

- لقد تم تنفيذ أخذ الأصوات، وتمت الموافقة.

ولكنه لم يقل من الذي سوف يتولى تنفيذ القتل ومتى، وصمم إيفانز
على أن يكون بينه وبين الشخص الذي سوف يأتي لقتل روك أمرًا معيّنًا؛
لذلك أصبح الأمر يقلقه ويحيره، وأخذ يربط بين الأشياء بطرقه السلمية.
وبينما يفكر في هذا كله، استمر تادلوك في إجراءات انتخاب
المجلس وتعيين المراقبين.. ولم تكن مفاجأة كبرى لإيفانز حينما سمع
اسمه يتردد في القائمتين.. لقد انتخبه الجمهور عضوًا في المجلس وعينه
تادلوك مراقبًا. وكان كل ما يرمي إليه تادلوك هو أن يجذب كل فرد في
المجموعة للعمل بجانبه؛ لأنه كان يهدف إلى استغلال كل طاقة فيهم
لنجاح المهمة.

وعلى أي حال، أصبح كل شيء معدًا وتامًا، وتلفت إيفانز حوله فشاهد
براووني يمتطي بغله، ثم نظر إلى البراري الممتدة حيث ترعى الحيوانات،
فرأى البغال و الخيول تقفز هنا وهناك، ورأى الثيران تستريح في أمان،
فعرّف كما يعرف معرفة تامة أنه من الممكن الاعتماد على براووني.

ثم عادت نظراته إلى براوني.. كان الغلام جالسًا فوق البغل بهدوء وعيناه مثبتتان بعزم، وتأمل إيفانز ابنه فرأى فيه رجلًا قوي الشكيمة يمكن أن يركز ثقته فيه في المستقبل. وقبل أن يستدير برأسه، عرف ما شاهده براوني.. إنها الفتاة ميرسي ماك بي ذات الوجه الحزين، لقد كان يراقب وجهها وقبعتها الحمراء، والثديين الصغيرين البارزين في صدرها داخل الثوب الفضفاض.

وحملق فيها إيفانز لفترة وجيزة، ثم عاد إلى النظر إلى ولده، لقد كان الاثنان في عمر متقارب، وكان يبدو عليهما أنهما قد بلغا السابعة عشرة، وكانت النظرة التي تبدو على وجه إيفانز تشبه النظرة التي وجهها ماك إلى الفتاة لأول مرة.. لقد كانت تشبهها، ولكنها تختلف في جوهرها؛ إذ كانت تتصف باللطف والرقّة وعدم الخبرة والإدراك، لا تفكر فيما هو السرور فقط أو ربما مطلقًا، وإنما في الوداعة والرقّة والجمال والسعادة.. إنه شعور ينبض من أعماق القلب.

وتحول إيفانز بنظره بعد ذلك، ولعن نفسه؛ إذ كان يبني أشياء في مخيلته لا يوجد لها أساس من الوجود، أو من شعوره الذي ظل يراوده طويلًا في الأيام الغابرة، ومرت مسحة من السعادة أمام ناظره، وقال لنفسه لنزوجه ولنجعله يقول لهنري ماك بي «أبي» ولمسز ماك بي «والدتي»، ولنجعلهم في أيدينا بقية حياتنا؛ حتى تصبح الحياة سهلة.. ولأبعده عن الزنا حتى لا يتعرض للجلدات التسع والثلاثين.

الفصل السادس

ظن ديك سمرز أن هؤلاء الرجال يختلفون عن رجال الجبال، وأنهم لا يستطيعون التمتع بالحياة كما يمكن أن يكون، ولكنهم يرغبون أن يجعلوا منها شيئاً يذكر، كما لو كانوا يستطيعون أخذها وتشكيلها بالطريقة التي يرغبون فيها. إنهم لا يتحدثون عن البيرة أو الويسكي أو نساء وفتيات الهنود، وكذلك لا ينغمسون في الجو، وإنما يتحدثون عن المحصولات والمياه والأعمال، ولم يلاحظوا الشمس وهي تسطع بضوئها، أو أوراق الأشجار الحائلة إلا على طول الطريق، وكان من الممكن أن ينظروا إلى الورا فيما بعد ويتعجب كل منهم لما حدث، بعد أن مرت الأشياء بهم من غير أن يهتموا بها أو يلتفتوا إليها. وقد يتذكرون الصباح في المعسكر والدخان يرتفع، وأشعة الشمس تخترق حجب الضباب الكثيف، والهواء الشديد. إنهم يأملون في الحصول على أفضل ما في اليوم، ولكن الإنسان الذي ينظر إلى الخلف يشعر بالشعور نفسه، ولم تكن هناك أي وسيلة بعد ذلك لإضاعة الوقت.

وعلى مسافة قليلة من المعسكر جلس سمرز القرفصاء فوق الأرض وأخذ يعبث بعصاه في ترابها، وكان كلما نظر إلى الأمام شاهد بعض

المفتشين الآخرين وهم يقومون بين لحظة ولحظة بجولة لمشاهدة ما إذا كان كل شيء على ما يرام طبقاً للأحكام الموضوعة. وكانت بعض النسوة يقمن بإعداد العشاء، أما هؤلاء اللائي لا يمتلكن مواقد، فقد قمن بإشعال النار في بعض الأخشاب وصنعن منها موقدًا كبيرًا، وكانت الدموع تتساقط من أعينهن بسبب الأدخنة المتصاعدة من النيران ومن الأغذية. واختفت الحرارة بعد ذلك باختفاء الشمس، وكانت الماشية قد صعدت على السفوح لترعى في حين خيم على المعسكر صمت عميق. وكان الصغار يشعرون بالجوع وهم يلعبون ويلهون، وفي الوقت نفسه كان الكبار من الرجال مشغولين بالإعداد للبدء في التحرك غدًا. وبدأت النسوة ينصرفن بعيدًا عن النيران، وكانت أصوات الخفافيش وطيور الليل تصدر من بين الأشجار بطريقة مزعجة.

وأدت صيحات عصفور الليل إلى تنبيه «ماتي» التي كانت ترقد فوق القاذورات وهي ترتعد من البرد، واستمرت في رقدتها الطويلة من غير أن تتحرك، وذلك على الرغم من أن الأخ ويذربي كان يفكر تفكيرًا آخر؛ لقد فتح أبواب السماء في مراسيم الجنازة وأدخل الروح إلى الداخل في محبة الله، وكان من الجميل التفكير على هذا النحو تاركًا الرأس يستريح والقلب يتوقف إلى الأبد. ما الذي قام ويذربي بقراءته بالفعل؟ «الرحمة والسلام عليك من الرب.. أبانا.. ومن المسيح» قال ويذربي إن هذه الكلمات قد أخذها من الدعوات؛ لأنه مؤمن بها.

وكان سمرز يأمل أن يعرف ويذربي من أجل ماتي ما كان يتحدث بشأنه. إن لها الحق في الراحة الأبدية والابتعاد عن الحمى والآلام،

ولكن كل شيء كان ضد الجمال؛ إذ ماتت، ولم تبق سوى الذكرى العطرة، وألا يدع قلبه يتحطم بالمشكلات.

ولم يكن سمرز يعتقد أن قلبه مليء بالمشكلات مثل الآخرين؛ إذ إنه رجل جبال، أو يجب أن يكون هكذا، وقد قام بالتجوال والترحال مع الصيادين الذين لم يفكروا في يوم من الأيام في الأرض أو الأخشاب، أو في القيام بحيل لاكتساب الأموال، ولكنهم استمروا يومًا بعد يوم يأخذون ما يأتيهم في الصباح كأمر طيب في حد ذاته، وأن الغد فيه من الوقت ما يكفي للتفكير فيما سيأتي به الغد. كانت هذه هي فلسفة سمرز التي شعر بها، ولكن العوامل المحركة كانت تختلف.. لقد كانوا يرحلون للوصول إلى بعض الأماكن ما دامت الحياة تنبض في أجسادهم، ولكنهم كانوا محرومين من فرصة النوم في الفراش الدافئ مع امرأة، أو التفكير فيما سوف يكون عليه الأمر فيما بعد. وكانوا يقولون دائماً: هل من الممكن زراعة البراري بالمحصولات؟ إن الأرض التي لا تنمو فيها شجرة لن ينمو فيها أي شيء.. إن الشيء الذي يعمل عادة هو قطع الأشجار وزراعة المنطقة المحيطة بجذوع هذه الأشجار. وكان سمرز يعتقد أن هذه الأرض على طول «بير» أو «بويز» التي يلعب فيها الأولاد الصغار يمكن أن تستخدم في الزراعة. كان الرجال من ذوي الأسر الذين يقيمون مع زوجاتهم ويتمتعون بالحياة مع أولادهم، ولذلك كانوا ينظرون إلى إقامة مزارع ومدارس وحكومة، وتنظيم الحياة على أسس وقواعد.

ثم وقف بقدميه فوق الحشائش المتربة مثل ليجي إيفانز، الذي كان

يتوجه إليه الآن وعلى وجهه نصف ابتسامة، بينما يتبع كلبه روك قدميه، وكان يتحدث مثل ليجي عن البلاد -الولايات المتحدة الأمريكية- التي تمتد من المحيط إلى المحيط الآخر، وبدأت الأفكار تزداد وتزاحم في ذهن ليجي، لذلك لم يكن يجد أي مبرر للقول بإعطاء أوريجون للبريطانيين. كان والده يحارب الإنجليز، في حين كان البانكي (الأمريكيون) يديرون ظهورهم، كما لو كانوا يرغبون في ترك المكان للإنجليز متجهين إلى بلاد أخرى.

ولم يكن ليجي رجل حرب، ولكنه كان رجل صداقة وود، يقلل من شأنه أمام الغير مثلما يفعل الرجال الأقوياء في بعض الأحيان، كما لو كانوا يشعرون بالذنب؛ لأنهم حصلوا على أفضل ما يريدون، وكان كل ما يرمي إليه هو أن يجعل الأمريكيين يستقرون في البلاد ويجعلونها أمريكية، ولم يكن ليجي شبه الآخرين أيضًا؛ إذ لم يكن يرغب أو يميل إلى إضاعة الوقت لكي يستطيع أن يصل إلى الهدف. وكان سمرز يظن أن إيفانز سوف يذهب إلى الغرب لمجرد الترفيه، كما كان هو نفسه يأمل في ذلك، وذلك بالإضافة إلى ما يسمونه بالوطنية، أو بأي شيء آخر. وكانت روح الاستكانة لا تزال بعيدة في ليجي نفسه؛ لأنه كان يسعى إلى فتح آفاق جديدة ومراعٍ أخرى. كان هذا هو أفضل سبب وكانت فرصة ضئيلة أن يجد الناس أنفسهم أثرياء وفي وضع أفضل، بمجرد أن يستقروا في أوريجون.

كان إيفانز ينظر إلى ما سلبه سمرز، ولم يكن شيئًا كثيرًا لا يقترب من القواعد التي وضعت بشأنها الأحكام -بطانية، وجلد جاموسة

يكفيان لتغطية صندوق ويسكي، وبعض اللحم المجفف والقهوة والطباق، وقدر صغير، وسكيتان وبندقيتان تكفي إحداهما لإسقاط أي طائر، وكان عنده بعض أمتعة الهنود أيضًا من الخرز الأزرق والأبيض، وشخص لصيد الأسماك، وبعض الطباق، وبعض الألوان الحمراء البراقة، فإذا جمعت جميع مسروقاته، فإنها لا تكفي حمولة زوجين من الخيل، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت أكثر مما يحتاجه، وكان يستطيع أن ينتقل من مكانه من غير إفطار، وليس معه أي شيء، سواء ببندقته أو الخيل التي يمتطيها، ويستطيع أن يعود إلى مكانه وقت الغداء من غير خيله.

وفي هذا قال:

- أليس هذا الأمر كثيرًا يا ليحي؟
- لا.
- لا أحتاج إلى الكثير من الأشياء.
- لست أنت.. أعتقد ذلك.
- لم أر في حياتي مجموعة ذات مسروقات كثيرة، إنها ليست الطريقة التي اعتدنا السفر بها.
- أصبحت الأمور تختلف.
- لقد سافرت الكثير من الأميال من غير أن يكون معي شيء أكله.
- واستطاع سمرز أن يشعر بأن إيفانز قد تضايق قليلًا في داخل نفسه؛ إذ وقع بين الصداقة والإحساس الصريح، وبين القواعد التي كان

يجب أن يتبعها. وكان هذا هو الشيء الذي يحبه سمرز ويميل إليه في إيفانز نفسه، إن ما شعر به كان يستحق التنفيذ؛ لأنه كان يرغب في عمل الصواب، لقد كان رجلاً يعتمد عليه، وكانت هذه الأشياء سخيفة بما فيه الكفاية.

ورفع إيفانز طرف الغطاء الهندي، فأظهر برمبل الويسكي الصغير للأنظار.

فقال سمرز:

- إن القواعد واللوائح جميلة، ولكني لا أعتقد أنها تناسبني. ألا تستطيع أن تنساني يا ليحي؟

وهز إيفانز رأسه قليلاً، ثم عبس في وجه سمرز قليلاً، وقال:

- إنني لن أضايق نفسي بك يا ديك، فأنا أعرفك معرفة تامة، ويبدو عليك أنك رجل سكير. ابتعد يا روك لعنة الله عليك، لا تندس هكذا.

- إنني رجل سكير.. ربما ترغب أنت في بعضها.

- ربما.. «خل» طيب.

- إنه أفضل من أنواع التفاح، كنت أقول دائماً إن الشعير أفضل بكثير من التفاح.

وفي هذه اللحظة انطلقت طلقة بندقية في الجو من الطرف الآخر من المعسكر، حيث لا يستطيعون مشاهدة أي شيء، فنظر إيفانز إلى روك، وقال:

- إن ذلك الملعون ماك بي قد بدأ في تنفيذ القرار، إنه قاتل الكلاب.

إنني أشعر شعورًا عميقًا بشأنه.

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- كل ما أعرفه هو أنه لن يقوم بإطلاق النيران على روك، ارقد يا فتى.

وأخذ يمر بيده على فكه واستمر يقول:

- إن ماك بي لا يمتلك ما يكفي من الغذاء وغيره.

- هل تعني أن ماك بي ليس إنسانًا مناسبًا في هذه المجموعة؟

فhez إيفانز رأسه وقال:

- لقد شبع تادلوك، وكذلك ماك؛ لذلك فإنهما لن يعودا.. أليس معك نقود يا ديك؟ إنك لن تستطيع دفع الضرائب، وأعتقد أن ذلك سوف يكلفك الكثير.

- لا يهم ذلك. ولذلك لماذا يقوم كل من ماك وتادلوك بتقديم المساعدة؟

فhez إيفانز كتفيه، وقال:

- إنني أراهن بأن ماك بي من المتسلقين، وعندنا هنا أحكام خاصة بالمتسلقين، وأراهن بأنه يمتلك أكثر مما تمتلك أنت.

- لا توجد هناك طريقة لاكتشاف ذلك إلا إرسال رجل إلى أوهايو لاكتشاف هذا الوضع.

- لا.. إنه يقول إنه نظيف نظافة تامة.

- إن له ابنة لطيفة حسنة المظهر.

- لطيفة لدرجة جد مملة.

- هل يقلقك ذلك؟

- لا.. إن النساء لا يثرن القلق فيّ.

وتردد صدى صوت البندقية مرة أخرى، ورأى ماك بي في تلك اللحظة والبندقية تدخن في يده، ومن خلفه اندفع كلب أسود إلى ظهره، وبدأ الكلب ينبح نباحًا مخيفًا.. نباح الآلام القاتلة، وبدأ ماك بي يزحف ويحاول الوقوف، ويهدئ من نفسه، في حين أخذ نباح الكلب يتضاءل حتى أصبح شبيهًا بالصغير، ثم وقف ماك بي واتجه إلى الكلب متناولًا حجرًا كبيرًا في يده، وكان الكلب ينظر إليه كمن يطلب مساعدة وعونًا، ولكن ماك بي أخذ يدق بالحجر رأس الكلب. وفي هذه الأثناء خرج غلام صغير يجري وهو يصيح في حين تعدو خلفه امرأة، وصاحت المرأة بماك بي في حين انحنى الغلام على كلبه، فقال ماك بي شيئًا ما، وتحول عائدًا تجاه إيفانز وسمرز، كما لو كان عمله على غاية من الأهمية مما يتطلب الإنصات.

ووقف روك على قدميه الأماميتين، فنهره إيفانز وقال:

- ارقد يا شقي.

ووقف ماك بي ليشحن بندقيته، وشاهدهما، ولكنه استمر في مشيته، وكان وجهه جادًا مثل البومة.

ثم قال لإيفانز:

- يجب أن تتخلص من هذا الكلب الراقد هناك، وإلا فسوف أضطر إلى إطلاق النار عليه.

- إنك لن تقوم بإطلاق النار على كلبى يا ماك بي.

- إنها اللوائح.

- لعنة الله على اللوائح.

- إنني معين لتنفيذ هذه اللوائح.. تخلص من الكلب، وإلا اضطررت إلى قتله.

كان إيفانز رجلاً بطيئاً في تصرفه، لذلك لم يغضب كثيراً من هذا القول. وكان سمرز يعرف كيف يرد على مثل هذا الموقف، إذ غالباً ما يقوم بتصيد الكلمات، وكان رده على ذلك هو:

- اقتل أنت كلبى يا ماك بي، وسوف تدفع ثمن ذلك.

فبصق فوق الحشائش وقال:

- ليس هناك أي مخرج من اللوائح.

- إنني سوف أنسحب من هذه المجموعة وأخذ معي هؤلاء الذين يمتلكون كلاباً.. أخبر تادلوك بذلك.

وكان سمرز يقول في نفسه: امنح بعض الرجال بندقية وشيئاً من السلطة، وسوف تراهم يقومون بتنفيذ الأوامر بعنجهية وغباوة، لذلك أجاب ماك:

- قل له أنت بنفسك.. إن عندي عملاً يجب أن أتمه.

- لقد أخبرتك أنت.. لا تمس روك.

ووقف إيفانز بجانب ماك، وكان يبدو ضخماً بجواره على الرغم من أنه ظل على حكمته ووقاره، كما لو كان قد خجل من طول قامته وضخامته، وكان يبدو في مظهره أنه يخشى ارتكاب الخطأ، ثم سأل سمرز إيفانز قائلاً:

- ليحي، لماذا لا تطرقه حتى يتساوى في الحجم؟

- أعتقد أنني يجب أن أفعل ذلك.

وكان ما فهمه إيفانز هو أن ماك بي قد يكون خطراً في تلك اللحظة؛ لأنه يمتلك بندقية في يده، والأهمية في صدره.

وانتصب سمرز وقال:

- اقسم يا ماك بي أنني لا أعرف لماذا لم يقتلك أي إنسان حتى الآن؟

فاستعد ماك بي ببندقيته واستدارت حدقتا عينيه أكثر من قبل، وقال بحدة:

- إنها اللوائح ويجب أن أقوم بواجبي.

قال إيفانز:

- أخبر تادلوك بما قلته.

وشاهد سمرز تحولاً في وجه ماك بي، وشاهد فوهة البندقية لا توجه إليه، وإنما أخذت تدور بطريقة عصبية، وكان يبدو على وجه ماك بي الرعب والخوف، ولكن غروره جعله يتمسك بموقفه.

واضطرب سمرز أن يجعل من صوته تأثيرًا يحول ماك بي عن رأيه فقال:

- انظر يا ماك بي.. إننا لا نتصيد المشكلات.. انظر إلى هذا الكلب العجوز..

ثم أشار إلى روك.

كان الأمر سهلاً، فتحول ماك بي برأسه، وبقفزة واحدة وضربة مفاجئة باليد استطاع سمرز أن ينتزع البندقية بعيداً، فسقط ماك بي نصف سقطة، وحاول أن يتشبث بالبندقية، ولكنه فشل، وقام على قدميه، وخطا خطوة إلى الوراء، واستطاع سمرز أن يرى آثار ورائحة الخمر في فمه، وصاح ماك بي في صوت عال يشبه صوت النساء:

- إنك لن تتخلص من هذه البندقية!

- اذهب وأخبر تادلوك كما طلب منك ليحي إيفانز.

فرد ماك بي وهو يسرع إلى وسط المعسكر وينظر خلفه من فوق كتفه:

- حسناً، سوف أخبره.

قال إيفانز:

- علينا أن نراقبه الآن.

- أجل.

- لم يكن هناك أي سبب يجعلك تندفع لفعل ذلك.. لم أكن أقدم على هذا العمل بنفسي، ولكن قد أفعله بطريقة ليست بهذه السرعة.

- بالتأكيد، لقد قمت بالعمل فجأة، اعتقدت أن الكلب الأسود طلب مني أن أثار له.

وصمت إيفانز وظن سمرز أنه لا يرغب في أن يتحدث عن ماك بي، لذلك قال سمرز محاولاً تغيير موضوع الحديث:

- ماذا عن صاحب طلب الرحمة والغفران؟

- من؟

- ويدربي.

- ماذا بشأنه؟

- إنه على أحسن حال بما سرقه.

فهز إيفانز برأسه الكبير وقال:

- إنه لم يحصل على أي شيء يا ديك سوى زوجين من الخيل، وربما وجبتين من الغذاء، ويجب أن أخبره.

- هل تتحدث إليه؟

- لقد قال إنه سوف يذهب إليها بمفرده إذا لم يستمر الركب. الله وهو فقط، يجب أن أتحدث إليه.

- اترك فرصة لماك بي ليتحدث إلى تادلوك.

وكانت عينا سمرز تجولان في خلال المعسكر بأسره، فشاهد مجموعة من الرجال وماك بي وسطهم.

فنظر إيفانز إلى الشمس وقال:

- حسنًا. أعتقد أن الوقت مناسب الآن.

وأخذ الاثنان يدخان غليونيهما، ثم نهضا متجهين إلى المجموعة،
وأخبر إيفانز سمرز قائلاً:

- إن بيكي تدعوك لتناول العشاء معنا.

- أستطيع أن أدبر شؤوني.

- ليس على حسب طريقة بيكي.. فهي تقول إنك لا تحصل على
الغذاء المناسب، لذلك يجب أن تحضر لتناول طعامك معنا بصفة منتظمة.
- إن هذا كرم أخلاق منها، وأنت كذلك. سوف أرى ما إذا كانت
هناك لحوم في الوعاء.

وصاح إيفانز وهو ينظر إلى بندقيتين يحملهما سمرز:

- هل استخدمت بندقية ماك بي؟

فقال سمرز وهو يستعيد ذاكرته:

- لعنة الله على هذا الواعظ إذا لم يتناول أجرة قداس وجناز ماتي.

- هنا يا روك. أعتقد أنه يستطيع أن يرفع قبعته دائماً ليتلقى فيها
النقود، إنه يلقي بمواعظه من رأسه ولا يتلقى أجرًا، وهو يقول إن الوعظ
شيء والقداس الجنازى شيء آخر.
- عليه اللعنة.

ومر الاثنان بجوار النيران التي كانت موقدة للطهي وبين الخيام
والعربات، وكان إيفانز متنبهاً لمراقبة كلبه الذي يتعقب قدميه، وسوف

يخلو المعسكر طبقاً للخطة بعد أن تسير العربات واحدة في إثر الأخرى، وتُربط الثيران بالسلاسل في العربات التي تستطيع أن تكون دائرة متشابكة لمواجهة أي هجوم من جانب الهنود.

كان تادلوك قد عقد محكمة -تستطيع أن تسميها كذلك- وطالب المفتشين بتقديم تقاريرهم، وكان يستمع إلى ملاحظاتهم، ويدون ما يسمع من أرقام في ورقة أمامه. وكان فيرمان وماك بجانيه وذلك بالإضافة إلى بعض الرجال الذين أحاطوا به؛ الأخ ويزربي، بروور، وهيجنز، وأسماء أخرى كان سمرز يحاول أن يتعلمها مثل: جورهام، وكاربنتر، وبيرد، ودورتي، وباتش، وهولديرج، ومارتن، وكانوا يشكلون مجموعة لا بأس بها ما عدا واحداً أو اثنين فقط مثل ماك بي. اتجه سمرز إلى ماك وسلمه بندقيته ثم عاد مرة أخرى.

كانت الشمس قد بدأت تظهر في كبد السماء ككرة حمراء، في حين كانت هناك رياح خفيفة قادمة من الغرب تشعل النيران الموقدة وتزيد لهيبها، الأمر الذي استرعى نظر سمرز حينما أخذ يدور ببصره فيما حوله ليرى النساء وقد التففن في شبه دائرة للابتعاد عن الدخان. واستطاع أن يسمع الأصوات الأولى للخنافس والصراصير ومختلف الهوام والديدان الطائرة، وبدأت ضفادع الأشجار تصدر نقيقها بأصوات ثابتة وصوت طائر الليل أيضاً.

ونظر تادلوك في ورقة أمامه، ثم رأى إيفانز وسمرز، وقال:

- إنني مسرور بمجيئكما.. إننا لا نود أن نخلق مشكلات بسبب الكلاب.

فرد سمرز قائلاً:

- لم تكن هناك مشكلات بمعنى الكلمة.

- سوف أتولى وقف العمل بالقاعدة الخاصة بالكلاب بموافقة كل فرد هنا، إلى أن نستطيع أن نعقد اجتماعاً آخر في أي مكان آخر يصل إليه الركب. هل هذا يكفي؟

أجاب إيفانز:

- إن هذا يكفي، إذا عملت على تعديل القاعدة.

فرد تادلوك، بعد فترة من الصمت:

- إن هذا يتوقف على رأي الركب.. ولكني أعتقد أن هذا يكفي.. ولا يرغب أي فرد في أن ينقسم الركب بسبب مثل هذه الأشياء التافهة. كان الرجال يهزون رؤوسهم أو يصدرون أصواتاً تأييداً لكلمات تادلوك، ثم تحدث ماك بي بصوت مرتفع:

- إن هذا يلائمني.. إنني لا أتقاضى مكافأة عن مثل هذا العمل.

وما كان تادلوك يرغب في قوله، كان سمرز يفكر فيه أيضاً، وهو السماح ببقاء الكلاب بعد ذلك، وكان واضحاً أن مثل هذا الموضوع لن يُبحث مرة أخرى.

وقال تادلوك موجهاً الحديث إلى إيفانز:

- هل انتهيت من تفتيشك؟

- انتهى كل شيء.

- حسنًا، ماذا وراءك؟

- كل شيء على خير ما يرام. ومعني هنا الأرقام ما عدا- حسنًا- عجز الأخ ويذربي.. عفوًا أنت تعرف أن الأخ ويذربي يعاني عجزًا في إمداداته.

وأدار ويذربي وجهه إلى تادلوك، فسأله تادلوك قائلاً:

- هل هذا صحيح يا ويذربي؟

- نعم من الناحية المادية.

- أنت تعرف اللوائح.

- سوف أذهب سواء كنت أملك أو لا أملك، وسواء بكم أو من غيركم.

- لن أكون جافًا معك.

- إن الرب سوف يقدم لي معونته.

فقال هيج- رجل فيرمان:

- حينما يمنحك الرب الغذاء، اطلب لي منه زوجًا جديدًا من السراويل.. هلا فعلت ذلك من أجلي؟

ثم أشار إلى السروال الممزق الذي يرتديه.

فحقص تادلوك حاجبيه، كما لو كان هذا الوقت لا يصلح للمزاح وقال:

- إن وضع ثقتك في الله شيء جميل، ولكن الثقة لن تمنحك حق

المرور مع هذه المجموعة.

وكان صوت تادلوك حادًا كما لو كان قد مل قراءة وسماع الأرقام والتقارير، وأراد أن ينهي كل جدال حول مثل هذه الموضوعات. وكانت عينا ويدربي الباهتتان تناقش عيني تادلوك السوداوين في صمت، ثم قال في النهاية:

- إنني لم أعش حتى عامي الرابع والستين من غير أن أعرف أن الله سوف يمنحني.

وكان الرجال الآخرون يقفون في صمت وهدوء، وظن سمرز أن غالبيتهم يشعرون بالعطف تجاه هذا الواعظ، ولكنه كان يعرف في الوقت نفسه أن جداله كان سخيًا.

وتحدث تادلوك بعد ذلك، كما لو كان يحدث طفلًا يحاول أن يظهر له المنطق، فقال:

- ألا ترى أيها الأخ ويدربي أننا لا نستطيع أن نمحك هذه الفرصة لصالحك وصالحنا معًا.. إنني أؤمن بالله أيضًا، ولكني لا أؤمن بأنه يوافق على التهور واللامبالاة.. إنه يريد من الإنسان أن يساعد نفسه.

فوافق الرجال على ذلك، وبصق بعضهم على الأرض وظلوا يهزون رؤوسهم وينقلون أبصارهم بين ويدربي وتادلوك جيئة وذهابًا. واستمر تادلوك يقول:

- إنني لن أكون قائدًا من أي نوع إذا أذنت لك بالذهاب؛ لأنني أكون بذلك قد دعوتك لمواجهة الصعاب والمشكلات.

وكانت نظرات ويدربي لا تزال ثابتة على وجه تادلوك، وقال وهو
ساهم:

- لقد قال المسيح: «ليكن عندكم قدر من الإيمان».

ولكن تادلوك رد عليه بقوة قائلاً:

- إنها ليست مسألة إيمان، ولكنها مسألة عقل ومنطق.

- إنني أنا الذي سوف أغامر وأواجه الصعاب، ولستم أنتم.

- إننا لا نستطيع أن نأذن لأي رجل بالسفر لنفسه، ولا نستطيع أن

نتركك تموت جوعاً، يجب إذن أن نقتسم مؤننا مهما تكن صغيرة، وإذا
ضعفت أو مرضت، فلن نستطيع أن نهجر.

وكان تادلوك يتحدث ويقف قليلاً تاركاً له الوقت الكافي لكي يقر
رأيه على شيء، ثم استمر يقول:

- يجب أن نعمل على المحافظة على الأخ.

فقال ويدربي:

- سوف أذهب.

- يا أله! ولكن ليس معنا.. إنك لن تستمع إلى العقل، لذلك أجد

نفسي مضطراً إلى القول بأنك لن تأتي معنا. هل فهمت؟

فنظر ويدربي حوله يبحث وسط الوجوه عن مشكلته لعله يهتدي

إلى حل، ولكن ظل تادلوك كان مخيماً على الجميع، وشعر كما لو كان

قد توصل إلى الإجابة، لذلك أحنى رأسه وقال بهدوء:

- إنني أشعر أن الرب يناديني.. سوف أذهب بمفردي.
- إننا لا نستطيع أن نمنعك من فعل ذلك، ولكن يجب أن تفهم أننا لا نتحمل أي مسؤولية.
- وصاح عصفور الليل القابع وسط ظلال الأشجار.
- وسمع سمرز نفسه وهو يصيح:
- انتظر يا تادلوك.. سوف أصبحه معي.
- ماذا تعني؟
- سوف أرعى مصالحه.. ولا تهتموا بشأنه.
- ونظر تادلوك إلى إيفانز قائلاً:
- إنك مفتش هذا القسم، هل يستطيع سمرز أن يكفي اثنين؟
- إذا قال ديك إنه سوف يتولاه ويأخذه معه، فإنه سوف يفعل ذلك، ولا شأن لأي فرد آخر بالتدخل.
- إن هذا ليس هو الموضوع.
- فقاطع سمرز الحديث قائلاً:
- قلت إنني سوف أتولى أمره. ألا يكفي ذلك؟
- فقال فيرمان:
- إن هذا يكفي بالنسبة لي.
- وتحول ويذربي إلى سمرز وقد زال عنه القلق، كما لو كان قد رأى يدي الله ممدودتين لإنقاذه، وقال:

- بارك الله فيك أيها الأخ سمرز، لقد قلت إن الله سوف يمدني
بالعون.

وهمهم هيج قائلاً:

- وأين هو السروال؟

وكان سمرز يتعجب لنفسه بعد ذلك، حينما جلس عند عائلة
إيفانز.. يساند واعظاً! واعظاً كان يظن أن الرب كان رجلاً كبيراً بلحية
كبيرة يمتطي أقرب السحب، وممسكاً بالصاعقة في يد وبالرحمة في
اليد الأخرى. وقال بصوت مرتفع:

- لا تخبرني بما سوف يفعله الناس.



الفصل السابع

كانت العلامات المميزة للرحلة هي دفع وجذب وشد وإدارة العجلات، وأكل الأتربة والأوحال.. عليها اللعنة، والسباحة في نهر من العرق، والتجمد من البرد في الليل، والعمل تحت الشمس، والاستمرار في التحرك، ومراقبة المخزون من الإمدادات، وتثبيت العربات، وتفريغ الحمولات وإعادة الحمولات، والنوم كالموتى، في حين كانت العجلات تدور من غير توقف إلى فوق وإلى أسفل.. ادفع، اجذب، شد، وأدر العجلات.. لعنة الله على البق والحشرات، ولعنة الله على المسافة، وعلى مجاري المياه العميقة والأشجار.. فلنستمر في المسير.. مرحباً بأوريجون.

وفي الليل يغط الجميع في نومهم، ومن بينهم من يشعر بالدفء مع زوجته، ولكنهم لا يهتمون بذلك وإن كانوا يعرفونه، وإنما يهتمون بما يشعرون به من كراهية، والعضلات المفتولة تذوب.. دع عقلك يتوقف.. دع النساء يحضرن مثل الفتاة ميرسي ماك بي.. دع النوم يطغى على الجميع حتى يستريحوا من عناء التعب الذي حل بهم.

لم يتحدث كيرتس ماك إلى أرماندا مثلما يتحدث أي رجل إلى زوجته، أو يشجعها على أن تتحدث إليه.. لم يفعل ذلك في هذه الأيام، ولم يكن هناك أي أمل في أن يفعل ذلك في المستقبل. إنهم يقولون ما يجب أن يقولوه.. وهي تقوم في بعض الأحيان بتنفيذ بعض الأشياء حتى ولو كانت منغمسة في الأتربة والأوحال، وكذلك لو كان الطقس غير مناسب، وكان يجيئها دائماً إجابات مقتضبة ليرى الألم في وجهها وليلتذ بذلك على طول الطريق.

وكان يقول لنفسه إن هذا هو كل شيء ما دامت القافلة تسير في طريقها إلى «ليتل بلو»، وما دام التوتر يكمن في داخل نفسه.. إنه لن يندب حظه بعد الآن مرة أخرى.. دعها تنقذ نفسها، أو لتذهب إلى الجحيم، إنه لن يستجدي كما سبق أن استجداها في تلك الليلة التي عبروا فيها «الكوز».

كان الربيع يبدو في نسيمات الهواء، وكانت أصوات طيور الليل تتردد خارج الخيمة، في حين تلعب النسيمات بقماش الخيمة.. وكان يرغب فيها في هذه الليلة مثلما يرغب فيها مرات كثيرة من قبل، ولكنها قالت له:

- لا يا كيرتس.. أرجوك.

- لقد مضت مدة طويلة.

ثم تدفع يده التي تجوس في جسدها وتقول له:

- أرجوك.

- لِمَ لا؟
- إنني خائفة.
- خائفة؟
- نعم.
- من ماذا؟
- أنت تعرف.
- إنك لم تصلي إلى هذه المرحلة حتى الآن.
- ربما أصل إليها، ثم نحتاج إلى طبيب أو أي شيء آخر.
- إنك تستخدمين ذلك دائماً كعذر.
- ولكنها لم تجب على ذلك.
- إنك لم ترغبي أبداً في ذلك.
- أعرف أنك تعتقد هذا.
- هل تعرفين أن مثل هذا المسلك لا يليق بأي سيدة.. هل السيدة المحترمة لا ترغب في ذلك؟
- كيرتس!
- عودي إلى موطنك، إنك لا ترغبين في ذلك أبداً، ولن يستمر الأمر معي على هذا الحال.
- ليس هذا بصحيح.
- إنها أقرب إلى الحقيقة على أي حال.

ثم صمت لفترة طويلة، ثم اندفع والرغبة المفاجئة تبدو في كلماته:

- أرجوكِ يا أرماندا، إنني جد آسف.. الآن من فضلك.

- لا أستطيع.

- لقد كنت صبورًا.. ولكنني لا أستطيع أن أستمع على هذا الحال

طويلاً.. أرجوكِ.

- لا أستطيع.. إنني خائفة.

ثم بدت نهاية الحديث في كلامه حين قال:

- هل تعنين أن هذا الوضع ليس دائماً، وإنما سيكون في خلال فترة

سفرنا فقط؟

- لا أعرف.

- يا إلهي! إنكِ سوف تهجرين نصف الزوجة التي كانت عزيزة

عندي، أليس كذلك؟

فأجابت بصوت ضئيل:

- لا أستطيع ذلك يا كيرتس.

- أنتِ تعنين أنكِ لا ترغبين.

فأخذت تبكي، وكان النسيج يهزها، في حين كان هو يرغب فيها

أكثر من أي فترة مضت، كان يريد أن يضع خديها الدافئتين المبتلتين

على خديه، وأن يبلل شفثيه بشفتيها، وأن يشعر بجسدها يخضع لجسده،

ولكنها لم تكن ترغب في ذلك.

ولو كان هناك رجل آخر لأجبرها وأخضعها لسلطانه، وأهمل موافقتها أو اعتراضها.. إن الزوجة التي ليست عندها رغبة أمامها واجب آخر.. ولكنه لم يفعل أي شيء، ليس كيرتس ماك هو الذي يفعل ذلك، وقد جاء من مدينة «بافالو» من أعمال نيويورك حيث تربى على النعومة والرقّة. كان يقول في نفسه إن هناك شيئاً يقف حائلاً بيني وبينها لا أفهمه! وأدى هذا القول إلى زيادة جنونه.. لماذا وضع الله الجمال في وجه المرأة، ومنحها الصدر الجميل والفخذين الممتلئتين الجذابتين، ثم تمنع دفئها؟

وقال:

- إذا كنت زوجة صالحة حقاً لبقيت في بافالو.

ولكنها لم ترد عليه، أو تحاول الرد.

- لماذا تظنين أنني قد تركت عملي محاولاً البدء من جديد في الغرب؟

فبقيت صامتة، ولكنه استمر يقول:

- لكي أبتعد عن إثارة الأعصاب، وإبعاد الأشياء عن ذهني وتفكيري.

- إنك تبالغ كثيراً.

- كان هذا هو لب الموضوع وأعماقه.

وكانت إجابتها أشبه بالصراخ والبكاء، ولكنه استمر يقول:

- إن ما تريدينه زوجاً لك هو راهب ملعون.

فبكت وهي تقول:

- لماذا تقول هذه الأشياء؟ نحن نحب بعضنا بعضًا، وأماننا الكثير الذي يجب أن نعيش من أجله.

فأجابها، وقد كره نفسه ليس بسبب الكذبة التي ذكرها، وإنما بسبب الضعف الذي اعتراه وجعله يكذب:

- لن أعاود سؤالك مرة أخرى.

لقد قال هذا الشيء نفسه من قبل، ثم يعود إليه، فينسى توبته، وينسى غضبه، وبخاصة حينما تحدثه عن الحب وتلاطفه على السرير حتى ينام. لقد طلب منها الصفح ووجه اللوم إلى نفسه بسبب مثل هذه الليالي.. كيرتس ماك الشاب الناعم، الضعيف، المتأرجح، والعاطفي، ولكن هل هناك خطأ مع العاطفة؟ إن مكنم الخطأ فيه هو أنه لا يستطيع أن يكبح جماح نفسه، وكان خفيف الروح، يعتمد على الهبة أو الرفض لأي معروف، لذلك قال لها:

- إنك تدفعيني إلى النساء الأخريات.

- إنني لا أعني ذلك يا كيرتس.

- إنني لا أستطيع أن أنظر إليهن، وأظل أفكر، سوف أجد امرأة أخرى أيضًا.

- هل هذا ما تريده؟

- ماذا تهتمين من أجله؟ إنك لا ترغبين في...

- هل هذا ما تريده؟

- أريد.. يا للسماء.. كان يجب أن تتزوجي قائد سفينة.

وكان يرقد فوق السرير ويسمع نحيبها ويحس ببهجة قوية باهتزاز جسدها. وصمم بينه وبين نفسه على أن يجد له امرأة أخرى.. كان يريد أن يكون مخلصًا، ولكنها جعلت ذلك مستحيلًا، لذلك سوف يلقي جميع القيود جانبًا، وسوف يخرج من هدوئه ووقاره. لقد كان الناس يميلون إلى أبويه وهما يحاضرائه عن ارتكاب الذنوب وعن الخطيئة، إن بعض الناس مثل الوعاظ، كالأخ ويدربي، يعطون ضد الشر والخطيئة، ويحددون العقاب بعدد معين من الجلدات في حالة الزنا، لذلك يخشى كل شخص من الافتضاح ومن العقاب، ولكن لنفرض أن هناك رجلًا ليس عنده ما يمنعه من ارتكاب الزنا، فما الوضع، مثل حال ماك؟

سوف يجد لنفسه امرأة.. سوف يتخلى عن الأخلاق والمبادئ الخلقية التي تأصلت في ذاته.

لقد أقسم أمام نفسه على أن يقاوم المبادئ التي قد تنحيه عن هذا التفكير، وأن يقتل في نفسه الضمير الذي يحاول أن يكبت فيه روح الرجولة.

وكان طائر الليل لا يزال يصيح في الخارج، كما كانت النسمات تداعب أطراف الخيمة. وفي هذه الأثناء سمع صهيل أحد الجياد، وخوار إحدى الأبقار، واستطاعت أذناه أن تلتقط صوت اندفاع وهمهمة «الكوز».

كانوا قط استطاعوا عبور النهر في ذلك اليوم والتحرك إلى جزء مكشوف من البراري يقع على طول ضفة الغدير، وأخذ يسترجع في

ذهنه ما مر به من مناظر.. كانوا قد صمموا على صنع عوامة؛ لأن معظم أجزاء الركب كانت ضعيفة، كما أخبرهم ديك سمرز بالقيام بذلك وهو يقودهم عبر النهر. لقد شاهد ديك سمرز في ذلك الوقت يركب بجسارة عبر النهر ليكتشف ممراً فيه، وشاهد العربات تندفع وسط المياه، والثيران تشق عباب هذه المياه، وكانت العربات الخفيفة، مثل عربته، سهلة الحركة في أثناء العبور، وقد استمتع عدد من هنود «الكوز» إلى هذه الحركة فهرعوا إلى الضفة مثل الماعز ليشاهدوا ما يدور في المياه، وهم يضعون العباءات والريش، والزينة، والملابس الشاذة والألوان. وتم نقل النساء والأطفال، والكثير من المؤن فوق العوامة بعد أن تم رفع جميع هذه الأشياء وهؤلاء الأشخاص من العربات ليخف وزنها وتخف حركتها تبعاً لذلك، وقد عاون الهنود في هذه العملية وساهموا في إتمام خوض المياه بنجاح، لذلك قدمت لهم هدايا من الخرز والطباق وبعض الملابس القديمة.

وأخذ ماك الآن - كما سبق - ينظر إلى النساء ويضع احتمال الفوز بها - جوديث فيرمان - إنها فتاة طويلة شاحبة، ولكنها جميلة ذات كبرياء وردفين عريضين، ثم مسز باتش الصغيرة القادمة من نيو إنجلند التي قد تخفي شيئاً من حقيقتها، ومسز تادلوك الهادئة التي قد يصبح من الممكن جذبها بطريقة هادئة أيضاً، وربیکا إيفانز السيدة الاجتماعية ذات النكتة الحاضرة التي يشبه شكلها شكل حزمة من البرسيم، ومسز بروور التي أنجبت عشر أطفال حتى الآن ويبدو عليها ذلك. وأبقى أفضلهن جميعاً إلى النهاية، ثم ترك ميرسي ماك بي تأني أمام ناظره،

إن شعرها أسود فاحم، وبشرتها بيضاء وثدييها صغيران وفمها دقيق وعينيها مليئتان بالفصاحة، وهي تمتاز بهذا الحزن الذي يشبه الجوع، أو الجوع الذي يشبه الحزن، إنها لا تعرف شيئاً عن أي شيء، ولكن من الممكن تعليمها.

ولم يستطع أن ينظر إلى أرماندا كما قد ينظر إليها أي رجل آخر.. إنه يستطيع أن يصفها، فهو يستطيع أن يقول إنها مقبولة، متوسطة الطول، وأن جسمها بديع التكوين، ووجهها بيضاوي وعينيها واسعتان وتميلان إلى الاخضرار.. ولكنه لم يستطع أن يراها كما يراها أي رجل آخر. هل ينظر إليها أي رجل نظرة مختلفة إذا عرف أنها باردة؟

وهل الأخريات باردات؟ وهل يواجه الرجال الآخرون مثل هذه الصعوبات ويصعدون إلى أسرتهم وهم يشعرون بالجوع والمرارة؟ وهل النساء -يشبهن مسز بروور- مطيعات وخاضعات للالتزاماتهن؟ «لا تشته امرأة غيرك» ولكنه ترك فكرة امتلاك إحداهن تراوده وتسيطر عليه.. أن يمتلك واحدة منهن ممن ترغب بشغف وحدة ورقة ولطف في الإيواء سرّاً إلى سرير معه، أو على طول الضفة الخضراء التي تكسوها طبقة من العشب الأخضر الكثيف.. برقة ولطف.. هذه هي الكلمة، ربما هي الكلمة التي يرغب فيها الرجل ولا يرغب في أي شيء آخر.. إنها الرقة واللطف.. إن «أرماندا» لم تكن رقيقة أو لطيفة أبداً، ولم تتصف بهذه الصفة أبداً.. أنت تعرف أنها تحبك بسبب أشياء لا يمكن الكشف عنها، وبسبب بعض الأعمال نصف الكاملة، وبسبب الشعور الذي أبديته بطريقة غير مباشرة، وبسبب الرعاية التي أبديتها من غير تحفظ..

لعن الله كل ذلك؛ لأنه لا يكفي.

وأبعد تفكيره عنها، وعاد مرة أخرى إلى النهر ليراقب كيفية العبور..
لقد عبرت النساء والعربات والمؤن، أما الماشية وبقية أنواع المخزونات
فقد توقفت عند بداية الضفة، وكان يقودها ديك سمرز ويدفعها الخيالة
من البيض والحرمر، واندفع القائد إلى المياه، وتبعه الآخرون، أما الآن
فإنهم يسبحون في خط يسير مع اتجاه تيار المياه.

كان هذا العبور أسهل عبور من نوعه؛ إذ لم يفقد أي حيوان أو
برميل أو صندوق أو جوال، باستثناء بعض الأشياء الصغيرة التي بدأ
«الكوز» في التقاطها.. كان من النوع الذي يجعل الإنسان ينتعش بالأمل
والفرح والرغبة في زوجته.

وزأر ماك في سريريه وتحرك إلى نهايته، ثم سحب الغطاء من فوق
زوجته، وقال لنفسه وهو يقفز من سريريه ويرتدي سرواله بعد أن عجز
عن النوم في تلك الليلة:

- لا فائدة من الرشع والبكاء.

وأخذ يجول حول الخيام التي تقع داخل الحلقة التي صنعتها
العربات. وكان يشعر بالخيول ولا يراها بسبب صهيلها. وكان المعسكر
ساكنًا ما عدا بعض الهمهمات الخافتة التي كانت تصدر بين حين وحين.
أو التنفس البطيء الصعب لرجل كان يستلقي على ظهره. أو شخير
البعض، أو صياح طفل يحلم حلمًا مزعجًا. وكانت النيران قد انطفأت،
في حين كانت النجوم تشع ضوءها الكبير على الفضاء وتضيء قمم
العربات التي كان يلغها الظلام. وفجأة سمع صوت عواء ذئب في مكان

ما، أو ربما كان صوتًا صادرًا من أحد الهنود.. لقد سمع قبل ذلك بعض الهنود يقلدون الذئب، أو يرتدون فراء الذئب، وهم يقومون بسرقة بعض المخازن.. لذلك سحب بندقيته وأمسك بها في يده.

وقال أحد الأشخاص:

- أهلاً.. اصمت قليلاً.

وعرف فيه سمرز نفسه من شبحة الأبيض ومن السروال الجلدي الذي يرتديه، وكان يجلس في بقعة مكشوفة يستطيع أن يقوم بالمراقبة منها:

- ألم تنم بعد؟

- لقد نمت بما فيه الكفاية.. ما يكفيني بقية حياتي على ما أعتقد.

- لقد شاهدت الزراع وهم يستيقظون مبكرين أو متأخرين.

- لا شيء يعادل اتباع بغل لإراحة العقل.

وقد تصور ماك أن سمرز لم ينل ما يكفيه من الراحة هذه الليلة.

وفي حين كان يتحدث، ظل يستمع ويراقب ما حوله كأن هذه المحادثة لم تؤثر عليه إلا من السطح فقط.

وسأل ماك:

- هل تتوقع مشكلات؟

- ربما لا.. هؤلاء «الكوز» الفقراء.. إنهم جائعون ومعرضون

للبرد، وهم يقومون بسرقة أشياء تافهة بالنسبة لأي هندي.

فقال ماك:

- لعنة الله على الضوضاء.

وشعر بدهشة بسيطة حينما أجابه سمرز.

- إنهم يشقون طريقهم كما نشق نحن طريقنا، وأعتقد أننا نشكل
ضوضاء كبرى بالنسبة لهم.

فأجابه ماك وهو يستخدم لهجة تأكيدية:

- لا أكاد أرى ذلك.. ويجب عليهم أن يتعلموا.

وانتظر ماك، ولكن إجابة سمرز كانت مقتضبة:

- أعتقد ذلك.

- سوف أذهب لألقي نظرة على الماشية.

كانت الأعشاب جديدة وناعمة تحت وطأة القدم لدرجة أنه
يستطيع أن يسير بهدوء تام مثلما يسير الهندي نفسه. كان يجب أن تكون
الماشية في اتجاه الشمال بعيدًا عن النهر، لذلك اتجه مسترشدًا بالقطب
الشمالي، وبعد لحظة شاهد حركة فنادى: من هناك؟ واتجه إلى حيث
هذه الحركة ليجد الغلام براوني إيفانز الذي كان قد استأجره ليساعده
في مراقبة الماشية. وقال له:

- هل كل شيء على ما يرام؟

- إن الماشية حيوانات هادئة.

وأخذ ماك يحرق النظر بعيدًا في الظلام، فشاهد الماشية واقفة على

المنحدرات وتساءل قائلاً:

- إنني في دهشة.. لماذا تسلك هذا المسلك؟
- إنني أشتم رائحة الهنود. على ما أعتقد.
- هل هناك أي علامة تدل على الهنود؟
- ليس بعد، إلى أن يقلدوا الذئاب.
- إن الوقت قد حان لتغيير الرقابة، أليس كذلك؟
- لا يزال هناك بعض الوقت.
- من بالخارج؟
- هولدريدج، وماك بي، وباتش واقفون مع الماشية. إن سمرز يريد حراسة قوية هذه الليلة.
- هذا هو عين الصواب.
- يقول سمرز إن الهنود يسرقون وهم في صورة الذئاب.
- يجب أن تنتبه انتباهًا تامًا.
- لقد قال إنه شاهدهم. ولكن ربما يقوم الكوز بذلك.. إذ تخلو أمعاؤهم من الغذاء الآن.
- استمر أنت في المراقبة كما كنت.
- بالتأكيد.. يقول ديك إن أفضل طريقة لاكتشاف «الكوز» هو الرقابة الشديدة والسليمة. هذه هي ديلاوير.
- ديلاوير؟

- ولكن يجب أن تُبقي عينيك متفتحتين «للبونيز» أنفسهم.

- هل يعرف سمرز كل شيء؟

فقال الغلام:

- لماذا؟ أعتقد أنه لا يعرف شيئاً، ولكنه يعرف مخازن الأشياء.

كان ماك يميل إلى سمرز وإلى براوني أيضاً. ولكنه كان حذرًا من أن يقول:

- إنك قد تعتقد من الحديث الذي دار بيننا أنه لا يوجد أي إنسان له شعور مثل سمرز.

ولم يرد براوني. ولكنه ظل ساكنًا، وكان ماك يعرف أنه قد استاء من ذلك كما كان يرغب في ذلك. وفي هذه اللحظة سقط أحد الشهب، وتساءل براوني وهو فرح:

- هل تعتقد أن هذا الشهاب قد سقط في أوريجون يا مستر ماك؟
وقبل أن يستطيع ماك الإجابة، سمع صوت طلقة بندقية في الطرف الآخر البعيد من المرعى، وأخذ صوتها يتلاشى شيئًا فشيئًا حتى ساد السكون. ورفع براوني بندقيته وهو يصيح:

- هنود... هنود.

- أنصت.

وما سمعه ماك كان صرخات تأتي من المعسكر عبر الظلام.. وسمع اصطدام سلاسل الثيران وأصوات الجري والكر والفر.

وجاء صوت طلقة أخرى وسط الظلام لتغطي على الأصوات جميعها. وكانت الماشية قد بدأت تقفز على أقدامها.. فاستطاع ماك أن يرى بعضها وهي تتصارع وسط ظلام الليل، في حين كان تنفسها العميق وأصواتها تغطي على السكون والهدوء، وبدأت الماشية الواقفة هناك في الحافة الأخرى تندفع.

وفي هذه الأثناء ارتفع صوت ليجي إيفانز صائحًا:

- براوني؟ أين أنت يا براوني؟

- إني هنا يا والدي.

فاندفع إيفانز وخلفه بعض الرجال. ثم صدرت طلقة أخرى جديدة. وسمع ماك صوت البندقية ثم أصوات الحوافر.. وكانت رقعة الظلام تتزايد وتنتشر.

وصاح البعض قائلاً:

- لعنة الله عليهم إنهم يذهبون.

- الخيل. إلى الخيل.

- لا. لا يمكن قيادتها.

وعرف ماك فيه صوت سمرز.

- أوقف الخيل.. الحق بها. لقد أخبرتك.

وبدأ الطابور الطويل من الحيوانات الهاربة يختفي ويتلاشى.

- لا. انتظر.

ووقف سمرز خلف ماك. وقال:

- هنود... هل رأيت هنودًا؟

فأجاب ماك:

- كلا... ثم انبرى براوني يقول:

- لقد كانت الماشية في قلق.

ولم يستطع ماك أن يرى الماشية الآن، فقد كانت أصوات أظلافها
تبتعد كثيرًا لدرجة أنها أصبحت كدقات الطبل البعيدة. ثم سمع أصوات
الحراس الآخرين فجأة. فسألهم سمرز قائلاً:

- هل هم هنود؟

فأجاب ماك بي.

- أجل.

- هل أنت متأكد؟

فأجاب باتش:

- كلا.

ثم أضاف هولدريدج:

- لقد شاهدت أحدهم.. كان هنديًا أو ذئبًا.

فصاح تادلوك:

- امطوا خيولكم.

- قفوا.

- ماذا دهاك يا سمرز؟ هل تريد أن تعرقل وتعطل اجتماعاً؟
- ولم يجبه سمرز. ولكن إيفانز تولى ذلك قائلاً:
- اترك الأمر لديك.
- إن سمرز ليس القائد هنا. امتطوا جيادكم.
- ثم تحدث سمرز بصوت كان ماك يميل إليه ولكنه يقاومه.
- لا تنسوا أنفسكم.
- إنني لا أنسى هذه الماشية.
- وتحدث باتش بلهجة معتدلة قائلاً:
- إنك تملك معظمها.
- لعنة الله عليها. ما صلة ذلك بها؟ هل تريد أن تفقد ماشيتك؟
- وكان الرجال قد تجمعوا، وحاول نحو ستة أفراد منهم أن يتحدثوا، ولكن كلمات سمرز كانت أقوى منها.
- إن القواعد واللوائح تنص على أنني أنا الذي أتولى دعوة مجلس الحرب.
- فتحول إليه تادلوك، وقال:
- ادعه إذن.
- وتحدث ماك من غير أقل تفكير، وعرف بعد أنه قد خرج عن طوره وأبدى رغبة عنيفة للحرب.

- فلتسقط اللوائح، إذا لم تكن تعمل على تنفيذ أي عمل.
فتقدم سمرز نحوه وقال بهدوء لدرجة جعلت الكل يصغي إليه:
- ماك، من الممكن أن يكون «البونيز» هم الذين قاموا بذلك، ثم
إنني لا أرغب في إرسال شباب يافع في الليل حتى ولو كان لمواجهة
«الكوز».

ثم صمت لحظة كما لو كان يرغب في تثبيت كلماته في
الأعماق، واستمر بعد ذلك يقول:

- سوف تستطيعون استعادة المزيد من الماشية أكثر مما
تستطيعون الآن حينما يتضح النهار.

واستمر سمرز يدور بوجهه للتحديث إلى الجميع وهو يقول:
- سوف أكوّن مجلسًا للحرب. ولكن عليكم جميعًا أن تراقبوا
العربات.

ولم يقل أي شيء أكثر من ذلك، ثم اختفى مثل الظلال. وبعد
لحظة شاهده ماك يشبه الشبح الذي يتحرك في الظلام، ثم يفقد أثره
في الفراغ والظلام القاتم.

وبعد دقيقة واحدة سمع ماك الحديث يدور، ولكنه لم يستطع
أن ينتظر لسمع القرار.. لذلك قرر أن يكون عضوًا محاربًا.. الشاب
اليافع المحارب، ثم قفز فوق جواده مثل المسعور، ربما ليوافقه
الهنود ويقاثلهم، وبذلك يستهلك قواه في شيء آخر غير المرأة..
وقد وجد هذا الرجل اللذة والسرور في أن يكون مجنونًا - ولكنه

لم يستطع أبداً أن يشرح لأرماندا كيف كان ذلك.. وإذا كان قد فعل ذلك، فإنه لن يؤدي إلى تغيير الوضع.. ليس مع أرماندا.

خرجت بعض النساء للالتقاء به وتحذيره وإلقاء الأسئلة عليه، وأمسكن باللجام ودرن حوله لمواجهته وإثناؤه عن رأيه، ولكنه رد قائلاً:

- إن كل شيء على ما يرام.. لقد قلت إن كل شيء على ما يرام.
وكانت هناك أخريات ينتظرن لمعرفة ما صمم عليه، ولكنه استمر يقول:

- إن كل شيء على ما يرام.
واستمر في طريقه ينظر إليهن، ويكرههن لأنهن جميعاً نساء.
وكانت مسز تورلي تصيح:

- لقد كنت أعرف أننا يجب ألا نأتي.. لقد كنت أعرف ذلك!
وقفز ماك بجواده فوق مقدمة إحدى العربات وانطلق في طريقه.
كانت النيران قد تزايدت وبدأت تتراقص في أعين الخيل، التي كانت تقف رافعة الرأس غير مستقرة في وضعها نتيجة للشعور بالقلق.

وكان ماك قد عاد واقترب من عربته ليأخذ سرجه على جواده،
وحينما دار بجواده شاهد أرماندا التي قالت:

- ماذا تنوي أن تفعل يا كيرتس؟

- أتصيد بعض الهنود.

فبدأ وجهها شاحباً وبدأ صوتها يتهدج ويبدو فيه الأسف وقالت:

- بمفردك؟

وحينما لم تجده يجاوبها استمرت تقول:

- إنك لا تعرف الهنود يا كيرتس.

فرد عليها، وهو يضع قدمه في المهماز:

- إنني سأعرفهم حينما أرى واحداً.

- لن تذهب.

- لن أذهب. آه.

- أرجوك.

أرجوك.. أرجوك.. من أجل رجائها سوف تمتلك ما كان يمتلكه.

وأدار جواده وانطلق. وسمعها تقول:

- أرجوك أن تكون حذراً، وأن ترعى نفسك.

وتحقق بعد ذلك أنه قام بعمله الجديد لكي يدخل الألم والحزن على نفسها. ولم يكن يهتم بذلك.

وتعثر الجواد بمجرد أن لكزه في جانبه في الظلام، ثم نهض الجواد وسار على غير هدى حتى وصل إلى النهر، فخفض من رأسه، وظل يشرب ثم رفع رأسه مرة أخرى وهزه بقوة وصهل مرتين.

وكان الظلام هنا كثيفًا بسبب كثرة الأشجار التي كان يشعر بضرباتها في كتفيه ورأسه.. وكان النهر نفسه يرقد في بحر شامل من الظلام مثل الظلام المنتشر على بُعد كبير.. أما في السماء فقد كان هناك نجم براق يشع ضوءًا متحركًا، فنظر إلى أعلى ليرى النجم نفسه في السماء، وأخذت كلمات الإنجيل تدور في رأسه: حينما شاهدوا النجم، ابتهجوا، وزادت بهجتهم وسرورهم قوة... واستطاع أن يتذكر هذه الكلمات التي كان يقرأها وهو طفل. وفعلت هذه الكلمات به فعل السحر، فدفعته إلى التحرك على هدى كلمات الكنيسة التي تركت هذه الآثار فيه.

وجذب جواده بعيدًا عن المياه، وسار به وسط الأشجار في الاتجاه الذي يتذكر أن الماشية قد اتجهت إليه.

ولم يحدث أي شيء، وأضاءت السماء ضوءًا خافتًا نتيجة لسقوط أحد الشهب، فعوت الذئاب، وتعرثر الجواد، وبدأ يصهل بشدة وخوف.. دعه يصهل.. دعه يعمل.. دعه ينشط قلبه ورثيته.. انهض.. سوف تحتاج أرماندا، إنها تعتقد في ضرورة ملاطفة الحيوان ومعاملتها بالطيبة.. انهض.

وكان بعيدًا عن مركز المجموعة عندما سمع طلقة بندقية خافتة آتية من مكان المعسكر فجذب جواده ليقف، ثم قفز عليه وبدأ يفكر في الهنود قبل أن يجمع شتات تفكيره، ويفكر في المعسكر، وفي أرماندا التي تقف من غير حمايته. وخطر له أن الساعة قد قاربت

الرابعة، وأن الحراس قد قاموا بإشعال النيران تمهيداً لرحلة اليوم،
فلكز جواده لكي يقفز.

لم يحدث أي شيء.. واستمر راكباً مسافة ميل آخر، ثم اتجه
مرة أخرى يعبر الطريق إلى المعسكر.. وجاءت ومضة خاطفة في
السماء أضاءت معالم الطريق أمامه، فرأى نفسه يقف على صخرة
عالية وسط النهر نفسه.. وشعر أن مكان المعسكر وراءه، لذلك بدأ
من جديد.

وكان قريباً جداً لدرجة أنه استطاع أن يسمع الأصداء الرفيعة
في وقت سوف ينبلج فيه الفجر.. ورأى الهندي في صورة الشجرة
فظنه في بداية الأمر زنجياً أو ربما حية.. فاقترب منه وشاهد رأساً
عارياً، وهندياً يلتف ببطانية حول الكتفين يقف لمراقبة المعسكر من
المرتفع البسيط.. كان يراقب فقط.

فأوقف ماك جواده. ولم يكن الهندي يمتلك بندقية أو قوساً،
وقد يكون معه قوس ورماح يخفيها في مكان ما. ولكن ماك لم
يشاهد شيئاً.. قد تكون في طيات البطانية التي يلتف فيها.

ونزل ماك من فوق جواده وربطه، ثم سار ببطء وهدوء، وبدأ
يشعر بالدماء الحارة تدفقه فتنهّد ببطء، وابتلع لعابه.

وكان يستطيع أن يحكم تصويبه من هذا المكان: كل ما عليه أن
يرفع البندقية ويصوبها إلى الهدف ثم يطلقها، ولا يمكن أن يخيب
تصويبه أبداً.. ونظر حوله ليرى ما إذا كان هناك هنود آخرون..

ولكنه لم ير شيئاً.. وأخذ يسترق السمع، ولكنه لم يسمع شيئاً.. بل كان يسمع أصوات النساء وهن يطهين للإفطار من بعيد، وأصوات الرجال وهم يتجمعون.

وكانت الدماء قد بدأت تندفع حارة في جسده ورثيته للعمل السريع، وكان يعرف أنه لن يخيب في إطلاقه النيران.. كانت البندقية مشحونة، وكانت العيون مركزة. وكان الإصبع على الزناد، ولم يكن هناك سوى الضغط وينتهي كل شيء.

وتحول الهندي والتفت حوله.. كان وجهه قوياً ومتبهاً. وكانت عيناه تجريان نحو منطقته، وشاهدهما ماك وهما تقتربان منه ثم تتركزان عليه بصورة تمتلئ بالفزع والرعب بمجرد النظرة الأولى.. فصاح.. وصاحت العينان والوجه معاً كأنما ليقولا: «أرجوك.. أرجوك» من غير أن يستطيع النطق بهاتين الكلمتين.

وسقط الهندي في اللحظة التي سمع فيها صوت البندقية.. لم يصرخ أو يهرب، وإنما ظل معلقاً لفترة صغيرة ووجهه الشاحب يرنو إليه ثم سقط على الأرض.

أخذ ماك يعدو.. كان قد تحقق من أن الهندي قد مات وسقط تغطيه البطانية ووجهه يتطلع إلى السماء. وفمه مفتوح - كان رجلاً نحيفاً به الكثير من الندبات وعلامات الجوع.. «الكوز» الذي طلب الرحمة، وجاءه الرد، ولا يستطيع أن يسأل العفو والرحمة مرة أخرى أو أن يتنقل.

وانتظر ماك فترة دقيقة طويلة؛ شعر بأن المعسكر قد سكت، ثم بدأت الضوضاء تسوده بعد أن استمعت إلى طلقة بندقيته، وشعر ماك بالإنهاك والتعب يحل عليه وهو يراقب، وشعر بالوحدة تزحف إليه.. وشعر بأنه يود أن يتحدث إلى أرماندا من غير أي مبرر.

* * *

دفع وشد وجذب، وإدارة العجلات، وأكل الأتربة والأوحال.. عليها اللعنة، والسباحة في نهر من العرق، والتجمد من البرد في الليل، والعمل تحت الشمس، والاستمرار في التحرك.

* * *

الفصل الثامن

كان «الكوز» خلفهم، وكان كل من «الوكاروسا» و«الكوز» والألوان الثقيلة والخفيفة - و«البيج بلو» يوجدون في الذاكرة فقط كلما توغل الركب في أسفل التلال، وفي خلال الأشجار - كل منهم قد أدى الكثير من بذل الجهود والعرق والوقت، وفقد الأشياء.

وبعد أن يكونوا قد مروا بمرحلة معينة بنجاح، تظل هذه المرحلة قائمة في الذاكرة.. لقد كانوا يضعون علاماتهم في أماكن لا توجد بها آثار علامات، لذلك كانت ذكراهم تظل باقية بعد أن تكون هذه المجموعة قد استطاعت أن تجد لها مستقرًا جديدًا.. وقد سمعت ريكا إيفانز أصوات الأطفال وهم يبكون، في حين كانت لفحات النسيم الرطب تضرب وجهها، وشممت رائحة الدخان والقهوة، وشاهدت العربات تقف بيضاء في الشمس المتأخرة.

استطاعت في هذه اللحظة أن تنتهز الفرصة وتتحدث إلى ليجي وبراوني، بعد أن تم سحب العربات في مجموعات وربطها بعضها ببعض بواسطة سلاسل الثيران، واستطاع هؤلاء أن يجتمعوا معًا ليتحدثوا عن بيوتهم الجديدة، أو ربما عن بيتهم القديم. وسوف يدهش ليجي حول كيفية سريان الأوضاع في ميسوري.

وسوف تدهش ريكا أيضاً، ليس بشأن المحصول أو الماشية، وإنما بشأن البئر التي تنتج مياهها عذبة أكثر عذوبة من مياه النهر نفسه.. كانت تفكر في أختها الموجودة في نيو مدريد، وأختها الصغيرة التي لم تستطع أن تصورها في ذهنها سوى الصورة التي رسمت لها وهي ما زالت صغيرة.. كانت ترتدي دائماً الملابس الجديدة المصنوعة من أجود الأقمشة التي قامت الوالدة بإعدادها في عيد ميلادها السادس، وقامت ريكا بإهدائها شريطاً لعقص شعرها به.

واستمرت أماكن إقامة المعسكر ليلة أمس واللييلة السابقة لها كما هي، وشعر الجميع كأنهم في بيوتهم بالفعل، وكان على العربات أن تقطع مسافات أخرى طويلة، كما كان على المجموعات أن تلتقي وتتبادل الحديث في ذكرى الأيام الخوالي الحلوة التي عاشوها في المكان القديم، وروح الصداقة التي سادتهم، ولم يكونوا يعرفون أي شيء عن الأيام التالية، ولكن الذكريات الجميلة جعلتهم يشعرون بالدفع.

وصاحت ريكا «هو» في الثيران، ثم جذبت معطفها القديم حول رقبتها.. كانت تسير بجوار العربة وهي تشعر بالتعب والمرارة.. لم تكن ترغب في أن تركب المخاطر.. كانت تشعر بالقشعريرة وبالآلام فوق جلدها.

وكان ليحي يسبقها ويلتفت إليها بين حين وحين ليتسم ثم ليعود إلى فريقه.. وكان روك يتحرك وراءه ويتبعه، كان هذا هو حاله والكلب معه.. إذ كان يتبع ليحي أو براوني غالبية الوقت كما لو كان يسير وراء قائده. حاولت ريكا أن تطرد عنها الأفكار التي تراودها عن الماضي..

كان رجلها وابنها سعيدين وهذا يكفي.. كانوا يمضون وقتاً طيباً. وهذا ما قاله ديك سمرز أيضاً -من أنه لا توجد هناك مشكلات تقف في طريقهم- ولم تكن هناك مشكلات سوى مشكلة الهندي الذي أطلق عليه ماك الرصاص دون أي سبب، ومسألة «الكوز» الذين حضروا للتحديث بشأن إطلاق النيران، مع تادلوك.. استطاع الرجال أن يعثروا على الماشية ماعدا واحدة منها فقط.. وكان تعليق ديك على ذلك هو أن الحيوان يجفل ويرتعد حين رؤية منظر الهندي.

قامت ربيكا بقيادة العربة الثانية، على الرغم من أن براوني كان يتولى ذلك في بعض الأحيان.. ومن الممكن الثقة في بعض الأحيان بالثيران؛ إذ كان الطريق مفتوحاً، وكانت جياذ سمرز مربوطة في الخلف، وكانت ربيكا تركز نظرها، سواء راكبة أو مترجلة، على زوجها ليجي، وبراوني، وديك سمرز أيضاً، على الرغم من أنه كان يختفي بين الفينة والأخرى للكشف عن الهنود، أو تحديد معالم الطريق، أو الصيد. وكان يملأ المكان نشاطاً.. ويحضر معه بعض البط والحمام، وبعض الطيور الأخرى.. لقد استطاع أن يأتي بصيد ثمين الآن؛ لقد استطاع في الليلة البارحة أن يحضر معه ديكين روميين وشيئاً غريباً أطلق عليه اسم عنزة بريّة، ولكن البعض قال إنها وعل، لقد جعل الأواني تمتلئ، وأوانيهم وأواني ويزربي أيضاً، وكانت تعتقد أنه قد مضى وقت طويل قبل أن يستطيع الأخ ويزربي أن يتناول غذاءً دسماً، لذلك كانت موعظته تتسم هذه المرة بالقوة ضد السفر في يوم السبت، ولكنهم ظلوا يسيرون في هذا اليوم.

وكان ديك رجلاً طيباً، وكان ليحي زوجها كذلك، وهو أمر بدأ كل أفراد المجموعة في معرفته.

كان ليحي قوي الجسد، وطيباً في أخلاقه، وكانت روحه هي أفضل أرواح الجميع.. هادئة وطيبة. كانت تراه أمامها يقود عربة ثقيلة أيضاً، ويضرب بسوطه في الفضاء بين حين وحين، وكان يقدم المساعدة إلى الجميع، ويدفع العربات وهي تمر عبر الأنهر والأوحال، ويخرج موحل الملابس ومبتلاً بالماء أو العرق، وكان لا يتحدث كثيراً، ولا بصوت عال، مثله في ذلك مثل تادلوك.. ولكنه كان يساهم بنصيبه، بل بأكثر منه في النشاط والعمل.

كان يراوني يعود معظم الأوقات بالأبقار، وكانت تشاهده في بعض الأحيان حينما كان الركب يتسلق مرتفعاً، وتلوح له دائماً، فكان يرد عليها بحركة صغيرة، وكان حتى ذلك الوقت خجولاً في إظهار عواطفه لأنه لا يزال غلاماً.. ولكنه مع ذلك كان يقوم بأعمال الرجال.. لا يحتاج إلى معونة لمراقبة الخمسة عشر رأساً التي أحضرها معه ليحي، ولكنه كان قد أجرها لماك الذي كان يملك أربعين رأساً أو أكثر حتى يستطيع أن يكسب شيئاً. وكانت ريبكا تعتقد أن ماك لا يستطيع أن يجذب إليه أي صديق مخلص.

وضربت ريبكا أقرب ثور إليها بالعصا التي كانت تحملها.. كانت تريد أن تكون قريبة من ليحي، وكانت تترك الفريق يبتعد عنها قليلاً، ولكن ازداد تيار الهواء واهتزاز جسدها وهبوط روحها المعنوية جعلها تندفع إلى الاقتراب من ليحي. وعند منطقة «ليتل بلو» كانت الأتربة

تغطي وجوههم، ثم هطلت الأمطار بعد ذلك لتغسل ذلك كله. كانت العربات التي في المؤخرة محملة بالأتربة التي تغطيها باستمرار.

أخذت ريكا تنظر حولها لتدرس طبيعة الأرض المحيطة، لقد بدأ الركب يدخل منطقة مختلفة تمام الاختلاف.. غابات وتلال أولاً، ثم براري ثانياً مثل تلك التي تقع في الطرف القريب من جبال روكي، ثم غابات مرة ثانية وصخور جيرية وتلال عالية على طول «بيج فيرموليون»، وأصبحت هذه المنطقة تبدو كأنها قد تفتحت؛ إذ تستطيع العين أن تجول إلى أبعد ما يمكن، وكانت الأشجار متباعدة تجعل من السهل المرور بينها.. إنك لا تستطيع أن تتحدث عن ذلك، ولكن الصباح سوف يؤكد ذلك مرة أخرى.

كانت الرياح، التي تهب، لا تشبه تلك الرياح التي كانت تهب في المقر القديم.. كانت ثابتة وأكثر قوة.. تأتي بشدة من الغرب كأنما لا توجد أمامها أي نهاية.. وكانت الرياح تكفي لثني الأشجار أو الإطاحة بها، كما كانت تصفّر فوق التلال العارية، وتتجه بسرعة نحو الشقوق ونحو الفراغ في السهل كما لو كانت ترغب في دفع الركب.. وعلى الرغم من ذلك، فقد قال الناس إنها شيء لا يذكر.. انتظر حتى نصل إلى أبعد من ذلك.. ولكنها كانت كافية.. كانت أكثر من كافية.

كانت مسرورة حينما توقف الركب، لذلك تنفست الصعداء وأخذت تمر بيدها على كتفها وتحكه بقوة، ولم تعباً بمن يكون قد رآها، ثم واصلت السير إلى ليحي قبل أن يصمم على الذهاب لرؤية ما وقع، وقال:

- راقبي الماشية.. هَلَّا فعلت ذلك يا بيكي.
- انتظر يا ليحي، يجب ألا تقوم بكل العمل بنفسك.. هل نستطيع أن نتحدث ولو قليلاً؟
- فاعترض في بداية الأمر، وكانت تعرف ذلك، ثم نظر إليها، وقال:
- لماذا؟ هل هناك أشياء تريدنيها. ماذا بك؟
- أريد أن أتحدث إليك فقط، هذا هو كل شيء.
- تتحدثين في ماذا؟
- مجرد حديث.
- إنك لست على حالتك الطبيعية يا بيكي.. أراهن على أنك متعبة.
- إنني على ما يرام.
- لماذا لا تركبين بدلاً من السير؟
- إنني على ما يرام.. إنها الرياح ولا شيء غيرها.
- هل تشغل ذهنك؟
- قليلاً.
- ليس هناك ما يشغلك.. إن الأمور سوف تتحسن.. فكري في هدوء، وأنت ترين أشياء جميلة. ثقي بنفسك قليلاً، وسوف ترين أن كل شيء على ما يرام.
- هذه الرياح التي تهب باستمرار.
- كنت أقول لنفسي إن هذا يوم جميل للسفر.

ولكنها لم تجب عليه، وإنما خطت بعض خطوات، ودارت دورة كاملة لتحدث إلى ليحي وظهرها للهواء القوي. كانت تعرف أنها امرأة قوية، ولكنها تحتاج الآن إلى قوته هو، لذلك قالت له:

- هل تعتقد أن الأمور سوف تسير سيرًا حسنًا ومؤكدًا يا ليحي؟
فرد عليها قائلاً:

- تناولي بعض الدهنيات يا حبيتي، ولا تطلقي العنان لمخاوفك.
هل تسمعينني؟

واستخدم لفظاً قلما استخدمه معها وهو «حبيتي»؛ لأنه كان يشعر بأنها بحاجة إليه.

وكانت تسمع بعض الأصوات من خلفها، لذلك استدارت لترى تادلوك قادمًا فوق ظهر جواده. وتحدث وهو يقفز واقفًا قائلاً:

- سوف نحبس هنا ونحاصر.

فأجاب ليحي قائلاً:

- حسنًا.

- يقول سمرز: إن هذه هي فرصتنا الأخيرة للحصول على أخشاب للجرارات ومقدمات العربات، وسوف أفترض أن هذا الوضع هو الصحيح.

- ديك يعرف معرفة تامة.

وقال تادلوك، كما لو كان يغالطهم في ذلك:

- إن بعض النساء يرغبن في التوقف أيضًا.. يقلن إنهن يرغبن في القيام بغسل بعض الملابس وتنظيف الأواني هنا.
- هل الأمر كذلك؟
- إنني أكره هذه التعطلات التي لا نهاية لها.
- سوف نحتاج إلى بعض المحاور ومقدمات العربات قبل أن نبتدئ من جديد.
- فقال تادلوك:
- أعتقد ذلك.. لكن هذا الأمر ممل للغاية.
- وحينما امتطى جواده صاح ليحي قائلاً:
- هذا هو تادلوك.
- قوي وكبير أليس كذلك؟
- هل تنادونني؟
- أنت في جانبه.
- فأوماً ليحي بطرف عينيه، كأنما ليقول نعم.
- لم أقل أنني مستعد للقيام بذلك الآن.
- هناك البعض الذين هم على استعداد.. مثل باتش، وجورهام، ودورتي - كما سمعت، أليس كذلك يا ليحي؟
- واستمر ليحي يومئ برأسه قائلاً:
- إن هذا ليس من شأني.. ولكنهم يقولون إنه يتحدث بسرعة.. إن

السبب في ذلك هو أن ماشيته هي التي تتسبب في البطء.. وبخاصة لعدم وجود أحد معه يعاونه، ماعدا مارتن وماك بي لبعض الوقت فقط.

- أليسوا على حق في ذلك؟

فتحدث ليحي من غير أي حماس، ولكنه كان يزن الكلمات في ذهنه:

- أجل.. فما دام القائد باقيًا.. فسوف يزداد نفوذه، وسوف يحاول العمل بقوة. إن هذا ليس مكانًا يسهل العمل فيه حيث يوجد البعض من الراغبين في الإسراع والبعض الآخر يرغب في العودة، والبعض الثالث يخشى الهنود، والبعض الرابع يأسف لهذه الحالة، والبعض الخامس يقف على الحياد.

- إنه لن يفقد الرحلة يا ليحي.

- إن المسألة هي من هو الأفضل؟

- أنت الأفضل. هل أنت مجنونة؟

- أنا!

وتقلص وجهه وظهرت عليه سمات الانزعاج.

- إنك لم تعط نفسك حقها أبدًا بالنسبة لما تستطيع أن تفعله حقيقة.

وقبل أن يحري جوابًا كان الركب قد بدأ يتحرك، وبدأت تسمع أصوات المدارات، وشاهدت مقدمات العربات تتأرجح، ثم سألها ليحي:

- هل أنتِ على ما يرام الآن يا بيكي؟

- ماذا تقول؟. ليس بي شيء.

ثم سارت إلى الخلف وتلفتت حولها والرياح تصفر في أذنيها، وتحدثت إلى فريقها. كانت تعرف أنها على ما يرام، وكانت تعرف أن ليحي يستطيع أن يعمل بالقليل من الدفع، ولكنها لن تفكر في ذلك، إنها تفكر الآن في المعسكر. وبعد أن أنهت عملية الغسيل، وإعداد العشاء، استطاعت أن تستريح، وأن تدع نفسها لتنال قسطاً من الراحة.. ولكن ليحي وبراوني سوف يتحدثان فترة بسيطة حول هذه الأرض التي لا تضم مأوى أو مسكناً، وحول المسكن الجديد الذي سوف يمتلكونه ليحيهم من الرياح.

ثم قامت بضم ذراعيها إلى صدرها لتدفئهما وتدفع صدرها وتستريح.. إن أي امرأة تمتلك مثل صدرها تخشى أن تقف لتعمل في طرق أو ريجون.



الفصل التاسع

قال ديك سمرز:

- إن الوقت مناسب للوصول إلى بلات.. ونحن نستطيع أن نبتدىء من الآن.

فأجابه ليحي إيفانز، وهو يعتقد أن عيني ديك كانتا تتطلعان إلى بلات.. تنظران نظرة بعيدة إلى المسافة.. نظرة خاصة بالأشياء البعيدة التي تحضر إلى الذهن والذكريات: أوه- هاه.

وأدار إيفانز رأسه باحثاً عن التلال التي كان الناس يتحدثون عنها مثل سواحل نبراسكا، ثم قال:

- إنها الرحلة الوحيدة التي قمت بها في حياتي، والتي استغرقت وقتاً طويلاً في الإعداد لها والبدء بها. كان يعرف ما يعنيه ديك.. كان ديك يعني أنه في حالة الوصول إلى بلات سوف يجدون أنفسهم في منطقة مختلفة تمام الاختلاف تمهيداً للبدء الحقيقي في التوجه إلى الجبال ثم إلى أوريغون.. لقد شعر هو نفسه بهذا الشعور مع أنه لم يسبق أن اشترك في ركب، ولم يسبق له مشاهدة بلات إلا من خلال أحاديث الناس إليه.. سوف تكون هذه المنطقة ضحلة وكبيرة.. بها نهر رملي وضفاف مسطحة.. لا توجد أشجار إلا في منطقة الجزر المليئة

بالأحوال، والتي يكثر فيها الجاموس البري لدرجة لا يستطيع الإنسان معها إحصاءه.

وامتطى باتش جواده بجانب ديك. ودورتي، ومارتن، وقام الجميع باكتشاف مكنن الهنود ودراسة معالم الطريق؛ حتى تستطيع العربات أن تسلكه بهدوء. وقال باتش لإيفانز:

- إن هذا يبدو أكثر من بداية، إذا كانت الخطوة الأولى قد جاءت بالفعل من ماساتشوستي.

فأجاب إيفانز:

- إنني لا أعتقد أن حمى أوريجون قد انتقلت إلى هذا المكان البعيد.

وجاءت ابتسامة بسيطة متسائلة على وجه باتش لتقول:

- ألم تسمع من قبل عن هول كيلبي، أو كابتن ويث؟

- لا أستطيع أن أقول إنني سمعت ذلك.

وكان سمرز يهز برأسه، ثم قال:

- إنني أعرف ويث.. إن هناك ممراً أُطلق عليه اسمه.

وتوقع إيفانز أن يستمر ديك في ذكر المزيد، ولكن كل ما قاله ديك بعد ذلك هو:

- لقد كان إنساناً طيباً وممتازاً.

ونظر إليه فشاهد علامات التفكير تنعكس عليه، واعتقد إيفانز

أن «ديك» يحاول الرجوع بذاكرته إلى الوراء ليتذكر «ويث»، والأيام الخوالي التي ذهبت واندثرت.

ثم قال باتش:

- كان كيلى وويث يرغبان في أوريجون مثلما يرغب أي إنسان فيها.. وبخاصة كيلى نفسه. لقد كان عندنا لمسة من حمى أوريجون قبل أن يعرف الآخرون أي شيء عنها.

ثم صمت باتش بعد ذلك. وكان أنفه الرفيع قد تلون بلونه الطبيعي وبدا عليه الاهتمام.. كان كوجه «يانكي».. ولكنه لم يكن وجهًا سيئًا، كما يعتقد إيفانز.

وتحرك إيفانز فوق سرجه.. في حين كان روك العجوز قد انتهى من جولته الاكتشافية بين الشجيرات وبعض الأعشاب التي داست عليها أقدام الجياد. كان روك -هذا الكلب العجوز- ثابتًا يسير باتزان وعظمة، وكان يتبع الجميع وهم يتجهون إلى المنحدرات المدرجة التي تسلقوها، واستطاع أن يرى العربات تسير في تيار عنيف من الرياح ووسط دوامة من الأتربة والغبار.. كان الوقت قد بدأ يزحف نحو الظهر، في حين كانت القافلة تشق طريقها. كانت الجياد الطليقة تسير خلف العربات، وتسير الماشية خلف الجياد أيضًا، يحوطها ويسير خلفها الحراس من كل جانب للمحافظة على نظام سيرها، ودفعها إلى الأمام. وكانت النساء والأطفال يسرون في الخارج وسط الأتربة يضحكون ويتسامرون ويشاهدون الأزهار الطبيعية البرية القوية لدرجة تثير الدهشة في نموها في هذه البقاع الواقعة بين «ليتل بلو» وبلات، ووجدت النساء

زهور الكاكتوس الحبيبة إلى قلبها، والورود البرية التي بدأت براعمها في الازدهار.

وكانت ألوان الأزهار تشع أضواء في ضوء الشمس، على الرغم من وجود الأتربة، في حين كانت قمم العربات البيضاء مغطاة بطبقة سميكة من الأتربة. وفي هذه الأثناء شاهد إيفانز رجلاً يسير على طول الخط.. ربما كان تادلوك نفسه يحاول أن يجعل الركب يسير في اتجاه مستقيم واحد.. لقد كان رجلاً عظيماً في النظام، وفي إلقاء الأوامر، على الرغم من أنه لم يكن يجيد ركوب الخيل. لذلك لم يستطع أن يركب كثيراً كما يجب أن يكون عليه القائد. وكان إيفانز يتعجب من أنه لم يفكر أبداً في الكلاب التي كان يرغب في قتلها.. أما الآن فهناك كلب يسير خلفه، وهناك نحو ستة كلاب غيره تسير خلف النساء والأطفال، وتندفع بين حين وحين في أحد الجوانب.. استطاعت الكلاب أن تسير عدداً من الأميال يزيد كثيراً على العدد الذي قطعتة الجياد أو الثيران، ومازالت مستمرة في طريقها.

واستطاع إيفانز أن يشاهد بنفسه عربته، وأن يميز ربيكا بجوار إحداهما. ولا شك أن براوني كان بداخل العربة الثانية يقودها. وكان يعرف والفخر يملؤه أن ربيكا سوف تبحث عنه؛ لتستوثق من أنه على ما يرام، كما يبحث هو نفسه عنها ليستوثق من ذلك.

كان ذلك في يوم من الأيام حينما لا يجد براوني نفسه مضطراً لاستنشاق الأتربة، وكان ماك قد طلب معونة شيلدز في مرة من المرات. أما الآن فقد عاد شيلدز بالأبقار، ولم يكن إيفانز يفكر مطلقاً في ماك،

ولكنه فكر في ليلة هروب الماشية، وقيام ماك بقتل الهندي. لقد كان القتل قاسيًا ولا فائدة منه، لم يستطع أن يعود عليه بشيء، على الرغم من أن بعض الرجال قد ضحكوا في هذه الآونة قائلين إن الهندي قد أصيب بحالة مرض سقطت على إثرها.. وتستطيع أن تفكر أنت من خلال حديثهم أن الهندي يشبه الحشرات التي يجب التخلص منها، وكان ماك يبدو رجلًا طيبًا فاضلاً، ما لم يكن غريبًا.

ثم استدار إيفانز فوق سرج جواده، وقال:

- تادلوك.. ألا تعتقد أننا نسير في الطريق الصواب؟

فأجابه باتش:

- إن تادلوك يأكل الكثير من البقول.

وتحدث كما لو كان قد أدار جميع الأشياء في ذهنه، وخرج بإجابته التي لا يستطيع أي إنسان الاعتراض عليها.

كان مارتن قد جاء مع تادلوك من إلينوي، وقال:

- إن تادلوك على ما يرام.

ثم نظر إلى باتش بعينين تشع منهما الغباوة، وكان وجهه يبدو كما لو كان يعرف أنه لا يجد من يبادل العطف، ثم سار في طريقه وهو يقفز قفزات خفيفة فوق جواد كأنه في يوم بارد.

لم يكن باتش من النوع الذي يبتدئ القتال، على الرغم من أن إيفانز كان يعتقد أنه يستطيع أن يحمي نفسه إذا رغب في ذلك، لذلك لم يجب على مارتن.

وهنا قال إيفانز:

- ربما لا يكون شيئًا سيئًا حين يجد مثله إنسانًا يدفعه.

فتحدث مارتن قائلاً:

- إن هذا هو ما أقوله، وكما يقوله هو، يجب أن يكون هناك من يتولى المسؤولية.

ولكن ديك قال، وعلامات الغضب تبدو عليه قليلاً:

- لا يجب عليه أن يأخذها لنفسه، مثلما أخذها الله لنفسه.. إيه! أليس كذلك يا دورتي؟

ولكن دورتي لم يشترك في الحديث، ولم يتحدث طويلاً قط، على الرغم من أن حب الكلام كان يبدو على وجهه، ولكنه مع ذلك استمر في صمته، في حين كانت عيناه تشعان ضوءاً بصفاء زرقتهما، وكانت الحمرة تكسو وجنتيه تحت وهج الشمس، ثم يتغير لونهما، ثم يعودان كما كانا مثلما تفعل الحية بجلدها الذي تبدله ثم تعود إلى طبيعتها.. وهكذا. كان يرتدي قميصاً أحمر قديماً خاصاً بالصيد، ويحمل معه بندقية عتيقة، ربما كان والده يستخدمها للصيد حينما كان غلاماً في غرب فرجينيا.

وقال ديك:

- لقد مر وقت طويل منذ أن ابتعدت عن فكرة: إن ما يؤذيني سوف يكون لصالحى جسداً وروحاً.

فرد عليه إيفانز قائلاً:

- من الأفضل ألا تترك الأخ ويذربي يسمعك تقول ذلك.

فاستمر ديك في حديثه:

- إن ما شفاني في حقيقة الأمر هو طب الهنود.

فتساءل باتش:

- طب الهنود؟

- إنه دواء يحصل عليه الهند من جذور معينة، كانت والدتي تمسكني من أنفي، وحينما أفتح فمي لأتنفس أجدها تصب هذا الدواء من قده صغير.. لقد كانت تقول إنه شفاء لأنه سبىء الطعم ومر المذاق.

فسأله باتش:

- وهل كان كذلك؟

واستمر ديك في حديثه:

- إنها كانت تشبه الأطباء؛ فهم يقولون إن وجود حيوية ضئيلة في الإنسان يدل على وجود القليل من المرض.. ولم تنقطع عن التفكير في أن قلة الحيوية تقلل من الشفاء.

- إنك تتحدث عن الجراحين؟

- عن الجراحين والأطباء المعالجين.. إن المشكلة عند المريض

هي: هل يستطيع أن يعيش في خلال فترة العلاج؟

فابتسم باتش، كأنما يظن أن ديك لا يعتقد فيما يقوله:

- وهل جاء العلاج الهندي بفائدة؟

- لقد أدى إلى النتيجة التي قصد منها، وربما زاد على ذلك، خذ

جرعة منها وسوف تجد نفسك أقوى مما أنت عليه.

- ربما كان ذلك الدواء بالذات نافعاً.

- ليس بالنسبة لتفكيري.. فمثلاً ابتلعت في مرة من المرات قطعة نقود، فقامت والدتي باقتلاع أحد هذه الجذور وغليها في ماء، ثم إفراغها في جوفي.. هل تعرف أن النقود قد خرجت مشوهة ولا يمكن إنفاقها. فسأله باتش:

- حسناً، وماذا بعد ذلك؟

- لقد قال صاحب المحل إنها عملة مزيفة، كان تردد صوتها أجوف، كنت أعرف ذلك، إن هذا الدواء الهندي يستطيع أن يخرج أي شيء صلب من الجوف.

فأخذ دورتي يضحك، في حين قطّب باتش حاجبيه، وقال بعد لحظة:

- هل تعني بعد ذلك أن تادلوك يشبه الدواء الهندي؟

- إن الحديث جرنى فقط إلى ذكر الطب الهندي، وهذا هو كل شيء.

فقال إيفانز:

- أبعد تادلوك، وسوف يكون عندنا الكثير مما نتحدث فيه.

ولم يكن يعني إنهاء الحديث، ولكنه توقف ولم يهتم أي إنسان بالقول بأنهم يستطيعون الاستمرار في الحديث حول الهنود، أو العودة ثانية، أو الانتظار إلى أن يصل ركب آخر ينضم إليهم. كان هناك في

المعسكر بعض الناس الذين يرغبون في فعل ذلك أو في القيام بأي عمل، إلا الذهاب بالطريقة التي صمموا عليها في بداية الأمر.

وامتطى الخمسة جيادهم وساروا بهدوء، وكان الصوت الوحيد الصادر هو صوت أقدام الخيل وهي تسير تحت سماء صافية مشعة. واختار ديك مكان الظهيرة.. كان معسكرًا جافًا على الطريق المنقسم الذي كانت المياه تندفع إليه وتملؤه من المكان الذي استخدموا مياهه في الصباح، وكان من المفروض ألا تكون هناك أي مياه على طول الطريق من راس «ليتل بلو» إلى بلات، ولكن ديك كان يعرف أين توجد المياه على مسافة ميلين من الركب، لذلك قاده إليه ليكون مكان المعسكر في الليل. وكان إيفانز يقول إن هذا الركب كان محظوظًا لوجود ديك فيه، فإنهم من غيره كانوا سيسلكون طريقًا جافًا مسافة خمسة وعشرين ميلًا بأقل تقدير. واستمرت العربات تشق طريقها رويدًا رويدًا في أربعة أعمدة كما فعلت وقت الظهيرة، ثم حلت أربطة الثيران، ولكنها لم تطلق، وبدأت النساء ينهمكن في إعداد الطعام.

كان التعب والإنهاك يبدوان على ربيكا، لذلك سألتها إيفانز بعد أن انتهت من كل شيء بعد تناول الطعام:

- لماذا لا تستريحين هذه الليلة؟ سوف أتولى القيادة بنفسى.
 - قم بعملك يا ليجي.. هل تريد أن ترى بلات؟ سوف تراها قريبًا..
 - ولا تنس يا براوني أن تتولى قيادة الأبقار اليوم.
- فابتسم لها، ولم يرد عليها، وإنما أبدى دهشته حينما عرف أنها

أدركت ما يعتمل في نفسه؛ إذ لم يصرح لها بأنه يشعر باهتمام كبير من أجل مشاهدة بلات.

تناول الجميع طعامهم بسرعة، وكانت غالبية الجولات تطوف حول النهر، ثم تجمع الركب مرة أخرى وواصل سيره.. ولم يكن النوم يغالب أي فرد، وبخاصة بعد تناول الطعام وازدياد الحرارة كما هي العادة بعد الظهر، ولكن كان هناك القليل من التوتر.

وقبل أن تتحرك العربات، امتطى إيفانز جواده واتجه إلى مصاحبة ديك وباتش والركاب الآخرين في الخارج. وكان روك قد بدأ يستيقظ ويشعر بواجبه بالتدريج، لذلك قام بتتبع إيفانز.

وشاهد إيفانز في طريقه الأخ ويذربي يتحدث بشغف لسيدتين، حتى بلات لم تستطع أن تحول ويذربي عن طريق الخلاص، كان تادلوك يقف بعربته وفي يده السوط، كما لو كان مستعداً للنيل من أي إنسان يكسل عن القيام بعمله.

كانت الأرض مستوية وممهدة أمامهم، لا يوجد بها أي شيء يمكن أن تلتقطه العين، إلا بعض الوعول بين حين وحين؛ إذ كانت تقف رافعة رؤوسها وهي تراقب ما يدور، ثم تدور حول نفسها وتلوذ بالهرب، ثم تتجمع لتراقب من جديد. كان باتش يرغب في أن يطلق النيران على أحدها، ولكن ديك أخبره بأنهم سوف يجدون الكثير منها على طول طريق النهر، لذلك لم تكن هناك حاجة الآن لحمل ما يصيده الآن.

استمروا في سيرهم من غير حديث كبير، وكان دورتي يقف في خلف الركب ومعه أربعة من الرجال، وفي هذه الأثناء تأخر مارتن عن

المقدمة وبدأ يسير في نهاية الركب.

ولم تكن عينا ديك مستقرتين أبداً، كانتا تجولان يمنة ويسرة، أماماً وخلفاً، وكان إيفانز يتصور أن ما بقي ليس إلا القليل. وحينما مروا بقافلة تتجه شمالاً أو جنوباً كان ديك يلقي نظرة، ولكن إيفانز كان يعرف أن نظرة واحدة من ديك تكفي لمعرفة متى سار ركب هنا لآخر مرة.

قال ديك:

- طريق «البونيز».. يتجه إلى أركنساس.

- لن نرى أي «بونيز» في الطريق.

- ليس بعد؛ لأنهم سيكونون في الغرب.

كانت الشمس تزحف نحو الغرب زحفاً بطيئاً، وبدأت أشعتها في ملاطمة وجنتي إيفانز، الأمر الذي جعله يشعر ببعض القلق بسبب السخونة التي تعرضت لها البشرة والتي أصابته بالنعاس، فمال فوق السرج تاركاً ديك يتولى الرقابة، في حين كان ذهنه منصرفاً وينتقل من شيء غير هام لآخر، ولكن ديك أعاده إلى تركيز ذهنه حين قال:

- هذا هو الساحل.. أعتقد ذلك.

فكان ما رآه إيفانز يشبه سلسلة من التلال المرتفعة غير المتصلة، تقف بوحدة في اتجاه الشمال الغربي، شامخة في عنان السماء.

فصاح باتش:

- جبال!

تلال رملية، وليست مرتفعة كما يمكن أن تظن وأنت تقف هنا.

وثبت بعد ذلك أن ديك كان على حق، فكلما اقتربوا كانت تتضاءل إلى أن أصبحت في النهاية مجرد أعمدة من الرمال ترتفع ما بين أربعين وستين قدمًا. كانت الرياح تذرّوها رويدًا رويدًا، كما كانت أشجار الكاكتوس تجمعها بعد ذلك. وشاهد إيفانز، وهو يمتطي جواده، بالقرب منها الكثير من الأشجار التي تغطي المنطقة، مما جعل جواده يميل نحو الأرض ويقتلع الكثير منها ليمضغه، وكان هناك مسحوق أبيض من الملح ينتشر فوق سطح الأرض.

كان إيفانز قد سمع من قبل عن بلات، وصورها في ذهنه، واعتقد أنه يعرف ما سوف يشاهده، ولكن بعد أن أوقف جواده على القمة في ذلك الوقت لم يستطع أن يصدق ناظره، لم يستطع أن يصدق أن استواء الأرض يمكن أن يكون بهذا الشكل، وأن امتدادها يمكن أن يسير بهذا البعد، أو أن السماء ترتفع بعيدة في أغوار الفضاء. رأى كلبه روك يقتفي أثر فأر أبيض حتى جحره، وشاهد مجموعة من الوعول، والنهر يجري كالفضة، والغابات والأشجار ترتفع فوق هذا النهر، وكثبان الرمال في مجموعات ضخمة.. كأن شيئًا لم يستطع أن يتصوره أو يصفه بكلمة.. ظن أن هذا المنظر لم يسبق أن شاهده العالم من قبل. لقد عاش هذا المنظر مقفلاً بواسطة الأشجار التي تحيط به والتلال التي تلفه، واعتقد أن العالم ليس سوى لعبة، وأن التلال والهضاب والجبال مهما ترتفع، فلن تصبح أكثر من بندقية ترتفع في فضاء الكون.

فقال:

- يا الله! يا الله! يا ديك.

فهز ديك رأسه وهو يعرف أن هذا المنظر قد عقد لسانه من قبل، وأخرس الألسنة القوية وجعلها لا تستطيع أن تعبر بكلمات واضحة عن هذا المنظر، كما لو كان هذا المنظر قد حطم جميع قواعد الحديث.

أوقف إيفانز جواده، وكان ديك يركب بجواره، وباتش بالجانب الآخر، في حين كان مارتن في المؤخرة، فأحس بشعور عميق داخل نفسه، وظل يردد:

- لم أكن أعرف أبدًا أنه سوف يكون على مثل هذا الجمال وهذه الروعة.

قال ذلك بصوت مرتفع ولكن أمام نفسه.. كان متواضعًا، ولكنه كان متمالكًا لنفسه فخورًا بقوته وبكبريائه الصامتة التي جعلته يسعى إلى أوريجون.. سوف يكون الأمر سهلًا، ولكنها لن تكون نوعًا من التسلية كما يسميها بعض الناس.. كان الاسم عظيمًا.. وهو الاسم الوحيد الذي أمكن أن يطلقه عليه في ذهنه.

شعر بالعظمة والقوة تكتسحان كيانه، عظمة تأتي من عظمة، ولكنه تنازل عنها وهو يفكر في تادلوك، وأهميته الذاتية، ولكنه ظل يشعر بالعظمة. والتصق ديك بجواده، والتصق الأربعة الآخرون كذلك، وساروا بتؤدة فوق المنحدر الصعب، ثم عبروا السهل المستوي، ووصلوا أخيرًا إلى النهر.

الفصل العاشر

كان على هيجنز أن يتسم لنفسه؛ فقد كان الرجال يشيرونه بالضحك والابتسام، وبخاصة حينما يتحدثون إلى النساء، وحينما تجمعت عربات الراكب في طريقها إلى منطقة بلات.. كان الرجال يتحدثون في موضوعات لا تتسم بالحياد وهم منفردون، ولكن الأدب والحياء والرقعة تفيض منهم جميعاً حينما يتحدثون في حضرة بعض النساء.. إن الرجال يبدوون أكثر رقة ولطفًا وأدبًا حين وجود الجنس الآخر بينهم.

كان السؤال الذي أخذ يدور بعد أن قل توافر الخشب.. هو: ماذا ستفعل النساء حين الطهو والرغبة في إشعال النار؟ هل يستخدمن روث الماشية؟ إن أي مجنون مثله قد يفكر في ذلك، ولكن لا.. سوف يقرر الأزواج ما يريدون ويعودون إلى نسائهم وأمارات الجد ترسم على وجوههم ليقولوا ما يرونه سليماً ومناسباً. ولكن كيف سيقولون ذلك؟ كان هينجز يتعجب! كيف سيتولى المستر بيرد إخبار زوجته؟ مدام؛ نظراً لعدم توافر الأخشاب فسوف نضطر إلى استخدام روث الماشية.

لم يكن ذلك اجتماعاً محدداً ولكنه قام تلقائياً؛ إذ كان معظم الرجال موجودين، وكان ديك سمرز يرتكز على حافة بندقيته في أحد الأركان وينظر إليهم، ثم ينظر بعيداً إلى الشمس الغاربة التي تختفي وسط ملايين

الأميال من البراري. حاول هيجنز أن يتكهن ما يدور في رأسه، ربما فكر في أن هناك لوائح خاصة فيما يجب فعله للظهو، إذا لم تكن هناك أخشاب.. لوائح خاصة باللجوء إلى روث الماشية.

كان بيرد يتحدث قائلاً:

- إنني بالأصالة عن نفسي لا أرغب في ذلك.

كان بيرد رجلاً لم يستطع هيجنز أن يفهمه فهمًا تامًا، إلا كما يراه أمامه متزنًا يجلس بحكمة ويتحدث بعقل مع المجموعة.. وهو لم يتعود أن يلمس الحيوانات أو يستخدم ما يخرج منها بنفسه. كان رجلاً وسطًا قد جاء من مكان ما من الشرق يتمتع بشخصية قوية وبارزة، جاد في أخلاقه وطباعه، حكيم في تصرفاته، مهذب في مسلكه مع النساء، يقول «آمين» وراء كلمات الأخ ويذربي وصلواته، ولذلك اعتقد هيجنز أن له أفكاره الخاصة بشأن هذا الموضوع وبشأن موضوعات أخرى.

وتحدث تادلوك كما يتحدث دائماً، وكما لو كان لم يترك شيئاً لم يذكر، وهو يجه كلماته إلى سمرز:

- لا يوجد بيننا من يرغب في ذلك.. ولكن هل أنت متأكد؟

فهز سمرز رأسه، كان -حتى ذلك الوقت- ينظر عبر ملايين الأميال من السهول، وأخذ هيجنز يتكهن بأنه قد قنع وشعر بالسرور البسيط بما يكون قد ذكره في الحديث التافه.

وتتبع هيجنز نظرات وحملقة تادلوك في اتجاه النهر حيث كانت هناك مجموعة متفرقة من الشجيرات وبعض الأحطاب وثلاث أشجار

ميتة، حيث كان بوتر وبراوني إيفانز وغيرهما يعملون معاولهم فيها تقطيعاً؛ لمحاولة الحصول على وقود كافٍ للنيران، ثم أخذت عينا تادلوك تجوبان ما وراء النهر حيث توجد منطقة بلات، ما عدا جزيرة صغيرة من الأشجار والغابات التي تقف عارية وسط بحر من الرمال.

وقال تادلوك، وهو ينظر إلى أعالي النهر كما لو كان لا يسأل سؤالاً:

- لا توجد أخشاب.. لا أخشاب على الإطلاق.

فرد عليه سمرز قائلاً:

- ليس بما فيه الكفاية.

- وماذا عن روث الماشية؟

- متوافر.. سوف ندخل منطقة يتوافر فيها روث الجاموس البري.

- ألن يكون نادراً أيضاً؟ ألم يسبق أن استخدمه آخرون؟

- إنه يتراكم بسرعة كبيرة.

وكانت إجابة حاذقة شعر بها هيجنز، ولكن تادلوك لم يتسّم لذلك،

بل قال:

- إنني لا أفهم ذلك.. لماذا توجد أشجار وغابات فوق الجزر؟

ولكن فيرمان، الشاب اللطيف النشيط، مال فوق الأرض وأخذ

حفنة من التربة وقلبها بين بنصره وأصابعه، ثم قال:

- إن هذه التربة لا تصلح لإنتاج أي شيء سوى الأعشاب والأشجار

الشوكية (الصبار)، إنها رمال.

فتحدث تادلوك ببطء، كما لو كان متجهًا للإدلاء بإجابة قاطعة وقوية:

- يجب إذن أن تكون تربة الجزر غنية.

وبدأ الرجال يفكرون ويهزون رؤوسهم، ولم ينقذهم من تفكيرهم سوى قول سمرز نفسه:

- إن الهنود يشعلون النيران في البراري، ولكن النيران لا تصل إلى الجزر.

وبدأ تادلوك ينظر كما لو كان لا يهتم كثيرًا بالإجابة، ثم قال:

- على أي حال هذا ليس هو السؤال.. هل نستطيع أن نجد ونلتقط وقودًا كافيًا من الشجيرات والأعشاب الجافة في أثناء سيرنا؟

فأجابه سمرز، كما لو كان يرغب في لمس تفكيره:

- إن ذلك سوف يعرقل ويعوق سير المركب ويبطئ من حركته.

فغشيت وجه تادلوك سحابة قاتمة، ورد قائلاً:

- يجب أن نكتسب الوقت ولا نضيعه.

فقال ليحي إيفانز:

- إذا لم يكن هناك شيء آخر، فلن يكون أمامنا سوى الأمر الأول.

ثم اقترب من تادلوك ونظر هيجنز إليه وإلى تادلوك ووازن بينهما في الحجم، كان إيفانز أطول من تادلوك، وكان تادلوك أنحف صدرًا من إيفانز.

وقال بيرد بهدوء مثل البومة التي تقبع ساكنة:

- أعتقد أنه يجب أن ننظر إلى هذه المسألة بعين الاعتبار، إنها ليست مجرد شيء يتم تقريره من غير تركيز وعقل.. ماذا تقول أيها الأخ ويدربي؟

فوقف ويدربي وهو يرتدي قميصًا أزرق وسروالًا قديمًا به تمزق، ولم يجب على الفور، ولكنه أخذ يجول بناظره إلى أعلى وأسفل، وإلى ما هو أبعد من ذلك، كأنما يستعد لمخاطبة الله.

ثم قال بيرد وهو يزم شفتيه:

- إنني لا أود أن أذكر كل حديثي هنا؛ لأن الوضع هنا يبدو غير مناسب.. يجب أن نسأل الناس الامتناع عن استخدام الروث إذا استطعنا أن نتجنبه، إنه شيء لا يليق بالسيدات.

فصاح إيفانز:

- شو!

وبدأ بيرد يدرس إيفانز قليلاً، كما لو كان قد فوجئ بظهور إنسان يشعر بشعور مخالف له.

واستمر إيفانز يقول:

- إن زوجتي سوف تستخدمه، ولا تفكر في شيء غيره.

فرد بيرد قائلاً، وهو يبدو كما لو كان قد فقد ثقته في نفسه:

- ولكني ما زلت أعتبر هذه الفكرة غير سليمة.

وانتصب هيجنز بملء راحته فوق الأرض، وذلك بعد أن فوجئ بأن بيرد وبعض الرجال الآخرين يخضعون في تفكيرهم لآراء النساء ولا يفكرون تفكيرًا ذاتيًا حرًا، ولا يفكرون كبشر واقعيين مكونين من لحم ودم ومعدة، وإنما يفكرون تفكيرًا بعيدًا عن الواقع. ولم يقم هيجنز من نفسه قاضيًا على النساء، ولكنهن سوف يجدن أنفسهن مضطرات للخضوع للواقع. إن النساء رؤوسهن أشد صلابة من الرجال، وهذا ما قد ينطبق على مسز بيرد.

كان ماك بي هادئًا، وهو أمر غير معهود فيه، وكان يبصق ويتحدث حديثًا مزعجًا ويقول:

- إن القليل من التنازل عن الكبرياء لن يضر في شيء، ولن يؤدي أي إنسان.. واستخدام الروث الجاف سوف يساعد على إتمام الطهو وينتهي كل شيء.

فانتحى باتش بيرد جانبًا، وتحدث بهدوء بوجهه الصارم، وقال:

- إن استخدام لغة كهذه وشعور كذلك الشعور لن يؤدي إلا إلى الاعتراض.

فنظر ماك بي إلى تادلوك ولم يستشف منه شيئًا، مما جعله يقول:

- أعتقد أن زوجتك تعرف ما يكفي لمنع تدخلها.

واستعد ماك للإجابة، ولكن تادلوك تحول إليه، وقال:

- أغلق فمك.

فغمغم ماك وأخذ يحك لحيته، ثم يبصق على الأرض، ثم أجاب بعد فترة صمت قصيرة:

- إن هذا فوق ما أسمح به.

وتحدث تادلوك إلى الاثنين، كما لو كان يحذر ماك بي ويطمئن الآخرين:

- نستطيع على أي حال أن نسميها «شبس».

ولم يكن هيجنز قد ابتعد وهدأ بعد، وبخاصة بعد أن شاهد بيرد يهز رأسه، لذلك تساءل قائلاً:

- لماذا لا نسميها كعكاً؟

- كيف ذلك؟

- إنه اسم يجعلها تختلف عما هي عليه.. اسم جميل ممكن أن يكون مقبولاً.

أخذ تادلوك يفكر في ذلك، في حين تبادل سمرز وإيفانز النظرات، ثم قال:

- هذا ليس وقت السخافات.

ثم حملق في هيجنز كما لو كان هيجنز لم يعر هذا الموضوع أي احترام أو اعتبار.

- إنك لا تبدي أي اهتمام.

فأجاب هيجنز:

- حينما أعمل أجد في عملي، وحينما أستريح أعطي نفسي حقها في الاستراحة.

- وأنت لا تجهد نفسك بالتفكير في حماية زوجة.

- إنني كنت أحتاج إلى حماية من آخر زوجة لي.

استمد الأخ ويذربي قوته من السماء، ثم وجه نظره إلى ماك بي، ولكنها لم تكن نظرة قاسية، بل كانت نظرة مليئة بالتراحم كما اعتقد هيجنز نفسه.

وهنا سأل تادلوك قائلاً:

- ماذا تقول يا ماك؟

فأجاب ماك:

- لا شيء.

ثم نظر إلى أسفل في اتجاه النهر حيث كانت النساء يحمن هناك.

وقال تادلوك، كما لو كان يوجه كلامه إلى أطفال ويشرح لهم:

- حسنًا.. لنفحص الإمكانات.

ثم عدّ النقاط على أصابعه واستمر يقول:

- أولاً: إننا نستطيع أن نحاول جمع كمية كافية من الأخشاب على

طول الطريق الذي نسير عليه.

ثانيًا: ربما نستطيع أن نطهو كمية كافية من الطعام تكفي لمساعدتنا

على الاستمرار في السير من غير إيقاد النيران لعدة أيام.

ثالثًا:

فتحدث إيفانز قائلاً:

- أو أن يقوم الرجال بالطهو بأنفسهم.. إنني لا أرى أي فائدة من وراء الحديث.

- إننا نريد الشعور العام.

فأجاب إيفانز:

- إنني لا أرغب في أن أقوم بالطهو.

وترك ماك المجموعة، تركها من غير أي حديث كرجل شعر بتعب من الحديث، وشاهده هيجنز يتحدث إلى الفتاة ميرسي ماك بي، وبتسم وهو يسير في طريقه.

كان إيفانز هو الشخص الذي ترك الرجال يتساءلون، لقد سألهم:

- هل ترغبون في أن تتولوا الطهو بأنفسكم؟

لم يكن بيرد وباتش يرغبان في مواجهة أي اختيار وبخاصة بيرد نفسه، كانا ينظران إلى الأرض ويضغطان بأرجلهما بقوة ويهزان رأسيهما ببطء، وكان هيجنز يشعر بأن باتش يتحمل أعباء أكثر من بيرد، على الرغم من أنهما كانا يسيران في الاتجاه نفسه ويقفان معاً، وكانت أمارات الطبيعة الإقليمية تبدو على وجه باتش (اليانكي)، في حين كان الأدب والعجز حيال الحيوانات يبدوان على بيرد.

وعاد الأخ ويذربي بذهنه إلى الأرض، وقال:

- ما يريد الله سوف يكون.

فتساءل تادلوك:

- ماذا تعني؟

- أعني أنه إذا لم يكن قد ترك لنا شيئاً لنطهو به، ما عدا روث الماشية، فإن ذلك يعني أننا سوف نطهو بهذا الروث.

- نحن؟

- هؤلاء الذين يقومون بالطهو بصفة مستمرة.

فقال ماك بي، وقد نسي أن تادلوك قد أسكته من قبل:

- إن ذلك يناسبني.

- إن ما يبدو طبيعياً في نظر الرب ليس طبيعياً في نظرنا.

وكان الرجال يهزون رؤوسهم مرة أخرى، وشعر بيرد بتحسن بعد أن شعر أن الرب قد اتخذ موقفاً.

وتحدث هولدريدج - لأول مرة في ذلك الوقت - لقد كان يقف بعيداً عن تيار الحديث يستمع ويراقب بوجه تكسوه لحية سوداء، وكان هيجنز يعتبره رجلاً ينعكس عليه الحياء، على الرغم من أنه لم يبرز ذلك، وتساءل:

- من الذي سوف يتولى التقاط (شبس) الماشية؟

فرد تادلوك قائلاً:

- يستطيع الغلمان إحضاره.

واقتنع هيجنز بأن الغلمان هم أصلح الأشخاص لالتقاط هذا الروث الجاف، أما النساء فيتولين الطهو على نيرانه، ويغض الرجال النظر عن هذه الأشياء. كانت هذه الحركة مجرد انحناء للأخلاق؛ لأنهم كانوا يعرفون من البداية، أنهم سوف يوافقون على استخدام «شبس» الروث. وبالعودة إلى العربات، نجد أن هيجنز قد سمع إيفانز يقول لسمرز:

– حسنًا!

فرد سمرز قائلاً:

– إنها مجرد لمسة للأبقار والماشية.



الفصل الحادي عشر

ارتفع الغبار تحت أقدام الماشية ليغطي أجساد الرجال ويزكم الأنوف ويملؤها بالأتربة الكثيفة.. وكانت الشمس قوية وملتهبة، على الرغم من أن الصيف لم يكن قد حلّ بعد.. واستمر هذا الوضع حتى أصبح براوني يبدو قاتم اللون مثل السرج الذي يجلس فوقه بسبب فعل الأتربة والشمس.. وكانت الأتربة تتغلغل داخل الحنجرة وبين الأسنان وتثير أو تخلق «البلغم»، كما تركزت كميات منها فوق الأذن وداخلها، واستمرت الماشية تثيرها بقوة، واستمر يصيح فيها بالاستمرار في السير، في حين كانت خطوط السماء واضحة وصافية، وموجات الحرارة تنطلق بسرعة.

كان اسمه براوني إيفانز، وكان يبلغ السابعة عشرة من العمر، وكان مرتبطاً بالذهاب والإقامة في أوريجون، وكانت اليدان اللتان تمسكان باللعجما هما يدها ذواتا الأظافر غير المنسقة والعظام الصلبة التي وجدت لتطيع الأوامر، وكانت القدمان الموجودتان في الحذاء ذي الرقبة هما قدماه، وبقيّة جسده الداخل في قميصه وسرواله هو نفسه من الداخل، وكان يفكر في أفكار معينة، ويشعر بشعور لم يسبق له الشعور به من

قبل. كان الجو يحمل في طياته صورة الأمطار من خارج السماء، كما كان هناك احتمال قيام زوبعة من الرياح تدفع السحب أمامها، وسوف ترتعد العظام داخل الجسد بسبب البرد، كما ترتعد الأعشاب وتنشي أمام الرياح نفسها وتبدو حزينة. يجب قيادة الجياد المفككة.. إن جوادًا يرغب في حك رأسه والانطلاق.

سوف ينتهي اليوم شيئًا فشيئًا، وسوف يتضاءل الوقت، وقت الظهيرة، ووقت التوقف وإقامة المعسكر، في حين كان العقل يجري منطلقًا، وكانت العيون تنظر يمنة ويسرة بحثًا عن الهنود والجاموس البري وبقية الحيوانات البرية مثل كلاب البراري، وكانت عربات الركب تصل متأخرة لتستمع إلى أصوات البوم وهي تنعق في جحورها، أو مثل القنفذ الذي أطلق عليه أحد الرجال نيرانه.

قال ديك سمرز إنه نوع من «الصبير» الذي قام الأولاد بإزالته.

إن العين تشاهد الركب وهو يميل بفعل الرياح، الرجال يسرون في مجموعات، والنساء والأطفال يسرون معًا على طول الطريق، إذا كان اليوم مناسبًا وصحوا، وكان الطريق ممهدًا وسليماً. وقد يبدو الركاب للنظر -مثل سمرز ووالدي، والمستر باتش، أو المستر فيرمان والمستر تادلوك وغيرهم- وقد تعكس إحدى الزجاجات أشعة الشمس القادمة عبر الغبار، فإذا جاءت الظهيرة فإن الراكبين سوف يترجلون ويبدأون في حفر الجحور على طول ضفة النهر؛ حتى يمكن إمرار المياه التي لا تمر؛ لأنها تحمل رواسب كثيفة. إن مشكلة بلات هي أنها منطقة تقبع في جهة منخفضة من الجانب.

كان اسم هيجنز، هو هيجنز، ومارتن، هو مارتن، وبوتر، هو بوتر، وماك بي، هو هنري ماك بي، وكان الجميع يسرون في خط في مؤخر ركب الماشية مع الآخرين الذين يتغيرون يومًا عن يوم. وكان هيج يتحدث إلى نفسه من فم لا يفصل بين الأنف والذقن إلا قليلًا، وكان يمتطي جواده ويحدثك عن ذلك إذا رأى أن ذلك مناسبًا، وكان أنفه يبدو كسكين يقطع وجهه وملامحه. أما مارتن فقد كان يمتطي جواده، ويمضغ الطباق، ويكاد يتسم ويتحدث قليلًا، أو يقوم بعمله كما لو كانت الحياة شيئًا يؤسف له ولا سبيل للتخلص منه. وكان الناس يصفون بوتر بأنه رجل متزن، فحينما يتحدث كان كل حديثه ينصب على الخيول والبغال والماشية.

كانت هذه هي أسماؤهم التي عرفوا بها، ولكن معرفة الاسم لا تعني معرفة الإنسان، إن الإنسان يعيش في أعماق وأغوار نفسه.. تحت أحاديثه وأفعله، كما هو الحال معه نفسه - براوني إيفانز - الذي يتحدث ويتحرك مثل أي إنسان آخر، ولكنه لا يزال سرًا غامضًا بالنسبة للآخرين.. بعض الناس يقولون إنه نحيف وودود وخجول، ولكنهم لا يعرفونه على حقيقته؛ لأنه لا يدعهم يعرفون حقيقته؛ ولأن ذلك سوف يعني وقوفه عاريًا، وقد يبدو أنه لا يظهر مثل الآخرين، وإنما يختلف عنهم، بخجله وحيائه.. يا له من إنسان عجيب! إن الناس يميلون إليه بطبعه وحيائه، ولا يتأثرون بأفكاره الجنونية.

إنه لا يرضى بالتحدث عما يعتمل داخل نفسه، ليس حتى بشأن الطريقة التي يمتلئ صدره فيها بالأشياء والعوامل حينما ينهض وينظر

إلى المنطقة، وكيف كان قلبه يتحول ويدق حينما يشم رائحة المعسكر، أو أصوات الإوز البري الذي أقام عششه على طول ضفة النهر، سوف يعرف في هذه اللحظة أنه لا يستطيع أن يجعل الأشياء الطيبة تنتظره، إنه لم يستطع أن يقود الماشية في الشمس الحارقة أو في الرياح التي تعصف بقوة، أو تحت وابل الأمطار وفوق الأوحال العميقة. كان يعرف كل شيء وهو يقوم بتنفيذ أعماله أو يذهب إلى الماء أو يسير في جماعات أو يقوم بتشحيم محاور العربات، كان من أسرارهِ أن يعرف أنه يعرف أشياء كثيرة خزنها في رأسه، ولكنه كان يستيقظ في الليل على أصوات عواء الذئاب أو صفير الرياح، كانت الطيبة تنعكس في طبائعه مثل أي شيء يستطيع أن يختزنه داخل نفسه.

ربما يواجهون الهنود في الغد -البويز ذوي الشعور المعقدة أو شينيز أو الأراباهوز أو السيوكس- الهنود المحاربين الذين يخططون أنفسهم بالألوان الحمراء والسوداء.. لقد جاءوا يتدفقون إلى البراري ويتجمعون حول العربات وينظرون إليها وهي تكوّن دائرة مكتملة، في حين بدأت النساء يصرخن والرجال يفحصن البنادق، كانت الرياش تغطي رؤوس الهنود، وتميل بفضل الرياح القوية التي تصفّر في الأذان.

فقال ديك سمرز:

- اثبتوا.

وكان يرقد فوق الأرض ومعه بندقيته وبجواره براونى.. وكان الرجال الآخرون قد وزعوا أنفسهم في مراكز مختلفة، في حين كانت

النساء تجلسن هن والأطفال داخل العربات خائفات يرتعدن ووجوههن
بيضاء كالحبة.

وقال ديك، وعيناه الرماديتان الباردتان تنظران من خلال ماسورة
البندقية:

- إنهم لا يستطيعون الدخول بيننا، ولكنهم سوف يحيطون بنا في
شكل دائرة.

وقال براوني:

- طبعاً.. لا.

فأدار ديك رأسه ونظر بعمق إليه وابتسم نصف ابتسامة، وهو يرى
عيني براوني الباردتين ويده فوق بندقيته.

كان الهنود يصرخون صرخاتهم المعهودة، في حين كانت حوافر
الجياد تزداد حدة، وفي هذه الأثناء تحدثت بندقيتان فقتلتا جوادين
هنديين، فأزعجتهم هاتان الطلقتان وجعلتهم ينطلقون كمجموعة من
الطيور، ثم عادوا وكونوا دائرة كبيرة حول العربات، ولم يكن يبدو منهم
سوى الرؤوس أو الأقدام أو الرماح.

وأعاد براوني بندقيته الفارغة خلفه، وقال بصوت حاد مثل طلقات
الرصاص:

- بندقية.

فسمع صوتاً خلفه يشحن البندقية ويقدمها إليها، ويقول له:

- ها هي ذي.

فنظر إلى الخلف نظرة سريعة ليرى أن ميرسي ماك بي هي التي قامت بشحن هذه البندقية الفارغة، فقال براوني:

- اخفضي من رأسك يا ميرسي.

ولكنها استمرت تشحن البندقية، في الوقت الذي مرت السهام من حولها بقوة عنيفة.

وأخذ ديك يعد:

- اثنان.

- اثنان لي أيضًا - بندقية!

- ثلاثة..

- ثلاثة - بندقية!

كان ذلك أكثر مما اعتقده الهنود، ولم يكن يبدو أنهم قد شاهدوا ذلك من قبل، لذلك قاموا بالانسحاب، وبدأوا يتلاشون في المسافات البعيدة، وقال سمرز:

- إنك لخير صائد بالبندقية.

وهذا ما جعل براوني يميل أكثر من قبل لديك سمرز، وبدأ يقلده في كيفية وضع سرجه، وفي النظرة نفسها، والابتسامة نصف الحزينة التي أظهرت أقل مما قد يفكر فيه.. أصبح يحاول تقليد ديك سمرز، ولكنه كان أصغر في مظهره، وبدأ الرجال والنساء ينظرون إليه وهو يمتطي جواده بجوار ديك ويستمتع إليه وهو يركز على بندقيته وهو يفكر؛ كم كان يسير كالغلام، وسمع البعض وهو يقول:

- هذا هو براوني إيفانز يسير وراء ديك سمرز.
- كانت الماشية تنحدر فوق منحدرات الشمال الملاصقة للنهر، وكان الرجال يحصون أعدادها، ولكن سمرز قال:
- اترك هذه للرجال يا براوني إيفانز، سوف تحصل على كمية من الطلقات فيما بعد، إننا في حاجة الآن إلى اللحوم.
- ثم تحول جانباً واستمر يقول:
- التقط الرمح والسهم يا براوني.
- لم يعرف المستر تادلوك ماذا بشأن البقول؟ وكيفية صيد الجاموس البري؟ لذلك قال:
- قوس وسهم.
- بالتأكيد.
- قوس وسهم.
- يطلق القوس السهم بسرعة كبيرة أكثر من الحديد.
- وقال براوني للمستر تادلوك:
- طلقة واحدة من البندقية، وينتهي كل شيء، ولكن في الوقت الذين تقوم فيه بشحن البندقية، يكون الجاموس البري قد انطلق مسافة تبعد أربعة أيام من المسير.
- ثم ركبا جواديهما، وانطلقا تاركين مستر تادلوك يردد في دهشة:
- قوس وسهم!

واتجه الركب نحو سهل بلات، الذي كانت تهب منه رياح عالية،
وساروا ببطء وسط الأعشاب النامية والمرعى، كان هناك ضباب من الغبار
فوق الجاموس البري؛ وذلك بسبب الأقدام المتزاحمة، وكانت الأتربة
تتزاخم تحت وطأة الأقدام، كما لو كانت أمواجًا متلاطمة تثير الأعين.
وقال ديك:

- هل أنتم مستعدون؟

واندفعت الجياد بأقصى سرعتها، وكان الصيادون ملتزمين الصمت
التام، في حين كانت موجات الأتربة تندفع بقوة كما لو كان هناك سد قد
انهار وتدفقت منه موجات ضخمة متلاطمة. كانت الحيوانات الكبيرة
هي التي تخلفت وأخذت تحملق بأنظارها المليئة بالغباوة والغضب، ثم
تشور وتقفز مبتعدة، وتعود مرة أخرى كما لو كانت ترغب في التحدي.
وخرجت من فم ديك صيحة قوية وحشية وغريبة، كما لو كانت
صيحة الحرب، فالتقطها براوني ولكز جواده بمهماز واندفع بقوة وسط
الجاموس من فتحة أوجدها تجمعها. كانت قرون هذه الحيوانات
تتخبط بعضها في بعض كما لو كانت حرابًا تتلاطم في الرياح، وكان
صدى أصوات الأقدام يتردد بصورة مخيفة، في حين ارتفع الغبار
الكثيف ليغشي الأعين، وليخفي ديك عن الأنظار وغالبية الأبقار،
ماعدا القليل منها الذي يوجد في أقصى اليمين، كان صوت أطلاف
هذا الجاموس يشبه الرعد.

فسحب براوني القوس التي كان يعلقها في ذراعه، ثم شد فيها
سهامه فانغrust في جسد بقرة سمينية من هذه الأبقار البرية، فأبطأت

البقرة سيرها وتعثرت في مشيتها ثم اختفت.

استطاع بهذه الطريقة أن يقتل خمس بقرات سمان، ثم تبخر بقية القطيع، فجذب جواده واتجه من خلال الغلاف الترابي إلى حيث يكمن ديك، فشاهده أخيراً يندفع وراء بقرة تسير بجانب بقرتين أخريين وثور وعجل صغير، ثم شاهد الجواد يتعثر في اندفاعه ليسقط ديك بقوة فوق الأرض، فرقد ديك دون حركة، فتوقف الثور وأخذ يدق الأرض بقدمه، وأمّارات الشر تبدو من عينيه تمهيداً للاتجاه إلى ديك.

لم يكن هناك أي وقت للتفكير.. لكز براوني جواده واندفع بسرعة تجاه هذا الثور وأطلق سهمًا قويًا إلى الثور الذي كان قد اقترب من ديك، فخارت قوة الثور بعد أن اخترق السهم قلبه، وسقط الثور على مسافة قدم واحد فقط من ديك، وكانت الدماء تتدفق من فمه حارة، فنظر ديك حوله بعد أن أفاق ليرى أنه لم يصب بسوء، بل مجرد شعور بضعف القوى وجرح بسيط، وقال:

- إن أقل ما أقدمه إليك في المحافظة على حياتي هو شكري العميق.

ثم ركبا إلى المعسكر، في حين نظرت إليهما النساء والرجال مشدوهين، وكانت إحدى هذه النظرات موجهة من ميرسي ماك بي، التي كانت تقف في جانب من الجوانب، كان الجميع يرقصون.. هذا ما كان.

لقد كانت ميرسي وآل باتش وبيرد، والمستر ماك، وبوتر، يرقصون، في حين كان هيج يعزف بعض الموسيقى الرفيعة، ثم توقف الجميع

وأخذوا يحملقون، وكان من بينهم ميرسي ماك بي التي أزاحت يد المستر ماك عنها، في حين كان الصيادان الجسوران يمران، وانكست على فمها ابتسامة طفيفة تحمل معنى الإعجاب والكبرياء، ولكنه لم يرد على ابتسامتها؛ إذ كانت أمارات الجدد والحزم تبدو على وجهه، وهو في وضع مثل هذا الوضع، وكان يشعر في قرارة نفسه بأنها تدرك الحال الذي هو عليه.

* * *

- إننا في حاجة إلى «شبس» روث الجاموس الجاف؛ لأنه سوف يساعد والدتك كثيرًا.

فردت عليه الأم موجهة الكلام إلى الأب:

- لا تسأله أن يقوم بالتجميع والخلط وحلب الأبقار.

- لا أقصد أن تأخذها مأخذ الصعوبة والتعقيد.

- إن حلب الأبقار ليس مشكلة، إنه مجرد مسألة عادية.

فقال براوني وهو ينزع السرج من فوق ظهر الجواد الكبير «نيللي» ويضعه بجوار العربلة:

- حسنًا.

وجاء روك (الكلب) مندفعًا بين أرجل الجواد المبتلة، وكان الرجال والنساء يعملون حول العربات وينزعون الصناديق وينصبون الخيام، ويشعلون النيران.

وجاء والد براوني، حيث يقف الابن، ثم قال:

- إنني لن أموت، سوف أتولى تثبيت الأوضاع مع كل فرد.
- لقد قمت بحلب الأبقار.
- إنني لا أقصد القيام بالحلب، إنني أقصد جمع «الشبس» الروث.
- لقد قلت إنني سوف أقوم بذلك يا بابا.
- إنها تقلقك لأنها جديدة عليك؛ ولأنك لم تتعود على ذلك.. قم من غير أن تفكر في شيء.
- ووضع الوالديه فوق كتف ابنه براوني فشعر بدفته وقوته، وظهرت ابتسامة متسائلة في وجهه، كما لو كان يحاول أن يستشف ما يعتمل داخل براوني، ورد براوني على قوله ولم ينظر إليه، بل كان ينظر إلى والدته التي كانت تحاول استخراج القدر من داخل الصندوق، فقال:
- إن ذلك لا يقلقني يا والدي.
- إذن لم يكن عندك أي اعتراض، سوف أقوم بهذا العمل بنفسي، وأنت تتولى تثبيت الخيمة.
- فهز براوني رأسه بالرفض، ولم يكن أمامه أي مخرج من ذلك إلا تجميع روث الجاموس الجاف، كان يشعر بالخجل من هذا العمل، ولكن كان من المخجل أن يظهر خجله أمام والده، كان اللجام حتى ذلك الوقت معلقاً في نيللي (الجواد)، لذلك قرر أن يمتطيه ويتجه إلى حيث كان القطيع يرعى ليلتقط بعض الروث الجاف ويضعه فوق ظهر الجواد ويعود به، وقد لا يراه إلا القليل من الأفراد.
- كانت العملية مليئة بالصعاب، أن يكون خجلاً من الخجل نفسه،

وأن يكون خجلاً في حد ذاته، ليس بشأن جمع روث الجاموس البري، ولكن بسبب عدم وجود أي شجيرات في وادي بلات العاري يستطيع أن يختبئ خلفها. إن الناس يخشون أن يقيموا شجيرات في هذا الطريق خوفاً من اختباء الهنود خلفها، كان بعض النساء يمتلكن بعض أواني دورة المياه داخل العربات، وبعضهن كن يذهبن بعيداً إلى العراء، وكان أحد الرجال يقوم بحراستهن من بعيد؛ ليرقب الطريق؛ خوفاً من وقوع أي هجوم عليهن.

كانوا يفكرون في نظام، وكانت النساء تفكرن في ذلك أيضاً في اجتماعات يعقدنها في الصباح والظهر والمساء، فكن يجتمعن في حلقات، في الوقت الذي يجتمع فيه الرجال حول العربات وينغمسون في أعمال خاصة.

وتناول براوني حبلاً في يده وانطلق ممتطياً ليللي، وربما لم يكن هناك أي فرد يجعله يشعر بالرعب والخجل، وقد فوجئ في أثناء سيره بالنساء يتجهن في العراء لقضاء حاجاتهن كبقية البشر، في حين كان الرجال يقفون على مسافة بعيدة شيئاً ما يرقبون الطريق؛ خوفاً من أي هجوم مباغت، وحينما فكر في هذا الوضع ابتعد عنه الشعور بالطيبة والرضاء.

ثم قام بفك الحبل ولفه حول وسطه، وعقد طرفه تاركاً يديه حرتين. كان الروث جافاً من سطحه ومبتلاً من أسفله، وكان ينتشر بكثرة فوق الأعشاب الجافة الصفراء وتحتها الكثير من الحشرات الرفيعة التي تجري بسرعة؛ لتبحث لها عن مأوى، حينما رفع هذا الكعك الجاف من الروث،

كان يرغب في الوقوف لمراقبة هذه الحشرات، ولكنه خشي أن يراه أحد. كان هناك غيره ممن يقوم بهذه العملية مثل ابنة بروور الجافة الشعر وأخويها، وجو تورلي، وجيف بيرد، وجود شيلدرز، وهاري جورهام، واثنين أو ثلاث من آل دورتي. كان هناك بعض الرجال الذين ليست لهم عائلات؛ لذلك كان يجب عليهم أن يقوموا بهذا العمل بأنفسهم، مثل الأخ ويذربي الذي قال إنه ليس على الإنسان أن يشكو، وأن يشكر الله أن أوجد له هذا الروث لإيقاد النيران. كان الأخ ويذربي يجمع (شبس) الروث ببطء وتؤدة، وربما كان يصلي في قرارة نفسه، وهو يقوم بهذا العمل.

كان كل شيء هادئًا هادئًا تامًا، ولم يكن براوني يسمع أي شيء إلا همسات طفيفة تأتي من بعيد، حيث يرقد المعسكر، وذلك بالإضافة إلى صوت كعك الروث الذي ينتزعه من فوق الأعشاب. كان نصف الشمس قد مال إلى المغيب، وكان الأطفال قد بدأوا يلعبون بقذف بعضهم بعضًا بالروث، حتى ناداهم آبائهم مطالبين إياهم بالحضور.

واستمر براوني يلتقط كعك الروث واحدة وراء الأخرى، حتى أصبح ما يحمله سميكا. كان ديك سمرز قد استمر يقول، في خلال اليومين اللذين استمر العبور فيهما من السهل إلى النهر، إن كعك الجاموس البري يعني الجاموس البري نفسه، كان الركب يسير وحوله العظام منتشرة والجماجم والأرجل، وكان بعضهم موزعًا بطريقة دائرية، وهنا قال ديك إن هذه عظام بعض الآدميين الذين قتلهم البونيز، أو الذين ماتوا من الآلام نتيجة لإصاباتهم.

واستمر براوني يلتقط المزيد من الروث الجاف وهو لا يعبر أي إنسان أي اهتمام، وبعد فترة شاهد ساقاً تقف على مسافة خطوات منه، كانت ساق ميرسي ماك بي، التي لم تره من قبل، فأصابتها الدهشة لوجوده، واستطاع براوني أن يشاهد أصابعها الصغيرة وهي تنحني.. لم تتحدث أو تغض من طرفيها، ولكن الدماء اندفعت حارة إلى وجنتيها.

لم يستطع أن يفكر في أي شيء يقوله، وشعر بالحرارة ترتفع في وجهه، ولكنه ظل ينظر إليها وإلى عينيها السوداوين والوجه الأبيض الذي يحوطه إطار من الشعر الذي تحركه الرياح إلى الخلف وتعبث به. وشعر شعوراً مبالغاً وجنونياً بأنه يرغب في أن يصل إليها ويلمسها كأني شخص يرغب في أن يلمس شيئاً صغيراً وخائفاً.. كان يرغب في أن يحنو بيده فوقها، وكان يبدو أن لمسة واحدة سوف تؤدي إلى ذوبانهما في حالة من التفاهم تنزع عنهما الخجل، وتغلفهما في إطار من الرقة الخالية من الكلام. ثم قال لها:

- أعتقد أنه يجب عليّ أن أحمل هذا الحمل.

فنظرت إلى أسفل وغضت من نظرها وانحنت قليلاً، فسقطت كعكة من الروث من أسفل يدها وتعلقت بطرف ثوبها البالي، وبقيت على هذا الوضع، وشعر بالكلمات التي نطقها تعود إليه مرة أخرى.. كانت كلمات جوفاء، وشعر بأنه يقف عارياً بيدين وقدمين كبيرتين، وبلحية صغيرة متناثرة بدأت تظهر على وجهه.. شعر بأنه لا يستطيع التصرف كما لو كان جباناً قد فقد طريقه وسط الأحلام السخيفة.

ثم خطا خطوتين إلى الأمام، وأدار رأسه فيما حوله، وقال:

- أستطيع أن أتولى ذلك نيابة عنك.

فرمقته بنظرة سريعة بسيطة، لم يستطع أن يفهمها، ثم استمر يقول لها:

- سوف أكون مسرورًا لذلك.

فردت عليه قائلة، وهي تستدير من غير أن تشكره:

- أستطيع أن أقوم بذلك بنفسى.

ثم سارت فى طريقها، وعادت فتوقفت تملؤها الشفقة والعزة والكرامة معاً، وانحنت لتلتقط روث بقرة جافاً.

وفجأة استطاع أن يفهم، وهو يراقبها، شيئاً عنها، استطاع أن يرى فى ذهنه هنرى ماك بى، الكبير، ولحيته القذرة، وثورته الأعجف، وجواده النحيف الذى يجر العربى التى تجلس بداخلها مسز ماك بى، ومعها مجموعة دواجنها بأصواتها المرتفعة.

استطاع أن يتصور أنها كانت تشعر كما لو كانت حية قد عضتها، وتصور نفسه يسرع إليها ليطيح برأس الأفعى وسط الأعشاب وهى لا تراه، ثم قفز إلى أعلى وهو يتصور ذلك، فعاد إلى رشده، فوجد نفسه متجهاً إلى العربى يتبعه كلبه «روك» وهو مندهش، ولكنه ظل ينظر إليها ويردد اسمها:

- ميرسى.. ميرسى.

وجاءت إليه فى أحلامه.. جاءت لتحنو عليه وتلاطفه، وأثار الدموع باقية فى مقلتيها، فاحتواها بين ذراعيه -وشعر بالقوة تطغى عليه والنهم يعتريه ويدفعه، فشعر بخجل من عنفه وقوته.

الفصل الثاني عشر

وقف تادلوك بجوار عربته وقال بحدة، وهو ينظر إلى أسفل:

- مارتن.. أنت يا مارتن!

ثم انتصب في وقفته ينتظر الإجابة، وهو يعتقد أن خطراً ما قد وقع..
لم يكن مارتن قد آوى إلى فراش طوال شهر من السير في الطريق، بعد
أن أطلق الحراس طلقات الساعة الرابعة.

- مارتن.

كان الفجر قد بدأ ينبلج في الشرق بعيداً في وادي بلات الضحل،
في حين كانت مياه النهر تتألق هنا وهناك وتعكس الأضواء.. وكان الليل
حتى ذلك الوقت ينشر ظلامه على الكون، ولم يكن يقشع هذا الظلام
سوى بعض النيران القليلة التي بدأ بعض الناس في إشعالها، وبدأت
رائحة دخان المعسكر تتسرب إلى الأنوف.

- مارتن!

لم يستطع أن يحاول البحث عن الرجل، ولم يستطع أن يرى سوى
جزء من غطاء العربة الذي اعتاد مارتن أن يستخدمه كغطاء، أو أن يصنع

منه خيمة على حسب نوع الليلة؛ معتدلة أو مليئة بالعواصف.

فتقدم تادلوك وأمسك بيده طرف الغطاء، ثم جذبه وصاح قائلاً:

- ما الذي يحدث هنا؟

فتحرك الجسد النائم، ثم اعتدل وجلس، وجاء صوته ليقول:

- إنني مريض.. يا إلهي!

- اخرج من هنا إذن.. يجب أن نعد لك سريرًا في إحدى العربات.

ولكن تادلوك لم يتلق أي رد، وظن أن مارتن يفكر في هذا الأمر، ويسأل نفسه بضعف عمّ إذا كان قادرًا على الوقوف اليوم، ثم صاح تادلوك في ضيق حاد:

- لقد كنت سليمًا الليلة البارحة، وأخذت دورك في الحراسة!

ثم رفع السوط الذي في يده وضرب به الأرض ولعن الحظ، لقد وصلوا الآن إلى جزيرة برادي بعيدًا بما فيه الكفاية عن منطقة بلات.. كان الطريق صالحًا ومليئًا بالجاموس البري، وكان جوه حسنًا، والآن يسقط أحد الرجال مريضًا! بدأت الشكوك تساوره مرة أخرى، في حين كان الفجر يزحف في طريقه إلى نور الصباح، وبدأ الشك يتزايد باضطراد بأن مارتن يدعي المرض أكثر مما هو عليه في حقيقة الأمر.. إن بعض الناس قد يبالغون في وعكة بسيطة، وبخاصة إذا كانوا سيتحولون أو يرغبون في الابتعاد عن المشكلات والصعاب التي قد يواجهونها بسبب الهنود، ولم يكن الركب يرغب في الوقوف وإقامة معسكر، ولكن بعض الأفراد، مثل تورلي وزوجته، وبيرد، قد بدأوا يصيحون.

مخاطر! سوف لا يواجهون إلا القليل منها، لقد هزموا، إن ماك يشبه المجنون، هذا ما أخبره به تادلوك بعد أن أطلق نيرانه على الهندي المسكين.. فقام وفد من «الكوز» بالمطالبة بالقاتل، ولكن تادلوك استطاع أن يعالج الوضع بحكمة؛ إذ قام بتقديم لفائف من التبغ وبعض المأكولات والملابس والأشياء الأخرى، أما بقية الرحلة فلم يشاهدوا فيها بعد أي أثر «للبونيز» أو «الشيين» أو «السيوكس».. لقد عبروا جميع الطرق في سلام وأمان، ولم يتعرض أي إنسان حتى الآن للمرض أو يشعر بالآلام في المعدة أو الرأس أو غير ذلك، ثم قال تادلوك، وهو يدور حول الدائرة ويسير:

- سوف نحضر لك سريرًا مثبتًا، عليك أن تزحف خارجًا من هنا.
ورفع سوطه حينما كان بعض الأفراد يتحدثون إليه، كانت جميع عرباته محملة ومعبأة كلها، لذلك كان يجب عليه، إذا رغب في وضع سرير بداخله، أن يفرغ جزءًا من الشحنة، ولكنه سوف يتشاور مع ماك بشأنها. ومر في أول الأمر بعائلة إيفانز، ووقف لحظة يومئ برأسه لإيفانز ولزوجته ولديك سمرز، ثم ضمن أن ابن إيفانز يقوم من غير شك بجمع بعض الأشياء.

وقال إيفانز وهو يتنفض:

- إن هذا الصباح يبدو لاذعًا شيئًا ما.

- عندنا رجل مريض.

- من؟

- مارتن.

- ماذا يؤلمه؟

فهز تادلوك كتفيه، في حين تساءل إيفانز:

- ما مدى مرضه؟

ثم استمر تادلوك يهز كتفيه ويقول:

- سوف أقوم بإحضار سرير.

فانتزع سمرز غليونته من فمه وأزاحه جانبًا، ونفث سحابة من الدخان حوله، ولكن هذا العمل ضايق تادلوك؛ لأنه كان من نوع الرجال الذين يميلون في أي وقت للبحث في موضوع المرض، كان يبحث الكلمات لكي يستطيع أن يصف سمرز بها، هل هو غير منظم، أو فوضوي؟ تعود على العيش من غير هدف مثل الوحشيين؟ لذلك وجه حديثه إلى سمرز قائلاً:

- سوف نسير في الوقت المحدد، نحن لا نستطيع أن نتوقف بسبب رجل واحد فقط.

كانت مسز إيفانز تنظف الأوعية التي كانوا يتناولون إفطارهم فيها، ثم التفتت إلى زوجها وقالت:

- ليجي.. من الأفضل أن نلقي نظرة.

فنظر إليها سمرز بعينه الرماديتين اللتين تبدوان بيضاوين في ضوء الفجر، لتعبرا عن موافقته واهتمامه.

ثم قال تادلوك:

- حسنًا، تستطيع أن ترى بنفسك.

فأجاب إيفانز بلطف:

- أوه.. هاه.

ثم وقف، وكان ظله يبدو ضخماً بجانب بقية الظلال التي كانت تتجه إلى الغرب، وشعر تادلوك بنفاد صبره حياله، كما يشعر بالنسبة لأي طفل. كان إيفانز بطيء الحركة في التوجه إلى مكان مارتن، وكان كفتاً ولكن من غير قوة.. ووجد تادلوك نفسه يندهش ويتساءل عمّ إذا كان هذا الرجل قد فقد أعصابه في يوم من الأيام، وما إذا كان قد وصل إلى قرار من غير أي توجيه من زوجته أو من سمرز، ثم قال يخاطبه:

- تعال إذن.

فدق سمرز على مؤخرة غليونه ونهض أيضاً، وهناك تساءلت مسز إيفانز قائلة:

- ألا تعتقد أنه من الأفضل أن تصحب معك بعض الأدوية يا ليجي؟

فأوماً إيفانز برأسه وذهب إلى مؤخرة العربة، وبعد فترة بدت طويلاً لتادلوك، عاد ومعه صندوق صغير.

كان مارتن يرقد كما كان من قبل، ما عدا أنه أصبح ظاهراً، وكان شعره منفوشاً ولحيته نامية، ويبدو الشحوب في وجهه النحيف. وانحنى الثلاثة كدجاجات ثلاث - كما يظن تادلوك - حينما شاهدوا «بقعة» غريبة.

فسأله سمرز:

- ماذا بك؟

فأمر تادلوك:

- اخرج يا مارتن، لن نستطيع أن نشرف عليك ونعالجك وأنت في هذا الوضع، يجب أن نضعك فوق سرير أو محفة؛ لننقلك إلى عربة من العربات.

ففتح مارتن عينيه وأخذ يحملق في الطرف المغطى من العربة، ثم لعق فمه بلسانه، وقال:

- يا رب.

رأى تادلوك أن وجه مارتن قد ازداد احمراراً، وأن عينيه قد عكستا الحمى، ولكن تادلوك استطاع أن يقول بجهد:

- تعال يا رجل.. إنك لا تستطيع أن تبقى حيث أنت.

فقال سمرز:

- أعتقد أنه يعرف أكثر منك.

وفي الوقت الذي كان تادلوك يتحدث فيه، تحرك مارتن، وقال:

- سوف أتولى ذلك.

فنهض على أربع وخرج من أسفل الغطاء وهو يزحف، وحينما خرج رقد مرة أخرى.

فقال إيفانز:

- إنه يبدو في حالة سيئة.

فرد عليه تادلوك قائلاً:

- لن يشعر بأي سوء إذا نقل إلى داخل عربة.

فركع سمرز وساعد مارتن، ثم وضع راحته فوق جبينه، وقال:

- تمهل، لا تخش شيئاً.

ثم وجه حديثه إلى تادلوك وإيفانز، فقال:

- ربما تكون حمى المعسكر.

- ماذا؟

- حمى المعسكر؟ ألا يوجد اسم آخر لها؟

فقال مارتن:

- يا إلهي!

ثم أغمض عينيه، فنظر إليه سمرز وهز رأسه، وكان بعض الأفراد من المعسكر قد بدأوا يتدفقون بسبب منظر الرجال الثلاثة الذين يحيطون بآخر يرقد فوق الأرض، وقال أحدهم:

- ماذا هناك؟

وشعر تادلوك بوجودهم خلفه، ولكنه لم يتحول أو ينطق. كان يرغب في أن يبتعدوا؛ لأنهم سوف يعبرون عن آرائهم. كان البعض يرغب في الذهاب والابتعاد، وكان البعض الآخر يرغب في البقاء، والبعض الثالث لا يعرف هل ينصرف أو يبقى ليعالج الرجل، وكانت النتيجة أن ظل الوضع مائعاً لا نهاية له حينما كان لزاماً عليهم أن ينقلوا مارتن إلى العربة للبدء في السير. وفي هذا الوضع أجاب إيفانز عن أسئلتهم قائلاً:

- إنها حمى المعسكر.

فسأله صوت نسائي:

- هل هي معدية؟

فرد تادلوك بعنف قائلاً:

- كلا.

وفتح مارتن عينيه وانتقل بهما بين مختلف الوجوه، كما لو كان يأمل أن يجد في وجوههم إجابة لمشكلته وللمحنة التي يعيش فيها. وأخذ تادلوك يدور في مكانه، وصاح:

- اذهبوا واستعدوا؛ لأننا سوف نتحرك في خلال دقائق.. إيفانز، هلا أخذت جزءاً مما أحمله حتى أستطيع إعداد السرير، سوف نتولى تمريضه والإشراف على ذلك، ثم نسير في طريقنا.

فرد إيفانز قائلاً:

- أعرف ذلك يا تادلوك.

- تعرف ماذا؟

- أعرف ما يجب أن تفعله.

- إنني هنا القائد، وإنني أنا الذي أتحمل المسؤولية.

وجاء صوت جاف من خلف تادلوك، عرف فيه صوت باتش، وهو يقول:

- سوف نشترك جميعاً، أنت تعرف ذلك يا تادلوك، وكذلك يشترك

جميع الرجال الذين تستأجرهم.

- من قال إننا لن نفعل ذلك؟ إننا سنكون جميعاً حينما يتم نقله إلى
العربة.

فتحدث إيفانز قائلاً:

- إن هذا ليس ما يعنيه باتش.

وأمسك تادلوك بالكلمات التي كادت تخرج من بين شفثيه ليقول..
الأغبياء! أيها الأغبياء إنكم تعملون الآن كما لو كنتم تقضون وقت
فراغ، ونظر إليهم واحداً تلو الآخر - إيفانز، ثم سمرز، ثم باتش - يحاول
أن يخضعهم لسيطرته، ولكنه قرأ في أعينهم صلابة في الرأي وغباوة،
وأصبح يعتقد أن الأمور تتطور لتصبح مشكلة، أصبح الموقف حساساً،
بضع كلمات أخرى ويتم وضع الخطوط. أما الآن فإن السلطة تواجه
خطرًا وتعرض قيادة الركب لهزة.. فإذا خضع لهم فإنه يكون انهزم
أمامهم.

وشعر بحركة بجانبه، فتحول ليرى مسز ماك بي، وكانت امرأة
ضئيلة الجسم تلبس ملابس ممزقة مثل الساحرات، وقد جاءت لتقول:

- إن دواءً يهودياً.. إنه يصلح لأي شيء.

فأزاحها جانباً وهو يقول:

- حسنًا.. إيفانز تول أنت تمريضه وعلاجه.

فقال إيفانز بلهجة جعلت تادلوك يشعر بالدهشة بسببها:

- إن ما أريد أن أفعله هو أن أرى كل فرد يفعل الشيء المناسب

ويراعيه، يجب أن نرعى مارتن، لن أستطيع أن أضعه طوال الرحلة في عربة مغلقة.

- هل ترغب في أن أقرب منك مؤخرة العربة؟

- إن كل ما أريده هو أن أرى رعاية كاملة بشؤون مارتن، أو أي فرد آخر يسقط مريضاً.

فأمسك تادلوك نفسه، وحول الحديث قائلاً:

- إن هناك نقصاً كبيراً في الأعشاب بسبب الجاموس البري، سوف أكون قصير النظر إذا تركت مجموعات أخرى تسبقنا.

فرد عليه سمرز قائلاً:

- لسنا الأوائل على أي حال، فهناك البعض ممن يتقدموننا.

- حفنة قليلة إذا كان هناك مثلهم حقيقة بالقليل من المؤمن والمعدات، ولكن هل بسبب وجود من يسبقنا، يجب أن نترك البعض الآخر ليتقدمنا ويسبقنا؟

كان سمرز يمسك فم الغليون بأسنانه، وتحدث بجانبه من فمه ببطء ليقول:

- إن حمى المعسكر تؤلم العظام بصورة بشعة.

فقال باتش:

- إنني أوافق على البقاء هنا إلى أن نشعر بأن مارتن قد تحسن.

وهنا سمع تادلوك همهمة الموافقة من جانب الجمهور الذين يزيد

وقت مناقشتهم، كانت عيون الجميع مركزة عليه في صورة اتهام، حينما شعر الجميع بأن هذا الموقف هو لصالح الركب بأسره. إن النظام هو الشيء الذي يقوم عليه أساس السلوك، وقت معين للنهوض، ووقت للسفر، ووقت للنوم، ونظام لقطع مسافات معينة في اليوم، كل رجل يؤدي واجبه اليومي المحدد، كل فرد ينفذ أوامر السلطة، بهذه الطريقة سوف يصلون إلى أوريجون بسلام وبسرعة، وسوف يستطيعون سباق أي مجموعة أخرى، ولكن هؤلاء الرجال لا يفضلون النظام أو التنظيم، إنهم لا يستحقون القيادة التي قدمها لهم.

وبدأت أعصابه تثور لهذا التفكير، لذلك قال:

- سوف نتحرك، هل تسمعونني؟ إنني أقول إننا سوف نتحرك.

ولكنهم لم يتحركوا، بل ظلوا ساكنين ينظرون إليه بغباوة وصلابة رأي، إلى أن قال إيفانز:

- أنت تعرف يا تادلوك، كما نعرف نحن، أن هذا الأمر يحتاج إلى عقد المجلس.

- المجلس؟

- دع المجلس يقرر.. ليرى ما إذا كنا نتفق أو لا نتفق.

- يا إلهي!

- وفي الوقت نفسه لن أتحرك من مكاني.

وأضاف باتش قائلاً، ووراء همهمة الموافقة مرة أخرى:

- وأنا كذلك.

كان يبدو أن تادلوك يلعنهم لو أن يده مسألة الإشراف على المجلس.. كان بروور، وماك، وفيرمان يقفون بجانبه مؤيدين.. سوف يفقد الركب الوقت الذي سوف يستغرقه الاجتماع وهو أمر يؤسف له، ولكن قد لا تبدي هذه الرؤوس أي استعداد للتفاهم ومناقشة أوامره، لذلك قال وهو يضحك منهم:

- ابقوا حيث أنتم إذن.. سوف نتحدث ونحن في طريقنا إلى أوريجون.

وتقدم إيفانز إلى جانب الرجل المريض، فأخبره تادلوك:

- أملك وقت كاف.. لا داعي للعجلة، إننا سوف نذهب فقط إلى حيث توجد مدينة أوريجون.

ثم أضاف قائلاً:

- سوف يجتمع المجلس في خلال ساعة.

وأخذ يراقب الذين عينوا أنفسهم بأنفسهم فترة بسيطة في حين ينقلون مارتن فوق سرير مناسب داخل خيمة، ويتشاورون فيما بينهم على أن «شربة الملح» هي خير دواء لذلك.. كان هناك كثيرون ممن يرغبون في تقديم المساعدة من أدوية تقوية الدم، أو بلسم الحياة، أو المليينات، أو غير ذلك من العقاقير.

وبعد ذلك تركهم تادلوك ليناقش الموضوع مع ماك وفيرمان قبل عقد المجلس.. كان قد قرر عدم عقد المجلس على أساس أنه من المستحيل عقد هذا المجلس الخاص في هذا العراء.. وكان يعرف أن

أي اجتماع بأشخاص معينين بصفة فردية في هذا المكان المكشوف سوف يثير الشكوك بأن هناك نوعاً من المؤامرة، ولكنه قرر أن يجتمع بفيرمان وماك على الرغم من ذلك، ووضع ماك بي للرقابة.

وحينما سأله ذلك خرج بكل ثقة، وسوطه في يده يضرب به الأعشاب بقوة وهو يشعر بعظمة وتقدم.. وكان هناك على حافة النهر خمس أو ست من النساء يغسلن الملابس في المياه الرملية، كانت اثنتان منهن تمتلكان لوحين من الخشب، في حين كانت الأخريات يعصرن ملابسهن بين أيديهن، أما القطع الكبيرة فيضربنها فوق إحدى الصخور التي نشأت من شيء يعرفه الله. كان هناك بعض الرجال، الذين لم يحضروا موقف مارتن، يتحدثون، في حين كان الأطفال يعدون بينهم.. كان تادلوك يعرف معرفة تامة أنهم يتحدثون عنه وعن مارتن، وعمّ يجب فعله، حسناً إنه يستطيع أن يخبرهم بذلك.

وبعد ذلك شاهد تادلوك سمرز يقف بجواره، كما لو كان وعلاً عجوزاً، في الطرف الأعلى من المعسكر وهو ينظر إلى الغرب.. فسار تادلوك نحوه، وابتدأ الحديث قائلاً:

- إنني لا أستطيع أن أفهمك يا سمرز!

فاستدار سمرز نصف دورة، وكانت يداه ممسكتين ببندقيته، في حين كانت قاعدتها مرتكزة على الأرض.

- إنني أحصي المسافة، هذا هو كل شيء.

فأجابه تادلوك وهو يعرف أن سمرز يعرف أنه لا يفعل ذلك.

- إنني لا أعني ذلك.. يجب علينا أن نستمر في سيرنا.
فنظر سمرز إلى الشمس التي أصبحت في الأفق الشرقي، وقال،
وأمارات الجدد تبدو على وجهه:

- أعتقد أننا لا نستطيع أن نقطع أكثر من ثلاثة أو أربعة أميال.
فالتقط تادلوك فكرة مما يضايقه، وقال:
- لعنة الله على ذلك، إن هذا ليس وقتاً للهو والهزل.
فأجابه سمرز، وقد بدأ الوميض والبريق، الذي لمع في عينيه، يزول
ويختفي:

- إنني لا أقول ذلك ولا أفكر في الأميال بدلاً من مارتن.
- إن رجلاً واحداً ليس هو الراكب كله.
- لم أكن أعرف أنك تعرف ذلك.
- ماذا تعني؟
- ألسنت أنت الكل بمفردك؟
- أنت المرشد يا سمرز.. وهذا هو كل شيء.

وكان تادلوك يتحدث بقصد، ويريد أن يثير الرجل كما لو كان يدعو
لمبارزة تريحه من الشعور الذي يطغي عليه، وانتظر، وكان السوط في
قبضته يرتفع ويهبط بحدة.

وتحول سمرز لينظر بعيداً، إلى النهر وإلى الجزيرة التي تقف وسطه
ملئية بالأشجار والأخشاب، ثم قال بطريقة استهتارية جعلت تادلوك

غير مستعد لسماع الباقي:

- هذه هي جزيرة برادي.. لقد أطلق عليها رجل، يدعى برادي، اسمه.. كان ذلك في عام ثلاثة وثلاثين.

وعادت نظرات سمرز لتستقر على تادلوك، فظن تادلوك أنها تمتلئ بالبرود وبالتعبير القاتل الذي يشعر به الحيوان وهو ينتظر موته، ولم يكن يعرف حتى هذا الوقت مدى خطورة وأهمية المرشد، لم يكن خائفًا، ولكنه شعر بالراحة حينما رفع سمرز بندقيته وتحرك. وظل تادلوك في مكانه ليراقبه وهو يتعد.. كانت مشية سمرز هادئة وسهلة مثل مشية الهندي، وكان شعره قد بدأ ينمو من الخلف بدرجة جعلته يشبه طريقة الهنود أيضًا.

حسنًا، إلى حيث لا رجعة.. هذا ما فكر فيه تادلوك.. ولعنة الله على نظراته التي تمتلئ بالعداوة أو مهما تكن. إن النظرات لا تؤذي.. إن أي إنسان يستطيع أن يتجاهل مرشدًا نصف وحشي.

كان القلق الذي يعتريه يدفعه إلى التحرك، فتقدم نحو الغرب تاركًا نظره يجول في الأرض التي شملها ضوء الشمس، في حين كان ذهنه يعمل في مكان آخر.. كانت أمامه آثار عربات المهاجرين الذين نزحوا عام ١٨٤٤ وما قبله.. لا شك في أنهم قد واجهوا الكثير من الصعاب أيضًا، وكان من بينهم الكثير من المتهورين والمجانين الذين لا يستطيعون القيادة، بل يعملون على تعطيلها.

وشاهد عبر النهر مجموعة من الجاموس البري، فحاول أن يتكهن ببعد المسافة التي تسير فيها هناك في هواء بلات الذي لا يمكن قياسه

وتقدير مجاله. إن مجرد الانتقال إلى الضفة الأخرى من النهر قد يستغرق يوماً كاملاً، وكانت هناك مجموعة تبعد نحو نصف ميل قد تكون هدفاً سديداً للبندقية، أما التفاصيل فقد بقيت بعيدة خلف تلال الرمال وحدود النهر المائية. فكر تادلوك أن هذا الهواء النقي الصافي قد جعل العالم صغيراً وكبيراً في وقت واحد؛ صغيراً لأن العين قد لمستّه، وكبيراً لأنه كان يبدو عظيماً وبعيداً. وكانت الأصوات تختلط بعواطف الإنسان، وكانت كل ضوضاء تبدو قريبة وواضحة في الليل.. أما في النهار، فإن صوت البندقية يبدو ضعيفاً وواهنًا.. لقد كان عالمًا غريباً وشاذًا.. إنه يتطلب الحزم والإدارة.

لقد أظهر الصفات التي يتطلبها الوضع، احتفظ باستمرار سير الركب، استطاع أن يدير بنفسه، إنهم يدينون له، وبدلاً من ذلك دفعوا له الدين نقدًا وتجريحًا. خذ مثلاً اليوم الذي أطلق فيه ماك البندقية على الهندي، واليوم الذي تلا الهزيمة، وحينما ظهر ضوء النهار قام سمرز بقيادة عدد من الراكبين لصيد الجاموس المنطلق والمتفرق.

وهبت صباح هذا اليوم عاصفة، تبعها مطر عنيف طوال اليوم، جعل الأرض تبدو كأنها قد دهنت بالأوحال، مما أدى إلى انغماس العربات، كان المطر باردًا يليه نسيم قوي لافح.

كذلك قام قادة العربات بالإسراع داخلها احتماء بها، ولكنهم شعروا بزيادة البرودة فخرجوا منها وساروا في الطرقات، وقد ثقلت أقدامهم بالأوحال، ولكنهم استمروا.. كانت هذه هي النقطة، وكانت النساء يقدن العربات ومعهن الأطفال، واستمر الركب.

ظل تادلوك يقود الركب إلى الطريق منذ أن قام سمرز والرجال باكتشاف الطريق، ولكنه كان يعود ليقدم قلبه ومساعدته للناس.. استطاع أن يفعل شيئاً واحداً؛ كان يقول ذلك نفسه.

- يجب أن يجعل الثور يجذب العربات.. فيضربه بسوطه؛ لتنتقل طاقته المخفية، لقد علم الفريق أكثر من مرة شيئاً أو شيئين، وعلم الهنود أيضاً حينما حضر الوفد المكون من ستة رجال، الذي لحق بالركب بعد ساعتين من بداية تحركه. أما بيرد الذي لم يكن يستطيع الركوب، فقد علمه كيف يمتطي الخيل ليرسله لاستطلاع أوامر الرجال وإبلاغها لتادلوك.

لم يكن الركب في حالة تتيح له بإقامة دائرة ومعسكر؛ إذ إنه كان منتشرًا في الأوحال، وكان السير بطيئاً للغاية لأي مناورة سريعة من هذا النوع.. وكان هناك تل يرتفع في اليمين، في حين كانت هناك أشجار كثيفة في الشمال.

وردت جميع هذه الاعتبارات على ذهن تادلوك، في الوقت الذي جاء إليه بيرد لينقل إليه الرسالة، وذلك في اللحظة الذي بدأ يراهم فيها بوضوح، ويعرف ما يجب أن يفعله.

فأصدر أمره قائلاً:

- قدم السلاح إلى النساء.. تعال أنت وويللي بروور والواعظ إلى المؤخرة ببنادقكم.

وشعر بأن الوقت قد حان لإظهار قيادته الحقيقية فقال:

- كم هنديًا؟

- شاهدتهم فقط.

- كم يبعدون؟

- إنهم قريبون.

- افعل ما أمرك وأخبرك به.

ثم قفز تادلوك فوق جواده، وأسرع نحو الخط الأمامي تاركًا بيرد يتبعه، ووضع يده أمام ناظره، وأخذ يدقق النظر فيما وراء الأفق، ولكنه لم يستطع أن يشاهد شيئًا أو أي هندي بعد؛ لقد ضلوا طريقهم وسط الغابات أو بسبب الضباب.

ثم حول ناظره إلى العربات، فاستطاع أن يرى الوجوه البيضاء.. وجوه النساء، ووجوه الأطفال التي تعكس الخوف والرعب.. ووجه زوجته المليئة بالحيرة والفضول، وكان يأمل أن يجدوا الشجاعة الكافية لمواجهة مثل هذا الموقف.

وعلى مسافة مائة ياردة من مؤخرة آخر عربة في الركب، استطاع أن يكتشف وجود ستة هنود يسرون ببطء، فأبطأ جواده وسار نحوهم.. كان هؤلاء هم كل ما استطاع أن يراه.. ستة من «الكوز»، عرف من منظرهم وملامحهم التي غيرتها الأمطار أنهم قد فوجئوا بهذا الطقس، وأن أجسادهم قد أخذت ترتعد من البرد، وكان زعيمهم النحيف يلتف في بطانية. واستطاع تادلوك أن يلحظ طرف بندقية يخرج من البطانية وجزءًا من القوس والسهام. وظل يفكر فيما عساهم يفعلون، وهو في

طريقه إليهم، حتى جذبوا جيادهم ووقفوا ساكنين.

وتقدم تادلوك إليهم وهو يحاول أن يجعل وجهه يبدو صارمًا مثل وجوههم، وكان بعظمة في كبريائه، وبالتحدي لا الخوف.. وأصبح يعتبر هذا الأمر نوعًا من صراع الإرادات، ثم سأل الزعيم:

- ماذا تريدون؟

ومضى وقت طويل قبل أن يجيب.. ولم يتصور أنه قد استقبل في حياته من قبل مثل هذا الاستقبال.. وكانوا ينتظرون أن يتحدث الخطيب، ويستقبلهم بحفاوة كما هي العادة. وتحدث زعيم «الكوز» فقال:

- لقد قتلتم أحد الهنود.

ثم أشار بأصبعه إلى الخلف، حيث أسقط ماك الهندي من فوق الشجرة.

فأجاب تادلوك:

- نعم، لقد قتلنا الهندي.. لقد سرق الهندي؛ لذلك قتل الهندي.

- الهندي لا يسرق.

- الهندي سرق، لذلك سقط ميتًا.

- الهندي يحب ويقبل الهدايا.

- ليست هناك هدايا.

فرأى تادلوك الأفكار تنعكس من أعينهم.. رأى ما افترض أن يكون خيبة أمل ناشئة من رفضه تقديم الهدايا لإصلاح الخطأ الذي ارتكب.

أصبح الوقت مناسباً بمعرفته، أصبح الخطر مائلاً، ولكنه لم يشعر بأي خوف، فنظر تادلوك إلى تابعي الهندي فرآهم يعانون من سوء التغذية، ويضعون على أجسادهم خرقاً ممزقة بالية، لذلك شعر بالقوة تتدفق في جسده، قوة تجعله يقف في وجههم ويأمل في تحطيمهم.

كان يبدو أنه يستطيع بضربة واحدة من يده أن يبيدهم من الأرض. واستطاع أن يلتقط نظرات الزعيم، وقال تادلوك وهو على ثقة من نفسه:

- انصرفوا.

ثم حرك بندقيته وقال:

- انصرفوا.

وتقدم بجواده خطوة واحدة.

كان واضحاً أنه سيد الموقف، وبعد فترة تحولوا وهم يعدون، وكانت أمارات الألم والحرع تبدو عليهم، ثم انطلقوا عائدين كما جاءوا، فجلس تادلوك منتصباً، وشعر بأنه بقوته وعزيمته استطاع أن يكسب هذه الجولة، وأن يشيعهم حتى اختفوا عن الأنظار.

وعاد إلى تأكيد ضرورة مواصلة الركب للنساء، ثم تقابل بعد ذلك مع راكبي الجياد وأخبرهم بما حدث، وكيف أن الوقت ليس مناسباً للبقاء وإقامة معسكر.. أمطار، وأحوال، وهنود، وماشية مبعثرة.. ولا يزال الركب سائراً طوال مسافة طيبة، ربما ثمانية أميال أو عشرة، وهو أمر يعكس كيف يمكن أن تؤدي الإدارة الطيبة إلى مثل هذه النتائج.

لم يبالغ في أعماله، على الرغم من أنه استمع إلى النساء وهن يخبرن الرجال بموقفه. كان ذلك أكثر من مجرد واجب القائد نحو فريقه، إنه سوف يقف الموقف نفسه مرة أخرى، على الرغم من اعتراضات سمرز على ذلك، وهو الذي يقول: «لقد سارت الأمور طيبة في هذه المرة، ولكن لا تحاول هذا أبداً مع البونيز أو السيوكس».

وأعلن تادلوك في هذه الليلة أنه يجب على حراس الماشية أن يتقظوا الليلة، وقد جاءت هذه الفكرة خوفاً من قيام الهنود بهجوم مفاجئ يؤدي إلى الهزيمة والانهيار.. ولا شك في أن الهنود يفتدون فجأة ويغيرون فجأة.. ألم يستطع رجال الركب العثور على الماشية جميعها ما عدا واحدة فقط.. ألم يستطيعوا معرفة مكان أحد اللصوص؟ لم يستطع تادلوك أن يخفي شعوره نحو ماك بسبب سلوكه.. لم يهتم بهذا الهندي الذي قُتل، ولكنه كان قلقاً بسبب النتائج المحتملة.. بدأ الرجال يتنبهون للخطر المتوقع حدوثه.. كانوا يعرفون أن الخطر سوف يقع.

ولكن الآن حين قال إن مجرد وجود رجل مريض لا يبرر التأخير، وأن مجرد وجود مارتن فوق سرير داخل عربة سوف يؤدي إلى تحسن حاله، وقف الجميع ضده، وضرب تادلوك مرة أخرى الأعشاب بسوطه بعنف.

وذكر نفسه أن الوقت قد حان لاجتماع المجلس.. ولكنه وقف دقيقة طويلة مكانه لا يتحرك بل يحرك سوطه فوق الأعشاب.. وشاهد مرة أخرى وهو يقتنع بأن بعض النساء الأخريات قد انضممن إلى مجموعة من النساء الموجودة بالقرب من حافة النهر. وكان أحد الرجال قد أشعل

النيران لهن، في حين أخذت المياه تغلي في القدور وترسل البخار عاليًا في الجو الذي كان حتى تلك الساعة مشبعًا بالرطوبة من الليل. أما في الجنوب، فقد كانت الحيوانات ترعى وهي متفرقة.. وشاهد ثلاثة رجال يأتون عبر النهر مسرعين فوق الرمال، واستطاع أن يميزهم واحدًا تلو الآخر - سمرز، وجورهام، والغلام براوني إيفانز.. كان قد اعتقد أنهم ذاهبون لصيد الجاموس البري الذي يرعى في الشمال.

وضايقه أن يشعر بأنهم ذاهبون لصيد الجاموس الذي يرعى في منطقة بعيدة عن خط سير الركب. كان يبدو أنهم يعملون قبل أن يتخذ المجلس قرارًا نهائيًا حتى لا يتحرك الركب قبل أن يحضروا. ومن الممكن تحقيق العمل السريع استنادًا إلى التنظيم السليم، وإلى مقدار فهم هؤلاء الناس لمعنى الكلمة.

كان يلقي اللوم على سمرز بصفة خاصة.. ليس من أجل هذا الخطأ البسيط فقط.. كان يشعر بأن سمرز يؤثر على الركب تأثيرًا سيئًا باستقلاله. وعدم احترامه للسلطة. وكان سمرز يعرف الممرات التي يجب سلوكها، لذلك كان مرشدًا قويًا، وخبيرًا بشؤون الصيد. ومكتشفًا حذرًا، وحارسًا يقظًا.. كان له كل هذه الصفات جميعها.. وكان على تادلوك أن يعترف بذلك أمام نفسه.. ولكنه كان في الوقت نفسه صعب الخضوع للإدارة أو التأثير بها.. وكان رجلًا محبوبًا لمعرفته بدقائق وخبايا الهنود. وفنونهم وطريقة سلوكهم.

وحينما كان تادلوك يتجه نحو المجلس كان يرغب في قرارة نفسه وباستيائه أنه يود أن يختفي سمرز بمواقفه وعصيانه للأوامر.

اقترح سمرز على طول «ليتل بلو» أن يربط الجياد في أغصان الأشجار، وليس في جذوعها، وكان يقول في ذلك أن هذه العملية تمنع الجياد من كسر اللجام والهرب. واستطاع سمرز أن يجذب نحوه أنثى الجاموس بعد أن قام بتقليد صوت عجل صغير، ثم أطلق رمحه فيها تاركًا فيها مجالًا للحياة حتى تستطيع أن تقطع المسافة إلى المعسكر. وكان يقلق من الدماء التي تنزفها قبل أن يكون قد وصل هناك. ومن غير سمرز يجرؤ على أن يجعل جوادًا معرضًا لقرني أنثى الجاموس البري الوحشية التي أصابها في مقتل؟ كان سمرز يستطيع أن يواجه الثيران والبغال والخيول.. كان يشعر بأنه يلعب لعبة طيبة من لعب الهنود والمياه.. وكان يستطيع أن يطلق أسرع طلقات البندقية.

وكانت الطريقة، التي جعلت العربات تقف بها في الليل في صورة دائرة، بسيطة وفعالة على الرغم من أنه كان ينقصها الطابع العسكري. وكان يعتقد أنه من الأفضل لتادلوك أن يتتبع الوسيلة التي سبق أن تحدث بشأنها من تقسيم القافلة إلى أقسام يقود كلًا منها أحد الأفراد الذي يجب أن يتولى تشكيل مربع كامل. وكان يعترف بأن الطريقة التي وضعها سمرز لا تزال طيبة.. عليه اللعنة. إنه لا يزال كفتًا للأعمال الطيبة -على الرغم من أنه يسلك سلوكًا طيبًا، إذا وجهت إليه أي إهانة- وهو مستقل في تفكيره مثل الخنزير الذي يقف فوق الثلج. لماذا لا يستطيع أي رجل ذي نظرة بعيدة، وخبرة واسعة، أن يمتلك مثل هذه الحكمة البرية الشيطانية؟ إن أي ميزة مهما تكن صغيرة من هذه الحكمة، كافية لزيادة الاعتراف بالقيادة والزعامة.

كان رجال المجلس الآخرون ينتظرون على مسافة خمسين ياردة أو ما يعادل ذلك من العربات. وكان تادلوك يقوم بمراجعتهم -إيفانز- فيرمان- ماك- بروور- ودورتي، ثم جلس بجانبهم وقال:

- كيف حال مارتن؟

أجابه بروور بلهجته الألمانية العنيفة:

- حالته سيئة. إنه سيموت من غير شك.

- إنه قوي البنيان.

فقال إيفانز:

- إن زوجتي تقوم برعايته ومراقبته، مع الأخ ويدربي، وغيرها.

فهز تادلوك رأسه، وظهرت عليه علامات التفكير في المجلس أكثر من تفكيره في مارتن نفسه، والتفكير في المشكلة التي أعطاها أهمية كبرى أكثر من أهميتها الحقيقية لأنها كانت تعتبر تحديًا لسلطته. كان يتمنى لو كان قد استطاع اقتراح التأجيل، ولكن لا يزال الوقت مناسبًا بعد - إنه يستطيع أن يعتمد على بروور، وماك، وفيرمان، وهو يكون معهم غالبية، ثم قال وهو ينظر إلى الشمس:

- نستطيع أن نقطع عشرة أميال أو نحو ذلك. إن كل ميل له حسابه في تقديرنا.

ولكنهم لم يجيبوا. وكان بروور يجلس وساقاه بعضهما فوق بعض ويهز رأسه.

وقال دورتي بلهجة تميل إلى التقرب:

- إن مارتن بعيد عن تفكيره الآن.

فأمسك تادلوك به وهو مندهش كما سبق له الاندهاش من قبل من أن هذا الإيرلندي -أحد رجال الجبال والتلال- يعارضه. هل سبق له الاستماع إلى بعض النقد غير الحذر عن قيادته؟
وأضاف إيفانز:

- إنه ينادي المسيح فقط وأتباعه.. «إني أصلي لك».

- هذا لا يعني أنه قد أبعدته عن تفكيره.

فقال دورتي:

- لم يسبق له أن كان رجل صلاة من قبل.

كان تادلوك يشعر بأن وجوههم تبدو كما لو كانت قد تحجرت. أخذ يدرسهم، ثم جعل نظره يتحول متجهًا إلى المعسكر حيث وقفت العربات ساكنة، في حين كانت النساء يصطففن في طوابير للقيام بأعمال الغسيل ويجرين من عربة لأخرى. وشاهد الخيمة التي وضعت لمارتن لإيوائه، في حين يقف ويذربي بجوارها، وكان رداؤه الذي تغطيه الأتربة يبدو كما لو كان مريضًا أو حزينًا احترامًا للمرض. كان الأطفال والنساء يتحركون بجوار العربات، في حين كانت النيران تخبو بعد أن أوفت بغرضها، ثم مرت عينا تادلوك بالرجال الأربعة الذين كانوا يرقدون بجوار عربة باتش؛ كان أحدهم ينبش في الأرض بسكينة. وفي هذه اللحظة اعتقد أنه سمع صوت مارتن، ربما ينادي المسيح، لذلك قال:

- حسنًا، يجب أن نتخذ قرارًا.

لم يردوا عليه، بل انتظروا وهم ينظرون إلى الشمس وأدركوا أنه من الممكن أن يصبح الجو دافئًا اليوم ومضيئًا بالشمس الساطعة، ثم لمح نظرات إيفانز فقال له:

- هل أنت راغب في التمسك بقرار المجلس؟

- هل أنت كذلك؟

- بالطبع.

ثم بدأ تادلوك يلتفت إلى الباقيين، وقال:

- يجب علينا أن نتذكر أن الحيلة التي يجب أن نتبعها هي الاستمرار في التحرك، سوف يكون الطريق أمانًا طويلاً وشاقًا قبل أن نصل إلى أوريجون على أي حال.

رفع إيفانز يده إلى وجهه ليحك وجنتيه كما لو كان هذا الحك يساعده على التفكير، ثم قال:

- إنني لا أنكر ما تقوله يا تادلوك، ولكننا قطعنا شوطًا طويلاً، فلن يتأثر وضعنا إذا تأخرنا يومًا أو يومين.

- سوف نعوض التأخيرات السابقة.

- ربما.

- إننا لا نستطيع أن نتجنب التأخير.

غير إيفانز من وضعه على الأرض، وحينما تحدث كان ينظر إلى الآخرين:

- لا يبدو لي أنه يجب أن ننحني لضربات كل إنسان. إن الطريق الذي أحده يجب أن تنتهي منه قبل أن يمضي الوقت.

فقال ماك:

- إننا نسير بسرعة تعادل نصف سرعة خيول السباق يا أرفين. هل نشأت على أن تكون سبّاقاً؟

فرد بروور قائلاً:

- أجل، يجب أن تكون في المقدمة.

وتحدث تادلوك وهو ينظر إلى ماك بحدة:

- إذا لم يقم أي إنسان بدفع الراكب الآن، فإن هذا الراكب سوف يتخلف في المؤخرة بأسره.

فرد فيرمان قائلاً:

- إذا مرض أحدنا فيجب على الراكب أن يتوقف بعض الشيء.

لذلك كان الجميع يقفون متعاضدين. وظن تادلوك أن الجميع يعارضونه ما عدا الألماني الذي يصعب زحزحته. لقد قام بقيادتهم، وعمل من أجلهم، وقام بتنظيمهم وتوجيههم، ودفعهم إلى الأمام - ولكنهم يقفون الآن ضده - جميعهم، أو لم يكونوا كذلك؟

حينما أصبح الأمر معلقاً بالقرار، هل كان هناك أي أمل في أن ينحاز ماك وفيرمان إلى جانبه؟

لذلك قال:

- دعنا ندلي بأصواتنا. هل تؤيد يا ماك أنت وفيرمان اقتراحي؟

أجاب ماك بلهجة قاطعة.

- كلا.

فاختفت الابتسامة من وجه تادلوك، وهز فيرمان رأسه قائلاً:

- كلا.

وأعاد ماك رفضه، في حين استمر فيرمان يهز رأسه علامة على
الرفض أيضاً.

وألقي إيفانز بقطعة من الروث إلى كلبه الرمادي العجوز الذي كان
ينبش في حفرة بجواره، ثم قال:

- أعتقد أنه من الواجب علينا الانتظار يا تادلوك.

شعر تادلوك بالدماء حارة في وجهه، فقال:

- الجميع يعارضون رأيي. إنكم تتخذون قراراً أحمق.

وتحدث ماك بصوت هادئ رزين:

- أود أن أخبركم بشيء آخر.

- ماذا؟

- سيكون هناك اجتماع الليلة.

- اجتماع؟

جميع أفراد الركب.

- لماذا؟

- ألا تستطيعون التكهن؟

- هل هي لعبة تكهن؟

- إنهم سيعزلونك يا إيرفين.

- إنك كاذب.

- سوف انتظر لأسمع منك اعتذارًا.

بدأت كلمات ماك بمعناها وعمقها تأتي ببطء إلى تادلوك.. لقد كانت تعني طرده وإعادة انتخاب رئيس جديد. استطاع تادلوك أن يدرك كيف تطورت الأمور -لقد عرف أن باتش، الإنسان الصلب الرأي الذي جاء من نيو إنجلند، قد اتحد مع دورتي، وجورهام. وكاربتير، لمعارضته والتلاعب به وبقيادته غير الشعبية، فجعلوا هذه المشكلة البسيطة شيئًا ضخمًا، ولكنه على الرغم من ذلك قال لماك:

- سوف أعرف ما يدور هناك، وسوف أستطيع المحافظة على وضعي يا ماك.

فتساءل ماك:

- ألا تستطيع أن تدرك أن الأمر ليس كذلك؟

- إنني أدرك. لقد أسميتك غيبًا. وكان هذا صحيحًا.

فرد الإيرلندي قائلاً:

- إن العالم كله غبي بالنسبة لك. إني غبي. وهذا حسن. ولكن ليس الأمر كذلك يا إيرفين. وإنما هو الجو الذي تحيط به نفسك، وهو درجة التحمل التي فاضت وزادت على حدها.

وأضاف دورتي:

- إنها حيواناتك وعدم وجود ما يكفي من الرجال لرعايتها هي التي عطلت سير المركب.. وأنت تطالب دائماً بزيادة سرعة المركب. وإنها لقيادتك السقيمة هي التي أقلقتنا.

فقال تادلوك لماك:

- هل تقول إنني قد أسقمتكم؟

- أين تقف الآن إذن؟ يجب أن يجري انتخاب آخر هنا لتصحيح الوضع.

- أين تقف الآن يا فيرمان؟

فأجاب فيرمان:

- إنني هنا، في الموقف نفسه.

- إنك لا تستطيع أن تذهب بعيداً الآن.

فقال دورتي:

- أخبره يا بروور.

فشرح الألماني:

- إنني معك وكذلك ماك بي، ولكننا لا نكفي.

كان الأمر واضحاً وجلياً.. إذن لقد تأمر الجميع عليه، ويجب عليه أن يتنازل عن القيادة أو يتعرض للإهانة والتحقير بطرده حين أخذ الأصوات. إن بروور لا يكذب عليه: «هل هذه هي التحيات وألفاظ

الشكر التي ينالها الإنسان لما يسديه، لقد عملت وخاطرت برقبتي».

فقال إيفانز، في حين كان ماك يهز برأسه موافقًا على كلماته:

- إن هذا هو ما جعل الأمر صعبًا يا تادلوك.

- أستطيع أن أقسم هذا الراكب جزأين عندي القليل من الأصدقاء.

فقال إيفانز بكلمات اعتبرها نوعًا من اللهب الحارق:

- إنك تخسرهم بمرور الوقت.

فاندفع تادلوك نحو قدميه وصاح:

- إلى الجحيم أنتم جميعًا!

ولم يهدأ إلا بعد أن كان قد قطع بضع خطوات بعيدًا، ثم التفت

خلفه وقال:

- إنني مستقيل.

اتجه تادلوك بعد ذلك إلى عربته التي توجد في المقدمة وأخبر

زوجته:

- لقد تركت القيادة الآن.

كانت تجلس فوق صندوق تحاول إصلاح زوجين من السراويل

كانا قد قطعا في أثناء ركوبه فوق العربة، فنظرت إليه من غير أن تنبس

بأي كلمة. واستمر يقول كما لو كان يريح نفسه ويرضيها بهذا الاعتراف:

- كان علي أن أستقيل أو أن أُطرد.

ولكنها بقيت من غير أن تتكلم. لقد تعلمت من خلال السنوات

العشر من زواجها أن تعرف الكثير منه عن طريق تعبيرات وجهه بدلاً من الاستفسار منه والتدخل في عمله. إن كل ما يريد أن تعرفه هي يقوم بإخبارها. وانتظرها عساها تلقي عليه سؤالاً حتى ينقشع غضبه وتنتهي ثورته.

ولما توقف عن الحديث قالت له:

- إن مارتن يزداد سوءاً.

- أعتقد أن هذا هو خطئي.

- إنني لا أقول أنه خطأ أي إنسان.

- إذا كنا قد مضينا في سيرنا، فإن كل إنسان كان سيوجه الاتهام إليّ، وكانوا سيشعرون بالسرور لذلك.

- إنني أشعر بالسرور لاستقالتك.

- هل أنت مسرورة حقاً؟

- إنك تقبل هذا الأمر بصعوبة.

فقطب جبينه وترك ذراعيه بجانبه. لقد كانت هي الشخص الوحيد الذي عرف ما بذله من جهد، ولكنها تريث لحظة كما لو كانت تفكر فيه وفي استقالته، ولكن حينما تحدثت كانت تقول:

- إن مارتن يعتمد عليك. وأعتقد أنك الصديق الوحيد له.

- إنني لا أعرف أي شيء أستطيع أن أفعله له.

- أعرف ذلك. ولكن..

ثم اتجه إلى خيمة مارتن. وكان الأخ ويذربي خارجها يمسك في يده إنجيلًا قديمًا فسأله تادلوك.

- حسنًا!

- كنت أصلي. فينفذ الله مشيئته.

- هل سمعت صلواته.

- أجل.. الآن.

أدخل تادلوك رأسه داخل الخيمة، فشاهد مارتن راقداً على ظهره وفمه مفتوح وعيناه متكورتان ومفتوحتان. وأخذ تادلوك ينصت فسمع تنفسه الخفيف السريع، فتقهقر إلى الوراء حين شعوره ورؤيته لصوت ورائحة المرضى. لم يكن هنا شيء يستطيع أن يفعله. ماذا كانوا يظنونهم؟ طيباً؟

وقال ويذربي:

- أعتقد أنه قد رأى الضوء.

- هل هذا بفعل شربة الملح؟

فأوماً ويذربي برأسه، وعاد تادلوك إلى عربته، وبعد ذلك قضي يوماً مؤلماً وقاسياً؛ إذ طاف بذهنه كل ما حدث، وما واجهه من تجارب في كل مرة، وما لاقاه من غضب، فشاهد مارتن وحيداً في زيارته الثانية فاقد الوعي. شعر تادلوك بأن هناك شيئاً يستطيع أن يفعله. شيئاً لا ينتقده عليه أحد.. القيام بتطهير مارتن.

كان اجتماع الرجال في المساء كما توقعه - كان اجتماعاً يتسم

بالفوضى دخلت فيه النساء والأطفال. وقد أصيب تادلوك بالدهشة التامة حينما تم انتخاب إيفانز مكانه بدلاً من باتش الذي كان يتوقع انتخابه. كان يستطيع أن يقسم بأن باتش كان متأرجحاً بالنسبة لمصلحته الخاصة. أما إيفانز فقد كان أميناً في نشاطه، لذلك فوجئ حينما رشحه ماك للقيادة. وتحول إيفانز برأسه بعد ذلك إلى زوجته، وأعلن أنه لا يصلح لهذا المنصب. وكان تادلوك يجلس على مسافة قصيرة تكفي لسماعه ما يدور في الاجتماع الذي لم يكن راضياً عنه، وكان ينظر في الوقت نفسه إلى وجه مسز إيفانز، كان يعتري وجهها تعبيراً لا يستطيع أن يصفه - نظرة أمومة، واهتمام، وكبرياء، وعزم وتأكد، وطموح - لم يكن يعرف أي من هذه الصفات تعكس هذه النظرة، وعلى الرغم من ذلك استراح لهذه النظرة، وشعر بأنها نظرة طيبة محبوبة. كان تفكيره الآخر يتركز فقط في ضخامة حجم الرجال، وغباوتهم، وصلابتهم، وعنفهم.

وجاء شيء آخر إلى ذاكرته حينما جلس في عربته يطويه الظلام بعد أن تأجل الاجتماع، لقد كان هذا الاجتماع يعكس الفوضى البرلمانية التي سمح بقيامها، لقد ظهرت بوادر الفوضى العامة، وفي حين كان اسم إيفانز معروضاً للترشيح كان تورلي يدخن غليونته، ويتحدث في موضوع آخر، وتركه باتش يستمر في حديثه بصوت عال ليقول:

- إننا نعود إلى الوراثة.. سوف أعود أنا وزوجتي وأولادي من حيث أتينا بحق موسى.

وصاحت مسز تورلي من بين صفوف النساء:

- آمين. آمين.

وسمع تادلوك صيحتها الهستيرية بعد ذلك، ثم أعقبتها صيحات النساء.

واستمر تورلي يقول:

- سوف نعود أدراجنا إلى ميراميك؛ بعد أن رأينا هذا الركب لا ينتظر الآخرين، وبعد أن رأينا كل فرد فيه يتصف بالفردية والانطوائية. إننا نرحب بمن ينضم إلينا.

فتساءل باتش:

- وماذا عن سمرز؟

كان سمرز يقف بجوار باتش، ورد على ذلك بكلمة واحدة:

- خطر.

بدأ الصمت يطغى على الجميع ما عدا صيحات مسز تورلي، وحطم باتش الصمت بسؤاله:

- هل يرغب أي إنسان آخر في العودة؟

ثم صمت لحظة وصاح:

- بيرد؟

أدرك تادلوك، الذي كان يشعر بمرارة في قرارة نفسه وبقيمة الإدارة الحازمة، اللعبة التي لعبها باتش يطلب رأي بيرد والالتزام بشيء.

قال بيرد إنه سيبقى:

واستمر باتش يقول:

- هل يود أي إنسان أن ينقسم عن الركب؟ نود أن نعرف ذلك الآن.
لم يتحول لينظر إلى تادلوك، ولكن غيره تحول للنظر إليه. وظل
تادلوك يحدق النظر في الجميع بصمت ومن غير أن يتحرك. هل يترك
الركب؟ كيف يستطيع ذلك، إنه تهديد قوي، من يجروء على الذهاب
معه؟ ربما بروور، وماك بي، ومارتن، إذا قدر له أن يعيش. مجموعة
يؤسف لها ليس معها ما يكفي من الثيران، وبعضهم يذهب على قدميه،
لذلك جلس صامتًا، وكان يود أن يقفز ويصيح بأعلى صوته بأنه يرغب
في ذلك ولكنه لا يستطيع تنفيذه. ألم يقم بأحسن وأفضل الأعمال-
لماذا يحاولون تحطيمه الآن؟ كان يشعر في قرارة نفسه بأنه يود أن يرفع
السوط في يده وينهال به على الجميع.

استمر تادلوك جالسًا في مكانه من غير حراك، بعد انفضاض
الاجتماع، فترة طويلة.. كان يرى الناس ولا يراهم، وكان يعرف أن
زوجته قد ذهبت إلى مكان ما، فتعجب كيف تستطيع أن تختلط بهؤلاء
الذين أساءوا معاملته.

هدأ المعسكر وظهر سكون الليل وصمته. ولم تكن هناك سوى
همهمات الأصوات القادمة من خيمة مارتن التي ثبتت في الطرف الآخر
من الركب بجوار المياه. وأخذت النيران تخبو واحدة تلو الأخرى
وظهرت النجوم تشع ضوءًا باردًا بعد اختفاء الشمس. كان تادلوك
يستطيع أن يرى الأفق في الجنوب، وفي هذه اللحظة سمع صراخ أحد
الأطفال قادمًا من إحدى الخيام.

كان تادلوك يحاول أن يبحث لنفسه عن حل لوضعه.. لقد ترك أعماله في «بوريا» ليحاول استخدام جميع طاقاته وإمكاناته في ميادين أخرى كبرى، ولكنه يغلب على أمره بوساطة بعض المهاجرين المهلهلين. كان يعتقد أنه يستطيع أن يصبح حاكمًا في يوم من الأيام لإحدى الأراضي أو لولاية من الولايات.

ولكن ماذا حدث له الآن؟ ما الذي يغيره الآن بعد أن هزمه هؤلاء الرجال ذوي الرؤوس الصلبة؟ تكساس؟ هل يستطيع الذهاب إلى تكساس؟ لقد ذكر ذلك أمامه في الربيع الماضي وقيل له إن تكساس بحاجة إلى حاكم، وأعضاء مجلس شيوخ، ونواب. هل يذهب إلى كاليفورنيا؟ يقول البعض إن كاليفورنيا مكان أفضل بكثير من أوريجون. إنها تمنح الكثير من الفرص، وهي بحاجة إلى الرجال.

شعر بيد امرأته فوق كتفه وهي تقول له:

- من الأفضل أن تأوي الآن إلى فراشك يا إيرفين:

- أعرف متي يحين الوقت للنوم. ولست بحاجة لأن تخبريني متى أذهب إلى الفراش.

- إن الوقت متأخر يا إيرفين.

- ماذا بشأن ذلك؟ يجب أن أذهب لرؤية مارتين.

- لقد كنت هناك الآن.. لا يوجد ما تستطيع أن تفعله الآن أكثر من ذلك، إنهم يقدمون له «الموستاردة» الآن.

- اذهب إلى فراشك الآن.

وانتظر لحظات قلائل ؛ لكي يؤكد وجوده، ثم نهض واقفاً واتجه إلى خيمته ليخلع ملابسه وقبعته وحذاءه. تكساس ؟ كاليفورنيا؟ كانوا يحتاجون إلى الرجال. يحتاجون إلى الزعماء والقادة.

ثم خطا بضع خطوات إلى الخارج وهو عاري القدمين، والتقط سوطه الذي كان قد نسيه فوق الأرض ووضعته في العربة، ثم عاد مرة أخرى إلى الخيمة ليرقد على فراشه بجوار زوجته.

كان على وشك النوم بعد وقت طويل أمضاه من غير نوم، حينما جاءه ويذربي وأخبره بأن مارتن قد مات.



الفصل الثالث عشر

وضع إيفانز النير فوق أحد ثيرانه وربط الحبال وتحدث إلى زميله وهو ممسك بطرفي النير، في حين كان الحيوان الآخر يخطو داخل المكان وكانت أظلافه تصدر صوتًا بلامستها الأرض. كان يشعر بالرضاء وهو يرى مجموعة من الحيوانات المدربة حتى يمكن أن يختصر الوقت ويتعد عن المشكلات.

وحينما أعد عدته نظر في الساعة التي استعارها من ماك، كانت الساعة تشير إلى السابعة إلا الثلث. سيكون مستعدًا في الوقت المناسب، كما يحدد القائد. لم تكن جميع الخيام قد جمعت بعد ولا حتى العربات نفسها قد حُمّلت بعد. كان بعض الرجال الموجودين داخل الدائرة التي يوجد بها قد بدءوا ينشغلون بالثيران التي ستتولى سحب العربات، في حين كان هناك رجال آخرون ينزعون الخيام ويجمعونها ثم يرفعونها إلى عرباتهم. كان الجميع يعمل بسرعة فائقة، وكانت النساء يجمعن أواني الإفطار ويبقين داخل العربات يساعدن في ترتيب وتنظيم حمولة العربات.

كان إيفانز يعتقد أن هذا الصباح يمتلئ بالقلق، وأن الشعور السائد هو شعور الرهبة والقلق حينما كان الركب يستعد للتحرك، وحينما كان الرجال يتركون أماكنهم وكانوا يتحدثون بأصوات حادة، كانت النساء يجبنهم بأصوات حادة أيضًا بسبب تعبهن وإنهاكهن وشعورهن بثقل الأيام، وكان الصغار يصيحون ويلهون في حين كانت أصوات الصناديق تعلو وتزايد وهي ترتفع إلى العربات، وفي الوقت نفسه كانت أصوات البعوض تزايد وترتفع وتكون ضبابية صغيرة حول كل رأس، وأسفل العربات.

انحنى إيفانز فوق كلبه «روك» وربت على رأسه ثم انتصب وتنفس بصوت عميق. كان للهواء طعم خاص.. طعم حاد، وطعم المشروبات الروحية.. كان يشعر بكل ما حوله طيبًا وحسنًا، لذلك قال:

- إنه يوم طيب يا بيكي.

وكان ينظر بين العربات حيث كانت زوجته تعمل، وكانت قد أغلقت الصندوق الذي يضم الأواني والقدر وأدوات الطعام، وقالت له:

- كم أتمنى أن ينقشع هذا البعوض ويبتعد عنا.

- لن يبقى هذا البعوض كثيرًا بمجرد أن نتحرك؛ إذ ليس من الصعب ابتعاده بعد أن يتغير الهواء.

كان الجو باردًا، ولكن الشمس كانت قد بدأت تنشط وتوزع حرارتها، واستطاع أن يرى في اتجاه الشمس «كورت هاوس روك»

وهي صخرة تبدو ضخمة، في حين كان الجانب القريب منها تغلفه الظلال وتقع على جانبها «تشيمني روك» وهي صخرة رفيعة تقف شامخة. وفي مثل هذا المكان الذي يرى فيه الإنسان الكثير من الجمال والخيال، يستطيع أن يرى كثيرًا من الألوان.. الألوان القرمزية، والألوان الرمادية والصفراء، بسبب حواجز الرمال. وكانت الشمس ترسل أشعتها الصفراء، في حين كانت السماء تبدو زرقاء صافية لدرجة تؤذي العين، ولم يكن يوجد في السماء بأسرها أي أثر للسحب في أي مكان. وقال إيفانز:

- لم أشعر في حياتي بالثقة مثلما أشعر الآن.

- هل أنت متأكد؟

- من كل شيء.

ثم تقدم إلى الأمام، ورفع الصندوق الذي يحتوي على أواني الطهو ليضعه في العربة، ثم سحب غطاء العربة فوقها وهو يقول:

- لم يبق أي شيء سوى ربط وحزم العربة.

وتراجع إلى حيث توجد الحظيرة، وعبر إلى الثيران وربطها جميعًا، ثم نظر حوله ليرى ما إذا كان هناك من يتطلب المساعدة، وتوجه بعد ذلك إلى حيث يقف هيج وفيرمان يتصارعان مع ثور صغير جامح، كانا قد وضعها حبلاً في قرنيه، وكان هيج يحاول أن يجره مع فيرمان، ثم أمسكا عن عملهما بمجرد أن رأيا إيفانز قادمًا.

ابتسم هيج في وجه إيفانز وهو يتراجع والحبل في يده، وهو يقول:

- لم أر في حياتي ثورًا شقيًّا مثل هذا الثور.

- لماذا لم تقوما بتقييد قدميه حين سحبه ووقف ثورته؟

فأجاب هيج:

- سوف نفعل ذلك، ولكنني أكره القيام بهذا العمل أيضًا.. إنني أراهن بأنني سوف أستطيع تقييده.

وكان يمسك بالحبل في يده ثم تولى ربطه في العربة، وبذلك منع الثور من الهروب. وضرب إيفانز بيده على فخذ الثور فاندفع إلى الأمام قليلًا بعد أن استطاع هيج ربطه.

قال فيرمان وأفكاره تدور في هذا الاتجاه:

- إنني خجل من العمل الطيب في هذا المجال.

وحاول أن يبعد البعوض عن طريقه بيده، في حين كانت الأظلاف والأقدام تغوص في الرمال، ويقول:

- هذه منطقة ملعونة.

- إنها بالنسبة لنا جميعًا، لقد كانت الأظلاف والأقدام تزداد قوة وعنفاً كلما تقدمت في الطريق.

وسار إيفانز في طريقه إلى الأمام، في حين كان ديك سمرز يضع أمتعته فوق زوجين من الخيل، وأمتعته الأخ ويذربي أيضًا، وكان ويذربي يقف بجواره، ويدو عليه كما لو كان يرغب في تقديم المساعدة إذا كان يعرف كيف يفعل ذلك. كان إيفانز يتحدث إليهم، الأمر الذي جعل ماك يبدي تجهمه، وجعل ويذربي يومئ برأسه.

وقال ديك، وهو يحاول ربط لجام جواد آخر بسرج جواده، ثم أخذ الحبل في يده:

- هل أنتم مستعدون؟ أعتقد أننا سوف نسير في الطريق على خير وجه، ولكنني أعتقد أنه من الأفضل أن أربط هذا الحبل بعربتك مرة أخرى. هل أستطيع القيام بذلك؟

كان يبدو أن كل فرد أصبح على استعداد، حتى آل ماك بي، الذين لم يكونوا على استعداد في أي لحظة. كان إيفانز يشعر بأنه لن يكون قائداً قادراً ما لم يستطع تجميع الرجال في ليلة معينة لمعرفة ما يدور في أذهانهم، ولسماع أي اعتراضات، ومعالجة أخطار بداية التحرك. كان قد أخبر ماك بفكرته، لذلك قام ماك بمساعدته في سؤال الرجال الآن عن هذا الوضع.. فإذا تأخر أي إنسان، فإنه يفقد مكانه في خطة السير، ويجب عليه نتيجة لذلك أن يسير في المؤخرة. كان الجميع يعتقدون أنها خطة ماك نفسه، لذلك لم يتأخر أي إنسان، ولكن كان إيفانز يشعر بالقليل من الذنب بأنه اغتصب هذه القيادة، وشعر بوخز ضميره من هذا الاجتماع المهلهل الذي اتسم بالمكر.

قال ماك بي:

- كيف تسير الأمور معك؟

أخرجت مسز ماك بي رأسها من مؤخرة العربة وحيته تحية الصباح الطيبة، وكان هناك ثلاثة أطفال من أبنائهم يطاردون بعضهم البعض، ويدورون حول بعضهم البعض، ثم يتوقفون حين مشاهدة إيفانز من بين شعورهم التي لم تر مشطاً. لم يشاهد إيفانز «ميرسي» في هذا المكان،

وتساءل ماك بي قائلاً، وهو يبدي استعداداه للتحرك، وتنفرج لحيته عن ابتسامة طفيفة:

- ماذا ننتظر الآن؟

فنظر إيفانز في ساعة يده، وقال:

- إن الوقت قد حان.

وأخذ يدور بنظره بين العربات، فرأى جواده يرعى وبعض الماشية الطليقة التي ترعى الأعشاب النابتة في الأرض، وأخبره ماك بي، كما لو كان هناك شيء هام يدور بذهنه:

- كنت أنوي التحدث إليك.

- حول ماذا؟ هي هي مسألة شخصية؟

- لقد كانت شخصية.

لم يعجب إيفانز بهذا التفكير، ولكنه رد قائلاً:

- في أي لحظة؟

وتوجه بعد ذلك إلى عربته وانضم إلى بقية الفريق، فرأى ربيكا ونظر إلى ساعته، لم يكن أمامه سوى بضع دقائق، وكان سمرز قد ربط جواده بالعربة التي سوف تحطم الدائرة وتبتدئ المسير. كان الوقت قد أزف للبدء في السير، امتطى كل من سمرز، وشيلدز، وكاربنتر، وبروور، صهوات جيادهم بجانب سمرز الذي كان يقود المركب، أمسك سمرز بنفيره الفضفي، وسأل إيفانز تادلوك عما إذا كان يرغب في إصدار أمره إلى سمرز بنفخ النفير، كما كان يفعل وهو قائد لهذا المركب، وكان يظن

أن هذا الموقف من جانبه سوف يقابل بالشكر من جانب تادلوك. وعلى أي حال وافق تادلوك على القيام بهذه العملية، على الرغم من أن إيفانز قد لام نفسه على دعوة تادلوك للقيام بهذا العمل، وهو القائد الجديد.

نظر تادلوك إلى إيفانز وهو يرفع يده، ثم أصدر النفير صوته، فصاح الرجال في الركب، وارتفعت السياط لتنهال على الثيران التي تندفع في السير، وارتفعت الأتربة وأصوات دوران العجلات، وهي متجهة في طريقها إلى أوريجون.

كان مكان إيفانز في مؤخرة الركب، وكان يخرج في بعض الأحيان عن طابور الركب ليشرف على الأعضاء، ويشاهد سمرز ورجال الخيل والعربات وهي تشق طريقها في اتجاه خط السير.. يستطيع الركب أن يكون سريعاً حتى يكون بعيداً، وفي مأمن من الهنود.

ولا شك في أن الهنود كانوا يستطيعون خلق الشر إذا رغبوا في ذلك، على الرغم من أنه لم يكن يعتقد في تلك اللحظة أنهم يستطيعون القيام بذلك، بعد أن مر بهم بعض الجنود الذين يطلقون على أنفسهم لفظ «الدراجون»، والذين كان يقودهم الكولونيل كيرني، الذي قال إن هدف هذه المجموعة هو إثارة الرعب والخوف في قلب الهنود، وتحذيرهم بترك المهاجرين وشأنهم. كانت هناك مجموعة من ثلاثمائة رجل أو نحو ذلك، وذلك بالإضافة إلى عدد من العربات ومدفعي عربة، وعدد من الأبقار والغنم التي تسير بالخلف، وكان الجميع مسرعين حتى يستطيعوا الوصول إلى «لارامي» ثم الاتجاه بعد ذلك إلى «ساوث باس» حيث يعودون مرة أخرى. كان إيفانز يراقبهم جميعاً وهم يمرون

بهامتهم الطويلة الشامخة وهم يشيرون الأتربة خلفهم، لذلك شعر بأن قيادته أصبحت أكثر سهولة وسلاسة.

كانت بقية الأمور تسير سيرًا حسنًا، وكان الناس في حالة معنوية طيبة ما عدا بعض «الإسهال» الذي أصاب الناس بسبب مياه «بلاط» أو بسبب تناول الكثير من اللحوم الطازجة.

استطاع الركب أن يمر بساوث بلاط، وزيادة أو مضاعفة سرعة العربات على حسب نصيحة سمرز للمرور فوق الرمال بسرعة كبيرة. كانوا قد ساروا في طريق شاطئ الشمال، ثم انصرفوا للعبور إلى «آش هولو» و«نورث فورك»، كان مكانًا طيبًا للذكرى -آش هولو- كانت هناك ظلال وكانت هناك ينابيع مياه باردة وعشب طيب، واستطاعت العربات أن تمر بهذا الطريق متجهة إلى أسفل التلال من غير أي إصابات.

استطاع الركب أن يصل إلى كورث هاوس روك والقلعة في الوقت المحدد، وعسكروا في الوادي هناك، وشعر الناس بأنهم يجب أن يحتفلوا بذلك؛ لأنهم شعروا بأنهم أصبحوا في المكان المناسب لهم، أو أنهم أصبحوا قرييين من المكان الذي سيتخذونه موطنًا لهم. كان الاحتفال بسيطًا وهادئًا، وكان ويزربي يقوم بالخدمات.

كانت عائلة تورلي تسير خلف الركب، وتنتشر بعربتها القديمة، والعدد القليل من الماشية، وهم يرفضون السير مع الركب، ولكن لا يسلكون طريقًا آخر. كانت عيون مستر ومسز تورلي وطفليهما النحيفين تتطلع إلى مسز ماك ومسز تادلوك وربیکا بالشكر والامتنان، بعد أن

قدمن إليهم بعض الدقيق والحلوى، وإذا استطاع أي إنسان سماع ما تردده العائلة، لظن أن هذا الركب يعاملها معاملة سيئة وخاطئة. لم يكن الأمر كذلك، ولكن لم يكن بينهم من يشعر بالراحة والهدوء.

ظل إيفانز يدور برأسه مثل الآخرين حين استمرار الركب في السير، ولمس مدى بعد الشقة بين الركب وبين عائلة تورلي التي أخذت تتخلف شيئاً فشيئاً عن الركب، وبعد كل ما حدث كانت عائلة تورلي مستمرة في التحرك والابتعاد تاركة وراءها القليل من الأتربة، وظلت المسافة تتسع حتى ابتلعتهم، وحاول إيفانز أن يحدد مكان هذه العائلة، ولكنه لم يستطع، وإنما شاهد بقعة بعيدة في الأفق تتحرك ببطء. لم يكن بعيداً وعميقاً في ذهنه، ولكنه شعر بالراحة حينما شاهد ويذربي يصلي لهذه العائلة، ويطلب من الله أن يحميها من الهنود ومن العواصف والحوادث، وأن يحرسها الله ويحمي أغنامها ويضفي عليها السرور.

كان ويذربي قد استودع مارتن ربه قبل ذلك بقليل، في حين كان إيفانز وسمرز وتادلوك قد حفروا القبر في صمت، وكان كل فرد يفكر تفكيره الخاص، ولما انتهوا جميعاً من الحفر وضعوا مارتن فيه، وجاء ويذربي وأخذ يتلو من الكتاب الديني من سفر التكوين أيضاً، لم يكن هناك «كفن» أو صندوق خشب، وإنما اكتفوا بلفه في قطعة قماش وإهالة الرمال فوقه وحوله، ثم تولى ديك إحراق بعض مسحوق البارود فوق القبر، وقال إن هذه الطريقة سوف تجعل من المستحيل على الذئاب والهنود العثور على جثة مارتن. وكان هذا القبر.. قبراً مفقوداً لا يمكن العثور عليه بعد تحرك الركب، ولن يعرف أي إنسان أو حيوان أن في

هذا المكان يرقد رجل -رجل ذو عينيْن يبدو فيهما الغباء، وذو كتفين مقوستين، ويحمل على كاهليه الكثير من المشكلات.. كان يتجه إلى أوريجون وأصابه المرض في الطريق، ثم أخذ يصيح مستنجدًا بالمسيح ثم يموت.

كان إيفانز قد فكر قليلًا في حلق لحية مارتن، وكانت ربيكا تقول: إنه يجب إتمام ذلك؛ إذ من الواجب أن يذهب الرجل إلى القبر وهو حسن الهيئة، لذلك قاموا بإزالة هذه اللحية، ووضع أفضل ثياب مارتن عليه التي جعلته يبدو في مظهر طيب.

بدأ الركب يشق طريقه مرة أخرى، وكان إيفانز يشعر بهبوط في تفكيره وبضالة في وضعه الجديد كقائد لهذا الركب، كما لو كان لا يرغب فيه. وكان ديك يسير على طول الطريق بجانبه وهو يمتطي صهوة جواده. كان إيفانز مسرورًا بصحبة وصداقة ديك، لذلك كان يعتمد عليه، وكان يشعر بالقوة في داخل نفسه بسبب قوة ديك، وربما أظهر هذا الوضع أن إيفانز لا يمكن أن يناسبه منصب الكابتن لهذا الركب؛ ربما يكون هذا المنصب يتطلب ضرورة كون صاحبه ضخماً قوي البنيان حتى يستطيع أن يقف بمفرده لا يرغب في أي مساعدة من أي إنسان إلا مساعدات المرشدين والنصائح الخاصة بعبور الطرق ومراقبة الهنود، ولم يكن هذا ما يتصف به إيفانز نفسه، ولم يكن يرغب هو نفسه في أن يصبح زعيماً وقائداً، لذلك كان يجب عليه أن يعتمد على ديك، وحينما تواجهه بعض الصعاب والمشكلات العويصة يلجأ إلى دعوة المجلس للانعقاد لكي تكون هناك آراء مبلورة قاطعة في هذه الصعاب.

ولكنه على الرغم من ذلك كان يشعر بعدم الراحة والقلق حينما يقوم بأداء أي عمل؛ إذ يجب على القائد أن يكون أكثر من مجرد شخص يعتمد على شخص آخر أو يرتكن على دعوة المجلس للبحث في الأمور والمشكلات. كان يجب عليه أن يقدم الثقة إلى الشعب ويعمل على تشجيعه، وكان يجب عليه أن يوالي رعايته وعنايته بين وقت ووقت، وأن يرى ما إذا كان الركب في حاجة إلى أي شيء سواء رضي بذلك أو لم يرض؛ حتى لا يفشل الركب. كان يتمنى أن يقوم فقط بمراقبة ورعاية شؤون عائلته.

رفع إيفانز يده إلى أنفه ليمسح عنه الأتربة، ثم إلى عينيه وجبهته ليزيح العرق. كان الوادي عميقًا وضيقًا، وكان المسافر يشاهد أنواعًا جديدة من النباتات الشوكية التي اعتاد سمرز أن يسميها باسم «الحراب الإسبانية»، كما اعتاد ويذربي أن يطلق عليها اسم «إبرة آدم»، أما الزهور فلم يكن عنده اسم معين يطلقه عليها، وكان بعضها مخروطي الشكل أو أقحوانيًا أو ذا لون قرمزي أو أبيض أو أصفر، وكانت النساء والأطفال يقطفون الكثير منها إذا كان اليوم طيبًا، وكان يجب عليهم أن يكونوا على حذر شديد؛ نظرًا لانتشار «الحية ذات الأجراس» إذا كان من حسن حظ أي إنسان أن يفلت من عضتها، كان مجرد التفكير فيها يقلق المجموعة ويقلقه أيضًا، وجعلته يشعر بزيادة العبء والحمل عليه.

كان كل شيء يبدو أمامه كما لو كان الجميع قد أولوه ثقتهم ومستقبلهم، وكانوا ينتظرون منه أن يوالي رعايتهم والعناية بهم، وأن يمر بهم ليحييهم تحية الصباح. كان هناك رجل فيرمان - بوتر، ورجل

ماك- موسى - وكذلك شيلدز، وكاربنتر وأنسيكو وديفيز وورث، كانوا قد أدلوا بأصواتهم في جانبه، أو لم يكونوا - بأقل تقدير - ضده، لذلك قرر بينه وبين نفسه أن يتعرف بهم. ونظرًا لأن هؤلاء لم يكن من السهل مقابلتهم، لذلك كان يجب عليه أن يذهب إليهم بنفسه، ويجب على كل قائد أن يعرف كل رجل في الركب حتى أصغر فرد فيه.

نظر إيفانز خلفه فرأى ربيكا وقد نزلت من العربة وسارت بجانبها، فأخذ يرمقها، كانت تبدو نحيفة أكثر من قبل، ولكن لم يكن يبدو عليها أي أثر للإرهاق أو الملل، ولم يكن يعرف متى رأى أثر الحياة في وجهها من قبل مثل الآن.

عاد مرة أخرى لمسح أنفه ثم أدخل أصبعه السبابة في أنفه، واعتقد أنه سوف يصل إلى أوريجون وبعض رمال «بلات» معلقة به، إن بعض المياه الرملية لا تستطيع أن تزيل هذه الرمال العالقة.

وعلى أي حال لم تكن الرياح قوية في ذلك اليوم، وكانت الأتربة تندفع إلى أعلى ثم تتساقط مرة أخرى ببطء لتستقر، وكانت الشمس ترسل أشعتها المناسبة، وكانت دافئة تبعث الدفء والراحة في النفس، في حين كانت بعض السحب القليلة البيضاء تنتشر متفرقة في السماء، وكان البعوض قد بدأ ينقشع كما لو كان يستريح من حصار الليل.

كانت عربات تادلوك تدور في المقدمة، وكان تادلوك يسير بجانبها وهو لا يزال مرتديًا معطفه الكثير الجيوب الذي كان قد ارتداه في الصباح المبكر.. كان يسير في خط مستقيم دائري، وكان إيفانز يشعر في قرارة نفسه بالراحة بمجرد التفكير، في حين كان ملتزمًا جانب الرقابة الذاتية

بدلاً من السير حول الركب لمراقبة أي خلل أو خطأ بين المجموعة كلها، وكان يتحدث بلهجة ودية كافية، على الرغم من أن الابتسامة لم تكن تطرق شفثيه، وكان قد اتفق مع بروور، بعد وفاة مارتن، على أن يساعده وينحي مسز تادلوك جانباً إلى العربة الثانية.

كان إيفانز يصيح في الركب بالتقدم، وكان صوت العربات المندفعة أو التي تخوض أرضاً كلها رمال تسمح بين حين وحين، فكان يأمر رجله «هيج» بالقيام بإصلاح ما يختل منها.

وكان من المتوقع أن يجد الجميع أدوات وآلات وإطارات من الحديد في «لارامي» أو يقوم أي فرد بإصلاح إطاراته وملاءمتها مع عجلات عربته. كان النظام الذي يتبعه هيج، حتى تلك اللحظة حين القيام بعملية الإصلاح، نظاماً سليماً، وكان الجميع قد اتفقوا على شراء بعض المؤمن من «الأراضي» مثل الدقيق واللحوم «المدخنة» وغيرها، في حين كان البعض قد اتفق على شراء أو بيع بعض الثيران الهزيلة التي يمتلكونها. ولكن كم هي المسافة إلى «لارامي»؟ كم تبعد عن تشيمني روك على حسب ما قاله ديك؟ ستون ميلاً أو نحو ذلك؟ لذلك إذا استمر الركب في سيره الحثيث فإنه سوف يصل في أربعة أيام أو خمسة. كانت التلال قد بدأت ترتفع في اليسار وبطريقة غير منتظمة لتتجه، كما اعتقد إيفانز، إلى «سكوت بلوفز»، وفي هذه الأثناء شاهد عن قرب ستة من الخيول البرية ترعى في أعشاب الأرض وتقف شامخة الرؤوس.

وفي حين كان إيفانز يقوم بمراقبة ما حوله، جاء إليه ماك بي من عمود الأبقار، وكانت لحيته تبدو رمادية اللون بسبب الأتربة والرمال،

فبصق على الأرض ثم ابتسم، وقال:

- إن الماشية تسير على خير ما يرام، وسأعود لمراقبتها ورعايتها.
كان تقريراً فهمه إيفانز على أنه يعبر تعبيراً صادقاً عن المسؤولية
ودرجة القيادة، لذلك شعر بالراحة حين سماعه، أو بالطريقة التي عبر
بها عنه.

ترجل ماك بي عن جواده، وسار بجوار إيفانز وهو يقول:

- إنه يوم جميل معتدل.

فرد إيفانز، من غير أي تفكير في السبب، إلى أن قال بعد، وهو
يتحول إلى «روك» العجوز الذي كان يتعقبه:

- إنه يوم جميل لكل فرد.

وكان يتعجب في تلك اللحظة مما إذا كان السبب الوحيد الذي
جعله لا يتحدث إلى ماك بي، هو أن ماك بي كان يرغب في قتل كلبه،
ولكنه تأكد أن ذلك لم يكن السبب، فإنه لم يكن ليذهب إلى ماك بي
على الرغم من ذلك، فقد كان قذراً لا يعمل على تغيير هيئته أو حتى هيئة
زوجته، ولكنهما كانا قد أنجبا ابنة جميلة ورقيقة وهي «ميرسي» وكان
على إيفانز أن يعترف بأنها لم تكن جميلة بما فيه الكفاية فحسب، ولكنها
كانت فتاة دمثة الخلق ورقيقة المعشر. كان يشعر بالراحة في رؤيتها،
لذلك كان يتنهد بالراحة حينما لا يرى براوني يتعقبه، وقال إيفانز:

- لقد أخبرت زوجتي اليوم بأننا سوف نحقق ذلك بمشيئة الله، مع
أنني لم أكن أعرف في حقيقة الأمر حقيقة الوضع لفترة معينة.

حاول إيفانز أن يتذكر كيف يبدو وجه ماك بي تحت لحيته -ربما- فكان يخيفان، وشفتان متدلّيتان، كان يبدو نحيفاً، ومع ذلك كانت تبدو عليه الجدية، جدية وقوة. صاح ماك بي مقطّباً، وقد ظهرت أسنانه مكسورة وقذرة أكثر مما يستطيع الإنسان أن يعتقد:

- أجل يا سيدي سوف نقوم بذلك.

عرف إيفانز ذلك وهو يرقبه ويستمع إليه، كان هذا كلام واضح عبر عنه ماك بي بابتساماته ورأسه. كان ماك بي يعني التعبير عن إعجابه بالقائد، كان يرغب في أهمية.. ظلال الأهمية، كان عنده بعض الشيء ليقوله، ولكن إيفانز قال:

- إننا نعرف أننا نستطيع تحقيق ذلك دائماً.

- هذا ما يجب أن يكون، وعلى أي حال لقد حققنا ذلك الآن.

لم يجبه إيفانز، كان يعرف ما كان يجب أن يفعله، وكان يشعر بأنه يجب أن يخبر ماك بي، بأن يذهب إلى جهنم، ولكن ذلك كان شيئاً يصعب قوله، وكان يشعر بحاجة لصفع الفم الذي يتحدث أمامه، لذلك لم تكن كلمات المدح لتضله، بل كان يكره أن يتحدث بروح الصداقة، حتى ولو كانت هذه الصداقة مظهرًا.

وقال ماك بي:

- كنت أود أن أخبرك بأنني لا أحمل أي شعور عنيف أو كراهية ضد الكلب أو أي من الكلاب.

- حسنًا، ونحن لا نشعر بذلك أيضًا.

- كانت زوجتي تقول لي اليوم إنك قد خلقت لتكون قائداً.

- أنت تعرف أنني لم أعمل أو أسع من أجلها.

- كلا بالطبع.

تحول إيفانز إليه وتحدث إليه بقوة وتأکید، وكان يبدو غير راض عما يجب أن يقوله:

- ماك بي، من الأفضل لك أن تظل مؤيداً لتادلوك.

أغلق ماك بي فمه المفتوح، وشاهد إيفانز في عينيه الرماديتين الغائرتين لمحة سريعة من لمحات الكراهية والحقد.

- أوه، بالطبع سوف أفعل ذلك.

ثم سار في طريقه في صمت لفترة وهو يقود جواده، ثم قال:

- أعتقد أنني يجب أن أعود إلى الخلف.

وامتطى صهوة جواده وعاد به.

وكان يخبر نفسه أكثر من ذي قبل بأنه يجب أن يظل متنبهاً لهذا الرجل، ليس من أجل أي عمل معين مكشوف، وإنما من أجل القيام بأي حيلة خاطئة. وظل إيفانز يرقبه، ورأى ريكا تبتسم له ابتسامة الإدراك لما يدور بخلد، في حين كان روك العجوز يجري بينهما. كان يجب عليه إذن أن يطلب من براوني أن يركز مراقبته على ممتلكاته، كما لو كان يفعل ذلك من أجل نفسه، وكان من الصعب الاعتقاد بأنه يوجد بعض الأفراد الذين يستطيعون القيام بأعمال من هذا النوع إلى أن يثبت ذلك بالأدلة.

الفصل الرابع عشر

كان كل شيء تنعكس عليه أشعة شمس ما بعد الظهر يبدو أبيض، ابتداء من الانحدار حتى القلاع الجنوبية الشرقية، باستثناء ظلال الأشجار التي تسقط عبر هذه الحواجز. كانت الخيام، التي كان هنود السيوكس قد أقاموها وتنتشر أسفل المكان، تبدو بيضاء أو ملطخة بالسواد على حسب عمرها. كانت هناك حركة الرجال والنساء يغدون ويروحون، وكان الأطفال يلعبون والكلاب تقفز وتشم الأرض بحثاً عن أي صيد أو بقايا طعام، وبدأت الخيول تصهل بعد أن ازدادت برودة الجو بعد الظهر.

ربط سمرز جواده وأخذ يراقب الوضع ويفكر في كيفية تغير الأمور وتبدلها، كانت هذه البقاع صغيرة مثله نفسه حينما شاهدها لأول مرة، صغيرة وبرية مثله لا تبدو على ملامحها آثار التفكير والسنين، ولم يكن بها أي مركز أو نساء من الهنود يستجدين بعض الملابس، بل كان هناك فقط الجاموس البري والغزلان والعشب الطويل الذي يتموج في قاع لارامي. كانت الرياح تصفر وكان صوتها أشبه بالفراغ في مكان لم

تطأه أقدام بيضاء من قبل. إن أي رجل مستكين في ردائه يشعر بالوحدة والقوة، يستطيع أن يسأل نفسه: من أين تهب هذه الرياح؟

أما الآن فلا توجد أبقار أو جاموس بري على مسافة خمسين ميلاً أو حتى غزلان، فلم يبق منها سوى القليل جداً، وكانت الرياح قد حملت أصداء الكلام وطرقات المعاول والمطارق وأصوات البغال ورائحة الحياة إلى أسفل السقف. إن المكان البعيد الذي يقع عند رقبة «لارامي» و«بلات» هو «فورت بلات» التي أنشئت بعد أن قام سمرز بترك الجبال، وكانت هناك «فورت لارامي» أو «وليام» على حسب ما يطلقون عليها، ولكنها مع ذلك قد تغيرت. جاء التغيير بتغيير آخر تذكر ذلك من الستة والثلاثين - أو هل كانت سبعة وثلاثين؟ - حينما كانت أشجار القطن تنتشر في هذه الأرجاء. أما الآن فقد أصبح كل شيء أبيض اللون في قمته مثل القلعة، في حين كانت تجارة جلود الجاموس البري التي يقوم بها رجل الجبال وهي التجارة التي لم تُمس.

أما فيما وراء التلال السوداء «بلاك هيلز» التي ترتفع بعيداً، فقد كانت الظلال السوداء تغطيها بسبب وجود عدد من أشجار الصنوبر المتناثرة التي ترتفع شامخة عند «قمة لارامي»، أما بعيداً عن النظر، فقد كانت هناك «ريد بتس»، و«سويت ووتر»، و«سوذرن باس» و«جرين» حيث قضى سنواته الأولى في صيد الغزلان يظن أن هناك أسراباً كثيرة منها سوف تأتي إليه طائفة وصاغرة، وكانت «بوبو آجي» تقع في الطرف القريب من الممر من ناحية الشمال. أخذ يشكل كلمات «بوبو آجي» بشفتيه، ويتذكر صوت المياه المندفعة من الغدير الذي يطلق عليه اسم

«آشيا»، (بوبو آشيا) صوت السائل.. والفتاة الدافئة التي كانت تقف بجوار الغدير، وكانت تبسم وهو يحاول أن يتمرن على كيفية نطق هذه الكلمات، لقد نسي اسمها، وقد أصبحت الآن ميتة أو امرأة كبرى، واندثرت معها ضحكاتها. وهل تتذكر السكين الطويل الذي رقد معها؟ لم يستطع أن يستعيد تذكر وجهها، كل ما تذكره هو دفؤها وفخذاها الصغيرتان النحيفتان. كانوا يسرون على طول «بوبو آجي» والمياه التي تتدفق بيضاء بسرعة، والأشجار الباسقة الخضراء التي ترتفع شامخة، وجبال الرياح التي تقف شامخة ولم تعرف مصائد من قبل.

كان يجب عليه أن يعود إلى الركب الآن، ولكنه ظل فترة أطول صامتاً حينما استيقظت الذكرى وأصبحت حقيقة مرئية. «لارامي».. إنها المدخل إلى هذه الجبال، ويجب على كل إنسان أن يركز عينيه ويظل في حالة انتباه تام لكل ما حوله، وظل يراقب طريق الجاموس البري وهو يضع البندقية على كتفه، كان الخطر لا يزال كامناً، الخطر من «البونيز» و«السيوكس»، وربما «بلاك فيت» فيما بعد. ولكن هذا الموضوع كان ذا أثر مختلف، كان الأطفال والنساء يمرحون تحت أشعة الشمس، وكان يبدو عليهم المرح والشعور بالأمن.

ترك نفسه يسرح بتفكيره في ميسوري، وكم عدد الجبال الكبيرة القابعة هناك. كان قد قام بذبح الكثير من الخنازير، وجمع المحصولات وقيادة الثيران والبغال ومحاصرتها في «ماني»، ووقف تفكيره حول الغزلان والوعول، وأغمض عينيه ليفتحهما؛ لكي يجد أمامه بعض نساء الهنود اللائي وقفن أمامه ثم اختفين بعد ذلك.. إن «بوبو آشيا» تشبه المياه الجارية.

كان في قرارة نفسه رجل جبال، وسوف يظل هكذا بقية حياته حتى إذا قام ببحث أرضه وتربية الخنازير مرة أخرى، ولم يكن هناك أي مكان في هذه الأيام لوجود رجل الجبال، وبعد عدة سنوات سوف يقوم بعض الرجال برحلات صيد، في حين كان الجاموس البري يزداد نحافة، وكان كل ثلاثة عجول صغيرة تسقط لمقتل بقرة واحدة، لذلك فإن سكان البرية والجبال سوف يعيشون في المستقبل على لحوم الخنازير وهم لا يعرفون طعم الدهون ولحم الأفخاذ، ولا يعرفون أيضًا مدى قوة شكيمة وبطش العدو من «الريز» أو «البلاك فيت».

جلس سمرز فوق الأرض وأخذ يستعيد في ذاكرته الأشياء القديمة التي كان يقتنصها، وشعر بلذة في إنعاش ذاكرته، كما شعر بقلبه يقفز نحو الجبال أو المناطق الخضراء أو النهر، حيث ترك ذكريات حافلة هناك، وحيث نصب شراكه للحيوانات وقام بالقنص هناك. كان يود في هذه اللحظة أن يستعيد شبابه ويجدد حيويته بالجري خلف الوعول البرية ووسط غدران المياه، ووراء نساء الهنود والمخاطر، هل كانت جميع هذه الأشياء مجرد أسماء للأوقات الصغيرة؟

هز سمرز نفسه، من الأفضل أن يستغل ما تبقى أحسن استغلال، ولم يكن هناك في داخل نفسه أي شعور بالأسف. عاد إلى امتطاء صهوة جواده، ثم اتجه إلى الخلف مرة أخرى إلى حيث الركب.

قالت ريكا إيفانز:

- إنني لا أستطيع أن أنتظر وصولنا إلى القلعة.

ثم خطت إلى الأمام حتى تستطيع أن تسير بجوار ليحي تاركة
الثيران التي تجر العربّة تسير خلفها بنفسها.

وقال ليحي، كما لو كان قد أدرك ما تعنيه زوجته:

- إن الطريق لا يزال طويلاً، ولكننا سوف نكون هناك على الفور.

- كم من الوقت سنمكث هناك؟

- لن نحتاج إلى وقت طويل، ربما كان يوماً ونصف يوم أو يومين..
يجب أن نستمر في طريقنا.

- أليست «لارامي» في منتصف الطريق يا ليحي؟

- الآن يا بيكي، إننا على أمل أن نصل إليها في الحال.

- كم تبعد؟

- يقول ديك إنها قد تزيد على ستمائة ميل.

- وكم تبعد المسافة منها حتى نهاية المطاف؟

- ربما ألف وثلاثمائة ميل.

- إنها أسوأ مسافة. أليس كذلك؟

لم يجبها على ذلك، وإنما أخذ يجذب نفساً متواصلاً من غليونه
غير المشتعل، وكان المرح يبدو على وجهه وهو يرقب العربات وهي
تسير إلى الأمام، ثم أخذ ينظر خلفه بين حين وحين؛ لكي يستوثق من
أن كل شيء يسير في طريقه السليم. كان الركب قد قطع جزءاً من النهر
وسار فوق أعشاب طويلة تدوسها عجلات العربات. كانت مجموعة

الركب تلهب ظهور الثيران والخيول بالسياط والعصي، كلما راودت أذهانهم فكرة الوصول إلى لارامي. ولكن لم تكن الثيران تهتم بذلك، ولم يكن يهتم أي ثور هزيل منهمك جائع بالضربات التي تنهال عليه.

وهنا قالت ربيكا:

- يبدو أننا يجب أن ننتظر وقتاً أطول حتى لا تنفق الماشية.

ولكن ليجي استمر واضعاً غليونه في فمه وهز رأسه، فتنهدت في داخل نفسها، وهي تظن أنه من الأفضل البقاء في القلعة بقية حياتها؛ لتقوم بالأعمال المليئة بالأوساخ والدخان والتعب والدموع في الأعين والقدمين الملطختين بالأوحال والأتربة نتيجة للجلوس فوق الأرض، لن تشعر هناك بالحصى في حذائها، ثم قال لها ليجي:

- إننا نتقدم تقدماً حسناً.

فأجابته:

- أجل.. حسناً.

كانت تعتقد أن الرجال يبدون شعوراً وموقفاً غير عادي، وحتى ليجي نفسه، كان يبدو قلقاً، على الرغم من أن بعض السرور الحقيقي والبسيط كان يبدو على وجهه وحركاته وعضلاته وطريقة سير ودوران العجلات، فكلما زاد عدد الأميال التي يقطعونها ارتفعت معها روحهم المعنوية، كما لو لم يكن هناك أي أمل في حياتهم سوى ترك آثار خلفهم، ولم يكن أحدهم يهتم بتناول طعامه مخلوطاً بالرمال.

كانت تعرف أنهم يرغبون في الوصول إلى أوريجون سالمين بأي

وسيلة، وكانت تعرف أنه يجب عليهم أن يستمروا في رحلتهم، ولكنها لم تكن لتهتم بالتعب وبالليل وبمضي النهار وبالسرور، كانت تشعر بالتعب والإنهاك في المساء وبالحزن القليل المخلوط بالتعب، ولم تكن ترغب في التفكير في الغد، وكانت تتعجب مما إذا كانت أوريجون كما تصورتها أو رسمتها في مخيلتها.

وكان إيفانز يميل إلى وجود الشمس والرياح أيضًا، لذلك أخذ يسير وسط الأتربة كما لو كان قد استبعدها من تفكيره، أما زوجته فقد رأت أن الشمس أصبحت قاسية في بعض الأحيان - قاسية بشعاعها وبريقها - ووجدت أيضًا أن الرياح قد أصبحت جافة، وكرهت معها خشونة حبات الرمال التي تقبع داخل الحذاء.

وقال:

- هذا هو ديك.

وكان سمرز يقف مرتدًا معطفًا من جلد الغزلان ويحرك الركب وهو يسير في طريقه، لم تكن لتستطيع أن تميز التعبيرات على وجهه؛ لأن الشمس كانت تعكس أشعة مباشرة على عينيها، ما لم تقم بإنزال قبعها فوق جبهتها، كانت تعرف أن وجهها وبشرتها قد ازدادا احمرارًا بسبب فعل حرارة الشمس، وأصبح وجهها يبدو فيه الجفاف حتى أصبح شبيهًا بوجه الرجال أكثر منه بوجه النساء. كانت ترغب في أن تصبح أشبه بالنساء بعد أن زاد حجمها في الضخامة، وكانت تميل إلى أن تزيد نظافة ونعومة، وأن تكون حسنة الملبس، ليس أمام ليجي فحسب، وإنما أمام نفسها أيضًا كامرأة حتى تستطيع أن تشعر بأنوثتها وبمكانتها

الطبيعية. كانت تفكر في الشيء الذي سوف تفعله حين وصولها إلى القلعة، وهو تسخين المياه والاستحمام، والتخلص من الآلام التي تصيب عظامها، ثم أخذت تفكر فيما مضى وولى أيضًا.. في ميسوري والبيت العتيق، والبرودة المنعشة، وزبدة الألبان والخبز. أخذت تفكر في ظلال الأشجار وفاكهتها والدولاب والأطباق والملابس وأواني الطهو والرائحة التي تتصاعد من الأطعمة حين الطهو.. كان لها بيت في ميسوري، مكان لا يزال قائمًا حتى الآن له مدخل ونوافذ، كانت تعرف ما شاهده من تلال وأشجار وانحناء السماء الزرقاء وراء الأفق.. وحينما كانت تشعر بالتعب والإرهاق كانت تجد مكانًا للراحة.

كان هذا هو الشهر الذي كانت تعرف أنها تشعر فيه بالراحة الجسمانية، ولكنها لا تستطيع تحقيق ذلك أيضًا. صممت بينها وبين نفسها ألا تذهب بعيدًا عن «لارامي» سواء أكان معها ليجي وبراوني أم لم يكونا معها، كانت تود أن تبقى هنا في هذه البراري وتترك الركب يشق طريقه وسط الرياح والشمس الحارقة والأتربة.

وقفت في مكانها، لم تكن ترغب في أن يشاهدها ليجي ويرى آثار الشمس على بشرتها ووجهها، ثم ظلت ترقبه وهو يسير إلى الأمام، في حين كان فريقها قد وصل إليها، وشعرت بأنها سوف تسير في الركب، لذلك أخذت تقول لنفسها إن ليجي سوف يستمر في ذهابه وتحركه إلى أوريجون، وأنه لا يفكر بأن هناك أي شيء يدور في ذهنها سوى أنها ترغب في مراقبة عربتها.

أدارت رأسها بعيدًا عن الشمس، وكانت تراقب قدمها وهي تخطو

إلى الأمام، وفي هذه الأثناء جاء إليها الكلب «روك» يسير متمهلاً، ثم أخذ يحتك بها وينظر في وجهها، ثم سمعت صوت سمرز وكان يمتطي جواده ويدور حول الركب وهو يتحدث إلى ليجي ويقول:

- إن لارامي فورك ليست مرتفعة إلى هذا الحد، لذلك فإن أفضل مكان لنصب الخيام وإقامة المعسكر هو غرب القلعة.

فهز ليجي رأسه علامة الإيجاب، واستمر سمرز يقول:

- يجب عليك أن تطلب معاونيك لمحادثتهم يا ليجي.

- بالتأكيد. ولكن من يكون؟

- سمعت في مكان ما أنه جيم بوردو. كيف حالك الآن يا مسز إيفانز؟ ألم يمت روك بعد. أوه، إنه لا يزال قويًا.

- لقد جاء لتوه فقط، إنني متساهلة.

- إنه سريع، سوف أسير في طريقي يا ليجي.

كانت العربات التي تسير في المقدمة تختفي عن الأنظار في منحدر ظنت ريكا أنه يؤدي إلى «لارامي»، كان يبدو أن عجلات هذه العربات تغوص في الأرض وتتلاشى الواحدة تلو الأخرى بقاعها وبقماتها البيضاء.

أخذ ليجي يصبح في ثيرانه بمجرد أو وصل إلى قمة التل، واتجهت إليه ريكا فشاهدت الركب ينحدر إلى أسفل، حيث شاهدت ظلالاً متموجة عرفت فيها «فورت لارامي»، التي كانت تبدو بيضاء تحوطها أشجار تتموج ظلالها فوق الأعشاب، لذلك قالت:

- لم أكن أعتقد أبدًا أنني سأكون مسرورة إلى هذا الحد حينما أشاهد مبنى.

- إنها فورت لارامي بالتأكيد.

- ليس بسبب كونها قلعة، وإنما لأنها مبنى فحسب.

- إنها فورت لارامي على أي حال.

- هل تعتقد أن عندهم مقاعد هناك يا ليجي؟ مقاعد حقيقية.

كان هناك بريق في عينيه، لذلك قال:

- بالتأكيد.

ثم توقف قليلاً، ودق بقدميه فوق الأرض وأخذ يغني قائلاً:

«إلى بحر الباسفيك البعيد».

- هل ستذهبن، هل ستذهبن أيتها الفتاة العجوز، معي؟

فردت قائلة:

- أود فقط أن أستريح فوق مقعد فقط.

لم تعتقد ميرسي أنها كانت سعيدة من قبل بهذه الدرجة، كان للموسيقى أجنحة انتقلت بها، وكان الليل يبدو جميلاً مرغوباً فيه، في حين كانت النجوم تتلألأ في السماء كأنما تنظر إلى أسفل لتبتسم لميرسي ماك بي، لذلك أدركت في هذه اللحظة أن والدها كان على حق. سوف يختلف كل شيء في أوريجون، سيكون المستر ماك مرتدياً قميصه الأبيض وفوق كميهِ العالقان السوداوان. وقد انتهت المشكلات

من الأمس، وهل عرفت كم من المرات فكرت فيك؟ وأنا أعرف أنه يجب ألا أفعل ذلك، وأبحث عنك وسط خط السير الطويل المليء بالأتربة. هل اقترحت شيئاً يا سيدي؟

كانت الموسيقى خارجها، والموسيقى داخلها، وكانت أحاديث الغناء تعتلج في صدرها ولا تستطيع أن تطلقها بسبب خجلها، ولشعورها بأن ذلك من أسرارها الخاصة. كان الليل الهادئ ينشر السكون في جميع الأرجاء، وكانت النيران الكبيرة تضيء الأجواء، وتظهر النيران في أعين الهنود الذين يلتفون في حلقة. كانت الموسيقى قد شقت طريقها إليها - صوت براوني إيفانز:

- لقد حان الوقت لكي تتعلمي.. إن الوقت مناسب. دعي الموسيقى تحرك قدميك.

بدأت ميرسي ترقص رقصة «السوينج»، فتقدمت خطوة ووضعت اليد فوق اليد، وشاهدت هيج وهو يدق النظر في النجوم؛ ليقرأ طالع ميرسي ماك بي الصغيرة التي بدأت تنضم إلى المجموعة، وبدأت تطلق بعض الكلمات من فيها.

بدأت تراقب الأعين، وتراقب النجوم، وتراقب الليلة المرغوب فيها. كانت ميرسي ترتدي ثوباً به ياقة مقلوبة، وكانت قدماها في حذاءين كانا ملكاً لمسز بروور التي كانت ترغب في مساعدتها في يوم من الأيام. تستطيع ميرسي أن ترقص.. وكانت خير رفيق وراقصة.. إنني أعلن أنني لم أر مثلاً من قبل.

كانت الأذرع مرتبطة بعضها ببعض أكثر مما كان يتطلبه الوضع،

وكانت الأيدي تضغط بعضها على بعض، وكان الرجال يلاحظون ذلك.. رجال ذوو أهمية كبرى، ووجوه لامعة حلقة وماشية ضخمة سميكة.. كان الرجال قد لاحظوا الوضع وليس الغلمان، على الرغم من أن هؤلاء الغلمان قد بدأوا يراقبون الوضع أيضًا، وعلى الرغم من أنهم كانوا يخشون النظر في ذلك.

كان المستر بيرد يرقص رقصًا جميلًا، في حين كان يقف المستر بوتر وهو يمضغ، ويقف فيرمان ومعه رفيقة ممتازة في الرقص. واستمر الرقص «الدو-سي-دو، والسوينج»، في حين كانت النجوم تبتسم وتزدحم في كبد السماء.

وفجأة توقفت الموسيقى وتوقف معها هيج تاركًا زميلته، وانحنى لها وهو يبتسم، فابتسمت ردًا عليه، مع أنه كان يعتبر شخصًا غير محدود في المجموعة. وتحدث المستر ماك بصوت خافت في أذنها، في حين كانت البقية من الناس تتحرك.. هل ترغب في أن تسير في جولة؟ وهل توافق على مقابله بعيدًا عن منطقة النيران حيث يوجد المعسكر؟ كان على وجهه شبه ابتسامة حينما تحول جعلته يبدو كما لو كان غلامًا صغيرًا. لقد كانت ليلة جميلة، وقد ظل يتحدث إليها هامسًا بين الأصوات التي ترتفع جانبًا. لن تبتدى الموسيقى لفترة ضئيلة، وذلك في الوقت الذي أصبحت فيه الرفيقات منهكات وينعكس التعب عليهن، فهل توافق على السير في جولة قصيرة؟

اعتقدت في داخل نفسها أنها توافق، في حين كان قلبها في حالة سكون ينتظر إجابتها خوفًا من الموافقة، وأكثر خوفًا من الرفض، كان

من الأفضل لها أن تسير معه بحذر، وأن تتحدث إليه بدقة، ولا تفكر بشأن حلقات الشعر التي يجب أن تطرحها إلى الخلف.

كانت تومئ برأسها إليه، في حين كانت ترقبه وهو ينسل من بين الموجودين. كان عليها أن تصمم على شيء وتقرر اتخاذ وضع معين، وكان يبدو عليها أنها لا تستطيع أن تنتظر كثيرًا، وشعرت بالدماء الحارة تندفع إلى رأسها، وبأنفاسها تتلاحق بسرعة، وبكل كيائها وهي تقول سوف أحضر، سوف أحضر، قلت بأنني سأكون هناك يا مستر ماك. أرجوك، سأكون هناك.

أوقفها براوني إيفانز عند نهاية التجمع، كما لو كان عندها وقت له وقال لها:

- إذا كنت ستعودين إلى المعسكر، فإنني أرى من الأفضل أن أذهب لمرافقتك وحرastك؛ حتى لا يمسك أي سوء.

وكان وجهه الذي يبدو فيه الطفولة يبدو منزعجًا وهو ينطق هذه الكلمات التي كان تبدو كما لو كانت قد جاءت إلى لسانه بالقوة، فنظرت إليه وعرفت فجأة الحالة التي يشعر بها وشعرت ببعض السرور، وكانت على استعداد للسير معه، إلا أنها شاهدت في عينيه نظرات عارية متواضعة تصرخ بما يشعر به نحوها، هزتها مسحة من الحزن، لذلك قالت له بلطف:

- سوف أكون على ما يرام يا براوني.

ثم اندفعت في الظلام لكي تلتقي بالمستر ماك وهي تتذكر وجهه

الذي ظهر فيه بريق البهجة بعد أن تحدث إليها. وقال المستر ماك بلطف
كما لو كان لا يعتقد أنها قد جاءت:

- هل حضرت؟

ومد يده لتلمس مرفقها، وليقودها خارج المعسكر نحو الغدير،
حيث ينقطع مرور الناس، واستمر يقول لها:

- ليلة لطيفة، أليس كذلك؟

قالت باقتضاب، وكان حلقها مليئًا بالنبضات والتنفس السريع:

- أجل. أليس من الخطير أن نكون هنا بالخارج؟

- إننا لسنا قريبين من القلعة، وعلى أي حال فإنني أحمل معي
مسدسًا.

سار بجانبها ويده ممسكة بمرفقها، ثم أمسك بذراعها، ثم انحدر
بيده إلى يدها، وأخذ يتلمس أصابعها وراحة يدها.

- أعتقد أنك تظنني أبلغ المليون عامًا يا ميرسي؟

- كلا.

- إنني أشعر بأنني صغير السن على أي حال، الليلة، ربما صغير
مثلك.

- إنني لا أعرف أي شيء يا مستر ماك.

- لا أحد يعرف.

كانت هناك شجرة تقف سوداء على حافة النهر، فأوقف ميرسي

عندها، وقال لها بلهجة تبدو غاضبة في طياتها:

- لا أحد يرغب أن يعرف.

وردد النهر صوت همهمتهما، واشترك في ذلك نسيم خفيف كان يحرك أوراق الأشجار، وفي هذه الأثناء عادت الموسيقى إلى العزف وكان صوتها يأتي من مكان بعيد، في حين كانت النيران البعيدة تبدو كنجوم متلاثلة، بأضواء باهتة وبنيران مشتعلة على الأرض، ثم كرر قوله:

- لا أحد يود أن يعرف.

ثم ترك يده وجذبها نحوه، فصاحت بصوت يكاد لا يسمع، في حين كان فمه يقترب من فمها في نهم:

- هل هذا عمل سليم يا مستر ماك؟ هل هذا يأتي منك؟ إنك أكبر مني.. أنت تعرف، عندي شعور بأنه عمل غير لائق.. إنه عمل يجب ألا يأتي منك، ولكنك قلت إن أحداً لا يعرف.

شعرت بالأرض تكاد تميد من تحتها، وبأيد تبحث عنها كبيرة وحكيمة، وعزيزة عليها، وشعرت بأن الموسيقى والرقص قد أخذتا يتلاشيان في ثورة الدم التي تندفع في جسدها، وفي ضباب النجوم التي تسري مع نبضات قلبها، والآلام التي تنتشر في جسدها... الآلام النهمة.. أصبحت تشعر بأن كل شيء قد تاه عنها؛ فقدت الموسيقى والسماء إلا هذا، إلا هذا، إلا هذا، أخذت النجوم تدور في السماء، ثم تنفجر لتخرج من السماء تاركة وراءها ذبلاً وأثراً من النيران والضوء.

لم تكن ترغب في أي شيء بعد ذلك سوى البكاء، لا شيء سوى أن ترقد وتبكي، في حين أخذت الأصوات والموسيقى والليل تعود جميعها مرة أخرى. شعرت بيديه تمسكان بها وترجوانها أن تجلس، ثم بصوته يقول لها برنة مليئة بالبؤس والحزن أثرت فيها:

- إنني آسف يا ميرسي.. إن الرجل أحمق في كثير من الأحيان.

فهمست قائلة:

- لا تأسف.. إن الأمر سوف يكون أسوأ لو أبديت أسفك.

- إنك فتاة عزيزة.

فأحنت رأسها له، ثم أسندته عليه كأنما لتطلب الرقة والراحة، وقال:

- إنني أعرف أن ذلك لم يكن صواباً، إنني المعلوم على ذلك.

- إن من الشجاعة أن تقول ذلك، ولكن لم يكن من اللائق بك أن تفعل ذلك.

ازدادت ذراعه إحاطة بها، ثم أجابها:

- إنني لا أستطيع أن أحب، هل تدركين ذلك يا ميرسي، يجب ألا أحب؟

- أعرف ذلك.

ثم جلست بعد أن شعرت بأنها أسندت رأسها إليه فترة طويلة، وأخذت الأسئلة تدور في رأسها، وكان صوتها يمتزج بالخوف حينما سألته قائلة:

- هل سينتج عن ذلك أي شيء يا مستر ماك؟
- فأجابها بسرعة:
- لا أعتقد ذلك، إنني على ثقة بأن شيئاً ما لن يحدث.
- هل أنت متأكد؟
- تمام التأكد.
- لم يقم أي إنسان في حياتي بلمسي سواك.
- سوف تكونين على خير حال.. إنني على ثقة من ذلك.
- ثم سحب ذراعه التي يضعها حول كتفها، واستمر يقول:
- من الأفضل أن نعود ثانية.
- إنني لم أعد أهتم بالرقص من الآن.
- سأتبعك لأتحقق من سلامتك حتى تصلين إلى خيمتك.
- إنني لا أشعر بالرغبة في عمل أي شيء سوى الجلوس بجوارك.
- فأعاد ذراعه إلى كتفها، وقال لها:
- من الأفضل ألا نبقي فترة أطول من ذلك.
- فنهضت واقفة، وأخذت تصلح من رداءها ذي الياقة المقلوبة، ثم
- أسندت رأسها إلى صدره وأمسكت بقميصه في يدها بشدة، فقال لها
- وذراعه تخاصرانها وتحيطان بها:
- ميرسي.. يا صغيرتي.
- كان هناك بؤس في صوته، وبداية شيء آخر أيضاً خلقت من لهجته

صورة طبيعية جعلتها تشعر بالأمن والراحة، واستمر يقول لها:

- إنني مجنون، ولا أصلح لك يا ميرسي، قولي كلا.. قولي كلا من أجل صالحك. ولكننا نستطيع أن نرى بعضنا بعضًا مساء غد، أليس كذلك؟ كانت هناك قوة في دقات طبول الهنود التي أثارت الأخ ويذربي، كان يعتقد أن الشيطان والشر ينتظران ويراقبان الراقصين منتظرين الفرصة للعمل الشرير؛ لأن ضربة العصا فوق الجلد الجاف تصبح أكثر قسوة وعنفاً. أصبح ذلك نوعاً من الدعوة للعنف والعواطف السوداء والخطيئة وعبادة الأوثان، التي يقترحها الراقصون تقليداً لحركات الجاموس البري.

لم يكن الضوء قد اختفى بعد من السماء، على الرغم من أن الشمس كانت قد اختفت، ولم يستطع أن يقوم بجولته وهو يشاهد قفز ورقص الشباب من الهنود الذين كانوا قد لفوا أجسادهم في ملابس من جلود الجاموس البري التي ظلت قرونها بها. كان هؤلاء الشبان يقفزون ويصيحون ويزحفون على أنغام الطبول ودقاتها، كان ويذربي قد شعر بخيبة الأمل وهو يقف مع أفراد الركب يراقبون هذه الحركات، من هذه الوحشية البسيطة، ومن عجائب العالم.

كان قد شعر بتحسن قبل ذلك، بعد أن كان قد قدم خدمات إلى السيوكس عند ظلال إحدى الغابات الصغيرة، لم يكن هذا المكان بيتاً من بيوت الله حيث يكون عمله أكثر فعالية يساعده في ذلك إغلاق المكان، وتعود على مظاهر الزوار، بل كان المكان شاسع الأطراف تظله السماء، لا تحدده جدران، أو مديح أو يوجد به إنجيل. شعر كأنه

نبي يصبح وينشر دعوته وسط البرية، كان اجتماعيًا طيبًا.

كان ديك سمرز قد حضر هذا الاجتماع بناء على طلب لترجمة الأسئلة والإجابات التي كان ويزربي قد تكهن بها من قبل، وأخذ يستمع باهتمام كأني هندي، ما عدا ابتسامة طفيفة كانت تعلو شفثيه بين حين وحين لتظهر المكر والكذب في عينيه الرماديتين. كان سمرز إنسانًا لا دينيًا.. طيبًا في معشره، ولكنه لا يهتم بالدين، بل يعتقد بأن له آراءه الخاصة بهذا الشأن. وكان ويزربي يرفض هذا الاعتقاد؛ إذ كانت هناك معرفة واحدة فقط هي معرفة حب الله. كان عطوفًا وطيبًا وكريمًا، وكفئًا كما يجب أن يكون مرشد أي ركب، وقد تذكر ويزربي أن يشكر الله دائمًا لإرساله هذا المذنب بينهم، كان يبدو له دائمًا أنه لو استطاع أن يجعل سمرز يلمس ذلك ويعرفه، لاستطاع أن يحقق أعمال وأمجاد السماء.

انتهى من عمله وصلاته، وذكر سمرز وطلب منه أن يوجه هذا السؤال: هل يرغب السيوكس في أن يتعلموا الطريق إلى الله؟ هل يرغبون في الخلاص؟

فتحدث سمرز إلى الهنود بلغتهم وبإشاراتهم، فهز جميع السيوكس رؤوسهم -النساء والرجال على السواء- ثم نهض زعيم كبير السن في النهاية، واستخدم الإشارة نفسها، وكان يقف بعزم وحزم وكرامة جعلت ويزربي يحسده، ثم سأل سمرز:

- ماذا قال أيها الأخ سمرز؟

- إنه شيء مغاير.. إنهم يرغبون في تعلم طب وأدوية الرجل الأبيض.

طب ودواء! أخذ ويذربي يفكر.. طب ودواء؟ كانت عنده فكرة في لحظة للتحدث أو لتأنيب الزعيم لعدم إدراكه أو اهتمامه بالمقدسات، ثم فجأة أدرك أن الزعيم على حق.. إن طريق الرب هو الدواء.. الدواء لعلاج الروح المعذبة لذلك صمم في قرارة نفسه على استخدام هذا التفسير والشرح في مجتمعات الرجل الأبيض. واستمر يسأل:

- ماذا أيضًا يا أخ سمرز؟

- إنه يقول إنهم يعتقدون أن كتاب الله سوف يحفظ اللحوم في أماكنها ويساعدهم ضد أعدائهم.

- سوف ينقذ أرواحهم الفانية.. أخبرهم بذلك.

- أليست هناك أي كلمة أو علامة تشير إلى الروح أعرفها أنا؟ هل أستطيع أن أقول إنها الظلال؟

- لا توجد كلمة أخرى للروح.

وأخذ ينظر إلى الوجوه بشغف وإلى الملابس الخشنة التي يرتدونها وآثار الفقر التي تبدو عليهم. واعتقد ويذربي أن أجسادهم وأرواحهم فقيرة بالشكر لله وبالاعتراف بجميله وعطفه، لذلك شعر بالحزن المفاجئ العميق لهؤلاء القطيع البسيط من البشر، وشعر بالمحبة تطغي على كيانه وبالعطف، مثلما يشعر الرب نفسه حينما يرى المخلوقات الضعيفة البائسة في الأرض، فأخذ يتمتم قائلاً:

- إنهم قد عانوا الكثير من الآلام، أرجوك يا إلهي.. إنني أصلي لك.. إنهم بشر لم تسنح لهم الفرصة لمعرفةك.. أسبغ رحمتك عليهم،

واجعلهم مسيحين، وامنع عنهم الشر والإلحاد بمشيئتك.. إنهم أطفالك البسطاء.

كان هذا الدعاء يملؤه أحيانًا بالحب، وأحيانًا بعدم الصبر الخاطيء من أن الله قد زاد من عذابه للرجل الأبيض الذي يعرف الحق والعدل ويميز بين الخير والشر والخطيئة، ثم يختار الشراب والإلحاد وارتكاب المعاصي الجسدية، لتكن لهم مكافأتهم على إيمانهم. وأخذ يدرس الوجوه التي أخذت تتطلع فيه، ثم طلب من الرب:

- دعني لا أتعجل في حكمي يا رب؛ لأن ذلك من أجل حبك وعبادتك واجتناب غضبك.. إن روحك القوية قد علمتنا الصبر والسلوان، فامنحني القوة على القيام بعملك بتواضع وبإدراك، وامنحني الطاقة على تحمل الآلام الطويلة أيضًا.

حضر إليه الهنود، بعد الأسئلة والإجابات، واحدًا بعد الآخر يهزون يده، ولم يكن قد شعر من قبل في حياته بمثل الثقة والاعتزاز الذي يشعر به الآن.

أما الآن فقد ورد إلى ذهنه المحاربون صغار السن الذين يحملون السهام والرماح، والذين يحاولون تقليد الحيوانات والوحوش، كان بعضهم يغني أغنيات شيطانية على دقات الطبول، في حين كان الرجال البيض يشجعونهم على ذلك وهم يلتفون حولهم، وقال أحدهم ممن يقفون في الخلف:

- إن هؤلاء الهنود يسحرون بمظهرهم.

وكان ويزربي مصممًا على أن هذا العمل نوع من الأعمال البائسة، في حين كان عدم التشجيع يحيط به من كل جانب، فعلى الرغم من عظمة الله التي تحيط بالجميع، ومن الدلائل التي تشير إلى قوته في الليل فوق رؤوس العباد، لم يستطع الهنود أن يجدوا أي شيء أفضل من القيام بالأعمال الوحشية، ولم يجد الرجال البيض خيرًا من الوقوف لمشاهدة هؤلاء الهنود والتمتع بمظهرهم. كان قد سمع من قبل أن شركة الفراء الأمريكية تستخدم المشروبات الروحية في تجارتها، لذلك اشتم رائحة الويسكي البغيض.

توقف الرقص، وبدأ رقص آخر.. رقص الكلب هذه المرة، فأخذ ويزربي يرقب المنظر فترة قصيرة، ثم ابتعد وهو ممسك بالإنجيل الذي كان قوته ومأمنه.

كان الليل قد أرحى سدوله، وكان الظلام دامسًا في المناطق البعيدة عن أضواء ولهب النيران، وكان ويزربي قد شعر باليأس، وأخذ يتذكر أيام ضعفه، ويتذكر أن إيمانه بالله وحده هو الذي جعل روحه تسيطر على جسده. ويتذكر أن من دلائل حكمة الله اللانهائية أنه كلما ازدادت حرارة الدماء في الجسد، ازدادت معها انتصارات الحق والإيمان.. إذا استطاع فقط أن يسترعي نظر الرجل الأبيض والأحمر إلى ذلك. كان يعرف الطريق إلى الخلاص، أما الآن وفي هذه اللحظة فهو يشعر بانهيار بسبب معرفته بالخطيئة، وضخامة واجبه، كان الله قد طلب منه أن يذهب إلى أبعد من ذلك، وكان يطيع ذلك، أما الآن فإنه يشعر بانهيار بسبب ضعفه.. فليغفر الله له بسبب تردده.. وليمنح الله قوة ولهيئاً لكلماته؛

حتى يستطيع الإنسان الشرير أن يرى قبس النور الحي.

كان شكورًا لربه حينما قرأ في النجوم برهان القوة الإلهية ودوام وجود الله، إنه الرب الحقيقي. كان الله قريبًا ومجيبًا للدعوات وللصلوات وغفورًا، فإذا بحث الإنسان الطيب في قلبه لشعر بوجود الله.

كان على يمين ويذربي إنسان تحرك ثم توقف، كما لو كان يحاول أن يتجنب الاجتماع، فأوقفه ويذربي وناداه:

- من هناك؟

فأجابه هذا الشخص وهو يسير نحوه:

- ماك. أسعدت مساء أيها الأخ ويذربي.

- أسعدت مساء.

- كنت أراقب الرقص!

- إني أرى أن في أعمالهم عدوانًا على الله.

- ألا يوافق الرب على ذلك؟

- هل تمزح بشأن الله؟

- كلا. إنني أتساءل فقط.

- ليكن عندك إيمان. إن ذلك هو جواب الشك.

- ولكن ليس بالنسبة لما هو موجود بالفعل.

أضافت هذه الكلمات واللهجة المزيد من انهيار ويذربي، ولكنه

قال:

- يجب أن تؤمن بما هو قائم.

- مهما يكن هذا الشيء؟

- مهما يكن. إننا لا نستطيع أن ندرك دائماً ماهية الرب؛ لأن عظمته
أبعد من أن نستطيع إدراكها بسهولة.
- لم أكن أعرف أنك صاحب مذهب.
- لقد كنت كذلك.

ثم هز ويذربي رأسه، وظهر عليه الأسف العميق والشعور بعدم
الدقة والضيق والقلق، بسبب رفض هذه الحقيقة الأبدية، ثم استمر
يقول:

- ليكن عندك الإيمان.. إن الأسف والصعوبات والإغراء.. كلها
اختبارات للإنسان.

ابتسم ماك، ثم ضحك ضحكة قصيرة فيها خبث، ثم قال:
- كل شيء سيئ هو من أفعالنا وأخطائنا، وكل شيء طيب هو من
فعل الله.

- إنك تتحدث كما لو كنت ملحدًا.

- إنها كلمة خفيفة بالنسبة لي.

وكان ويذربي متعباً لدرجة لم يكن مستعداً معها للاستمرار في
المناقشة، ويشعر بالضيق لدرجة جعلته لا يقدم الإجابات المطلوبة،
ولكنه قال:

- إنك ستعود إلى أصحاب المذاهب مرة أخرى، سأصلي لك لكي
تعود إليهم.

- من الأفضل أن تصلي لجميع من في الركب أيها الأخ ويدربي،
لقد ذكروا لي الآن المنطقة التالية تعج بالجاموس البري لدرجة سيكون
الركب معها في خطر، وسيكون هناك هنود أيضًا.

- إنني أصلي دائمًا للجميع، ولكنني سوف أصلي لك صلاة خاصة،
إنك ستعود إلى إيمانك.

فقال ماك:

- إذا نجح المؤمن في إيمانه، فإنه يستمر في إيمانه، أما إذا لم ينجح
فإنه يهجر إيمانه.

- ربما أنت على صواب.

- أسعدت مساء يا ماك.

ثم قام ويدربي في خيمته بأداء صلاة أخرى، وقال:

- «إنني أضع نفسي بين يديك يا رب، فامنحني القوة والحكمة لكي
أوصل رسالتك، وساعدني مع هؤلاء الأثمين والمخطئين والمتوحشين
والمتشككين، مثل الأخ ماك، حتى يستطيعوا أن يشاهدوا ويلمسوا
عظمة وقوة أعمالك ليسجدوا لك ويعبدوك. امنحني المقدرة على
معرفة كل شيء صواب، وارع ركبتنا الصغير، إنني أصلي لك أن ترعانا
حتى نصل إلى أوريجون.. آمين».

وجاءت إلى سمعه في هدوء الليل وسكونه أصوات ضربات
الطبول التي ترقص عليها الكلاب.

الفصل الخامس عشر

شاهد إيفانز أمامه ملايين من الجاموس البري عن يمينه وعن يساره، وأمامه وخلفه، تسد منافذ جميع الطرق في هذه المنطقة لتمنع الركب من شق طريقه، وهي تثير الأتربة الكثيفة لدرجة كونت معها سحبًا كثيفة من الغبار. لن يستطيع أي إنسان أن يحصي هذه الأعداد الكبيرة حتى ولو قضى كل عمره في هذا الحصر، كما لن يستطيع أن يصور التهدير المخيف الذي يصدر عن تحرك هذه الأعداد الزاحفة.. كانت الشيران والأبقار والعجول تصيح بأصوات مختلفة مزعجة وتندمج جميعها فيما يمكن أن يسمى بهدير مخيف.

ولم يكن إيفانز يستطيع أن يثق بوجود الأرض أسفل هذه الجحافل الضخمة ما لم يكن قد استطاع مشاهدة «رد بوتس» التي ترتفع عارية فوق كتفه أو المستنقعات الجافة الممتلئة بالأملاح. لم يفزع الجاموس البري من الركب، ولكنه تفرق جانبًا ربما بسبب الرغبة في البحث عن عشب أو تجنبًا للعربات، وفي هذا المجال قال إيفانز:

- إنني كنت أسميك أكبر كاذب لو كنت قد أخبرتني بذلك يا ديك؟
وقبل أن يجيبه ديك على ذلك، أخذ يلتفت إلى الورااء لمتابعة

الركب الذي كان يمتد نحو نصف ميل إلى الخلف، ثم قال:

- الوافر من اللحوم، أليس كذلك؟

- والأعشاب هنا وافرة أيضاً.

وقال ديك وضوء الأمل ينعكس لحظة في عينيه:

- حسناً، لقد كنت تطلب دائماً مثل هذه المناظر.

- لعنة الله على هذه الأراضي.. مناطق لا يوجد بها جاموس مطلقاً،

ومناطق يتكدرس بها لدرجة مخيفة، ألا توجد مناطق معتدلة؟

- وذلك بالإضافة إلى الذئاب!

الذئاب التي تقطع مسافات طويلة في مجموعات، مثل الكلاب الذكور التي تسعى جماعات وراء كلبة أنثى، وعيونها مصفرة وألستها مبتلة وهي ترقب عجلاً صغيراً أو جاموسة بطيئة الحركة أو عجوزاً؛ لكي تنقض عليها. أخذ إيفانز ينظر حوله ليرى ويتصور جماعات الجاموس البري والذئاب والأعشاب والعظام والجماجم والحجارة والحية ذات الأجراس التي تقفز وراء هذه المجموعات.

لم يتصور إيفانز مطلقاً أن يشاهد مثل هذا المنظر، كان منظرًا وحشيًا قوياً وغنيًا بالمتناقضات لدرجة تجعل العينين تتعبان وتتألمان، كانت المناظر البعيدة تقترب بحدة كما لو كانت من خلال منظار.

شعر مرة أخرى بالعظمة والضآلة معاً، والوحشية وثرأ البرية، وشاهد الركب يجري خلفه كالرياح، فأخذ يتحدث بفخر وكبرياء. كان ركبه هو الركب الوحيد الذي يسير في المقدمة، كانت المواقف تنتشر

فردّ ديك قائلاً:

- تستطيع أن تعتمد دائماً على ليجي.

واستمر ديك يقول:

- لقد أخذنا إلى منتصف الطريقة لمراقبة الماشية، وقادنا إلى نهاية

طيبة كان من الممكن أن تنتهي بضياح هذه الماشية وضياح الأرواح
أيضاً.



- إنك تشعرين بالقلق والملل يا جودي.

شعرت جوديث بحاجة ملحة للبكاء والجلوس على الأرض،
والشعور بالخجل والرغبة في الصباح والهباج. حولت وجهها نحو
تودي الذي كان يعبث في الأرض بعصا، ثم قالت:

- كم أود أن أصبح مثلك يا ربيكا!

- مثلي أنا؟

- إن الأمور تبدو كما لو كانت لا تقلقك أو تضايقك.

- ولم أشعر بانتهاء أو بحزن أو بأي شخص آخر؟

- لا أعرف لماذا أنا مغتمة وأشعر بالضيق.

- إننا نشعر بالشعور نفسه جميعاً.

أجابت ربيكا هذه الإجابة وهي لا تزال مشغولة، ثم استمرت تقول:

- ولكن الأمر يبدو لك ضئيلاً الآن معي؛ إذ إنني تعودت على هذا

الأمر. إن الأمر يختلف بالطبع معي، ربما قد تشعر المرأة بالمرض والضعف، ومع ذلك فهي تستمر في الحمل والولادة حتى يمكن أن تكون أسرة بطفلها.

- ربما كان الأمر كذلك.

- إن المرأة ليست مقطوعة

بعودة الصحة إلى ابنها، الذي يحمل وجه الأطفال، ولكن آلام الماضي ظلت تؤرقها.. كانت تشعر بقوة ورغبة ودافع من أجل التقهقر والعودة، والهرب إلى الزراعة في كنتاكي.. والذهاب إلى والدتها التي تعيش عيشة كريمة في لكسنجتون، وزيارة أختها التي تعيش في هدوء وسلام وسعادة في فيكسبورج. كانت تأمل في أن تصل خطاباتهما التي تركتها في فورت لارامي إلى وجهتها التي حددتها.

واستمرت ربيكا تقول:

- أجل.. إنه في صحة جيدة على أي حال.

رفع نود رأسه، وقال:

- ألا أستطيع أن أذهب لألعب مع بقية الأول

- أعتقد أنني شديدة الحذر، ولكنه كان مريضاً.. مريضاً لفترة طويلة.

ثم وجهت حديثها إلى تود، واستمرت تقول:

- ماذا عن كعك الأوحال؟

- إنني أشعر بالسأم والملل من عدم عمل أي شيء يا والدتي!

- ماذا عن كعك الأوحال؟

وجهت إليه هذا السؤال وهي تفكر؛ كيف يخلق ضياع الوقت روح السأم والمرارة في نفس الطفل؟ وتذكرت فترة صباها، وكيف كانت الساعات تمر قاسية، ووضعت نفسها في مكانه وأخذت تتصور دوران العجلات اللانهائية، والشمس الحارقة

انتهين جميعاً من عمليات الغسل، وبقي عليهن نشر الملابس في الهواء لكي تجف، لذلك وجهت جوديث حديثها إلى ريكا قائلة:

- كان عظيمًا منك أن تساعدني، تستطيعين الذهاب الآن.

- ستصبح الأمور على خير ما يرام، وسنصل قريبًا إلى ويلاميت.

- إنني لست قلقة بهذا الشأن.. إنني مجرد.. لا أعرف.. إنني مجرد سخيفة.

- إن ما يأتي في العادة ليس قريبًا أو سيئًا حتى نخشاه ونرهبه. تذكر ذلك.

- لماذا؟

- لكي تحضر السمك بالطبع.

- أنا لا أفعل ذلك.

وتنهّد بصوت مسموع، ثم وضع الفرع الخشبي وبعض العصي،
وكان تود يراقبه.

- لماذا؟

فقطب جبينه، ورد قائلاً:

- أستطيع أن أقول إنني لا أعرف الكتابة.

- أوه!

- انتظر يا بني، لقد نسينا أن نترك فتحة للباب أو المدخل.. إن ما أريد أن أخبر والدتك به هو أن تفكيري بسيط، وأنني لن أقوم بعد ذلك بحفر اسمي؛ لأنني أو غيري لن نكون واثقين، فيما بعد، أن الاسم الذي حُفر فوق هذه الصخرة هو اسمي أنا.

- كنت أعتقد أنهم يحفرون أسماءهم لكي يراها غيرهم من الناس.
- إنني لا أرى أن حفر الاسم وسط ضياع مفقودة سيكون له أثر كبير في حياة الفرد. والآن يا بني لنضع مدفعًا بداخل القلعة لإبعاد الهنود عنها.

- ألا يكتبون أسماءهم حتى يراها غيرهم من الناس؟
- إن الناس الذين يعرفونني يعرفون اسمي، والذين لا يعرفونني لا يهتمون بذلك، وإلا كان ذلك

- استمر في لعبة القلعة يا تود في حين أقوم أنا بإنهاء أعمالي، ثم نستطيع أن نخوض المياه معًا بعد ذلك.

ثم ذهبت إلى الجبل الذي كان مشدودًا بين شجرتين، ووضعت السلة فوق الأرض وأخذت تعلق الملابس المغسولة فوق الجبل، وانتهت من تعليق آخر قطعة من الملابس والتفتت لتحدث إلى تود، ولكنه كان قد ذهب واختفى.

لم يكن يقصد الهرب، ولكنه كان يرغب في التحرك جانبًا، بعد أن تعب من صنّع القلاع وكعك الأوحال والبقاء في مكان واحد، ابتعد قليلاً عن المغسل ليجري نحو بقعة ممتلئة بالأعشاب الجافة، وشاهد في

فتوقف عن الجري، وانحرف تجاه هذه المجموعة، وانحنى لينظر بين الصخور الصغيرة وسط الأعشاب الجافة بفعل الشمس ليرى وجهًا صغيرًا، يشبه وجه رجل، ينظر إليه، وفمًا مفلطحًا وعينين متحجرتين، وفتحتين للأنف ولسانًا أحمر صغيرًا يخرج

- عندنا حمولة طيبة من اللحوم.
- فرد عليه ديك قائلاً:
- إن الحظ يسير في جانبنا حتى الآن.
- فتساءل فيرمان:
- ماذا تعني يا ديك؟ هل هناك القليل من المرض؟
- الهنود، إننا لم نر سوى الق

لل

ديك

